منهاج العابدين

للشيخ الامام العارف بالله تعالى زين الدين حجة الاسلام
أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى
الطوسى قدس الله روحه ونور
ضريحه ونفعنا والمسلمين
بعلومه آمين

﴿ وبهامشه الكتاب المسمى بداية الهداية للمؤلف أيضاً ﴾

طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية
لأصحابها عيسى البابى الحلبى وشركاه
بجوار المشهد الحسينى بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله غفر الله له أملى علىّ شيخى الأجل الامام الزاهد السعيد الموفق حجة الاسلام زين الدين شرف الامة أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى قدس الله روحه ورفع الله فى الجنة درجته هذا الكتاب المختصر وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله منه الاخواص أصحابه وهو (الحمد لله) الملك الحكيم. الجواد الكريم. العزيز الرحيم. الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم. وفطر السموات والأرض بقدرته. ودبر الأمور فى الدارين بحكمته. وماخلق الجن والانس إلا لعبادته. فالطريق اليه واضح للقاصدين. والدليل عليه لائح للناظرين. ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين. والصلاة على سيد المرسلين. وعلى آله الأبرار الطيبين الطاهرين. وسلم وعظم إلى يوم الدين. اعلموا اخوانى أسعدكم الله واياى بمرضاته. أن العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر وحاصل العبيد الأقوياء. وبضاعة الأولياء. وطريق الأتقياء. وقسمة الأعزة. ومقصد ذوى الهمه. وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار أولى الأبصار وهى سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تعالى «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» وقال تعالى «إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» ثم انا نظرنا فيها. وتأملنا طريقها من مباديها. إلى مقاصدها التى هى أمانىّ سالكيها. فاذا هى طريق وعر وسبيل صعب كثيرة العقبات. شديدة المشقات. بعيدة المسافات. عظيمة الآفات. كثيرة العوائق والموانع. خفية المهالك والمقاطع. غزيرة الأعداء والقطاع. عزيزة الاشياع والاتباع. وهكذا يجب أن تكون لأنها طريق الجنة فيصير هذا تصديقا لما قاله ﷺ «أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ» وقال ﷺ «أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ أَلَا وَإِنَّ النَّارَ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ» ثم مع ذلك كله فان العبد ضعيف والزمان صعب وأمر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير. وفى العمل تقصير. والناقد بصير والأجل قريب والسفر بعيد والطاعة هى الزاد فلابد منها. وهى فائتة فلامرد لها. فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين. ودهر الداهرين. ومن فاته ذلك خسر مع الخاسرين. وهلك مع الهالكين. فصار هذا الخطب

(بسم الله الرحمن الرحيم) قال الشيخ الامام العالم العلامة حجة الاسلام. وبركة الأنام. أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى قدس الله روحه. ونور ضريحه. آمين. الحمد لله حق حمده. والصلاة والسلام على خير خلقه. محمد وعلى آله وصحبه من بعده. (أما بعد) فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعطش اليه أنك ان كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الاقران واستمالة وجوه الناس اليك وجمع حطام الدنيا فأنت ساع فى هدم دينك. وهلك نفسك. وبيع آخرتك بدنياك. فصفقتك خاسره. وتجارتك بائره. ومعلمك معين لك على عصيانك. وشريك لك فى خسرانك. وهو كبائع سيف من قاطع طريق

إذا والله معضلا. والخطر عظيما. فلذلك عزمن يقصد هـذا الطريق وقل ثم عز من القاصدين من يسلـكه ثم عز من السالـكين من يصل إلى المقصود ويظفر بالمطلوب وهم الأعزة الذين اصطفاهم الله عزوجل لمعرفته ومحبته. وسددهم بتوفيقه وعصمته. ثم أوصلهم بفضله إلى رضوانه وجنته. فنسأله جل ذكره أن يجعلكم وإيانا من أولئك الفائزين برحمته. نعم ولما وجدناهذه الطريق بهذه الصفة نظرنا فأمعنا النظر فى كيفية قطعها ومايحتاج اليه العبد من الأهبة والعدة والآلة والحيلة من علم وعمل عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله فى سلامة ولا ينقطع فى عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالـكين والعياذبالله فصنفنا فى قطع هذه الطريق وسلوكها كتبا كاحياء علوم الدين والقربة إلى الله تعالى وغير ذلك احتوت على دقائق من العلوم اعتاصت على أفهام العامة فقدحوا فيها. وخاضوا فيمالم يحسنوه منها. فأى كلام أفصح من كلام رب العالمين. وقدقالوا فيه انه أساطير الأولين. ألم تسمع إلى قول زين العابدين. على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين

انى لأ كتم من علمى جواهرَه ... كيلا يَرى ذاك ذوجهل فيفتتنا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصّى قبله الحسنا
يارب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح مايأتونه حسنا

واقتضت الحال عندذوى الدين الذين هم أشرف خلق الله تعالى النظر إلى كافة خلق الله تعالى بعين الرحمة وترك المماراة فابتهلت إلى من بيده الخلق والأمر أن يوفقنى لتصنيف كتاب يقع عليه الاجماع. ويحصل بقراءته الانتفاع. فأجابنى إلى ذلك الذى يجيب المضطر إذادعاه وأطلعنى بفضله على أسرار ذلك وألهمنى فيه ترتيبا عجيبا لم أذكره فى المصنفات التى تقدمت من أسرار معاملات الدين وهو الذى أناله واصف (فأقول وبالله التوفيق) إن أول ماينتبه العبد للعبادة ويتجرد لسلوك طريقها بخطرة سماوية من الله وتوفيق خاص الهى وهو المعنىّ بقوله سبحانه وتعالى «أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» وأشار اليه صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فقال «إن النورَ إذادخل القلبَ انفسحَ وانشرح» فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها فقال «التجافى عن دار الغرور والانابةِ إلى دار الخلودِ والاستعدادُ للموتِ قبل نزول الموت» فاذاخطر بقلب العبد أول كل شىء انى أجدنى منعما بضروب من النعم علىّ كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعانى الشريفة واللذات مع ماينصرف عنى من ضروب المضار والآفات وان لهذه النعم منعما يطالبنى بشكره وخدمته فان غفلت عن ذلك فيزيل عنى نعمته ويذيقنى بأسه ونقمته وقد بعث إلىّ رسولا أيده بالمعجزات الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر وأخبرنى بأن لى ربا جل ذكره قادرا عليما حيا مريدا متكلما يأمر وينهى قادرا على أن يعاقب ان عصيته ويثيب ان أطعته عالما بأسرارى وما يختلج فى أفكارى وقد وعد وأوعد وأمر بالتزام قوانين الشرع فيقع فى قلبه أنه ممكن إذلا استحالة لذلك فى العقل بأول البديهة فيخاف على نفسه عند ذلك ويفزع فهذا خاطر الفزع الذى ينبه العبد ويلزمه الحجة ويقطع عنه المعذرة ويزعجه إلى النظر والاستدلال فيهتاج العبد عند ذلك ويقلق وينظر فى طريق الخلاص وحصول الأمان مما وقع بلبه أو سمع بأذنه فلم يجد فيه سبيلا سوى النظر بعقله فى الدلائل والاستدلال

كما قال صلى الله عليه وسلم «مَنْ أعانَ على معصيةٍ ولو بشَطر كلمةٍ كان شريكاله فيهـا» وان كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فان الملائـكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت وحيتان البحر تستغفر لك إذاسعيت. ولـكن ينبغى لك أن تعلم قبل كل شىء أن الهداية التى هى ثمرة العلم لها بداية ونهاية وظاهر وباطن ولا وصول إلى نهاياتها إلا بعد احكام بدايتها. ولا عثور على باطنها الا بعد الوقوف على ظاهرها. وها أنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتمتحن بها قلبك. فان صادفت قلبك اليها مائلا ونفسك بها مطاوعة ولهـا قابلة فدونك التطلع إلى النهايات والتغلغل فى بحار العلوم وان صادفت قلبك عند مواجهتك اياه بها مسوفا وبالعمل

بالصنعة على الصانع ليحصل له علم اليقين بما هو مغيب ويعلم أن له ربا كلفه وأمره ونهاه (فهذه أول عقبة) استقبلته فى طريق العبادة وهى عقبة العلم والمعرفة ليكون من الأمر على بصيرة فيأخذ فى قطعها من غير بد بحسن النظر فى الدلائل ووفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق سرج الأمة وقادة الأئمة والاستفادة منهم واستهداء الدعاء الصالح منهم للتوفيق والاعانة الى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له علم اليقين بالغيب وهو أن له الها واحدا لا شريك له هو الذى خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم وأنه كلفه شكره وأمره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه وحذره الكفر وضروب المعاصى وحكم له بالثواب الخالد ان أطاعه وبالعقاب الخالد ان عصاه وتولى عنه فعند ذلك تبعثه هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة والاقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذى طلبه فوجده وعرفه بعد ما جهله ولكنه لا يدرى كيف يعبده وماذا يلزمه فى خدمته بظاهره وباطنه فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالى جهد حتى يتعلم ما يلزمه من الفرائض الشرعية ظاهرا وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض انبعث ليأخذ فى العبادة ويشتغل بها فنظر فاذا هو صاحب جنايات وذنوب وهذا حال الأكثر من الناس فيقول كيف أقبل على العبادة وأنا مصر على المعصية متلطخ بها فيجب على أولا أن أتوب اليه ليغفر لى ذنوبى ويخلصنى من أسرها ويطهرنى من أقذارها فأصلح للخدمة وبساط القربة فتستقبله ههنا (عقبة التوبة) فيحتاج لا محالة الى قطعها ليصل إلى ما هو المقصود منها فيأخذ فى ذلك باقامة التوبة بحقوقها وشرائطها الى أن يقطعها فلما أن حصلت التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقبة حن الى العبادة ليأخذ فيها فنظر فاذا حوله عوائق محدقة به كل واحد منها يعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق فتأمل فاذا هى أربعة: الدنيا والخلق والشيطان والنفس، فاحتاج لا محالة الى دفع هذه العوائق وازاحتها عنه والا فلا يأتى له مراده من العبادة فاستقبلته ههنا (عقبة العوائق) فيحتاج الى قطعها بأربعة أمور التجرد عن الدنيا والتفرد عن الخلق والمحاربة مع الشيطان والقهر للنفس فأما النفس فأشدها اذ لا يمكنه التجرد عنها ولا أن يقهرها بمرة ويقمعها كالشيطان اذ هى المطية والآلة ولا مطمع أيضا فى موافقتها على ما يقصده العبد من العبادة والاقبال عليها اذ هى مجبولة على ضد الخير كاللهو واتباعها له فاحتاج اذا الى أن يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع وتنقاد له فلا تطغى فيستعملها فى المصالح والمراشد ويمنعها من المهالك والمفاسد فيأخذ اذا فى قطع هذه العقبة ويستعين بالله جل ذكره على ذلك فلما فرغ من قطعها رجع الى قصد العبادة فاذا عوارض تعترضه فتشغله عن الاقبال على مقصوده من العبادة وتصده عن التفرغ لذلك كما ينبغى فتأمل فاذا هي أربعة الرزق تطالبه النفس به وتقول لا بد لى من رزق وقوام وقد تجردت عن الدنيا وتفردت أيضا عن الخلق فمن أين يكون قوامى ورزقى والثانى الاخطار من كل شىء يخافه أو يرجوه أو يريده أو يكرهه ولا يدرى صلاحه فى ذلك أو فساده لأن عواقب الأمور مبهمة فيشتغل قلبه بها فانه ربما وقع فى فساد أو مهلكة والثالث الشدائد والمصائب تنصب عليه من كل جانب لا سيما وقد انتصب لمخالفة الخلق ومحاربة الشيطان ومضادة النفس فكم من غصة يتجرعها وكم من شدة تستقبله وكم من هم وحزن يعترضه وكم من مصيبة تتلقاه والرابع أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر ترد عليه حالا فحالا والنفس تسارع الى السخط وتبادر الى الفتنة فاستقبلته ههنا (عقبة العوارض الأربعة) فاحتاج الى قطعها بأربعة

أشياء

بمقتضاها مماطلا فاعلم أن نفسك المائلة إلى طلب العلم هى النفس الأمارة بالسوء وقد انتهضت مطيعة للشيطان اللعين ليدليك بحبل غروره فيستدرجك بمكيدته الى غمرة الهلاك وقصده أن يروج عليك الشر فى معرض الخير حتى يلحقك بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الآثار والأخبار ويلهيك عن قوله صلى الله عليه وسلم «مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا» وعن قوله ﷺ «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ» وكان ﷺ يقول «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَعَمَلٍ لَا يُرْفَعُ وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ» وعن قوله ﷺ «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ فَقُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ وَنَنْهَى عَنِ

الشرَّ ونأتيه » فاياك يامسكين أن تذعن لتزويره فيدليك بحبل غروره

أشياء التوكل على الله سبحانه وتعالى في موضع الرزق والتفويض اليه جل وعز في موضع الخطر والصبر عند نزول الشدائد والرضا عند نزول القضاء فأخذ في قطع هذه العقبة باذن الله تعالى وحسن تأييده فلما فرغ من قطعها وعاد الى قصد العبادة نظر فاذا النفس فاترة ضعيفة كسلى لاتنشط ولاتنبعث للخير كما يحق وينبغي وانما ميلها أبدا الى غفلة ودعة وراحة وبطالة بل الى شر وفضول وبلية وجهالة فاحتاج معها ههنا الى سائق يسوقها الى الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه وهما الرجاء والخوف فالرجاء في عظيم ثواب الله سبحانه وحسن ماوعد من أنواع الكرامة وتذكر ذلك سائق يسوقها فيبعثها على الطاعة ويحركها لذلك وينشطها، والخوف من أليم عقاب الله عزوجل وصعوبة ماأوعد من أنواع العقوبة والاهانة زاجر يزجرها عن المعصية ويجنبها ويفترها عن ذلك (فهذه عقبة البواعث) استقبلته هنا فاحتاج الى قطعها بهذين المذكورين فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها فلما فرغ منها رجع الى الاقبال على العبادة فلم ير عائقا ولاشاغلا ووجد باعثا وداعيا فنشط في العبادة وأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة فأداها فنظر فاذا انه تبدو لهذه العبادة العظيمة التي احتمل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان وهما الرياء والعجب ، تارة يرائي بطاعته الناس فيفسدها ، وأخرى يمتنع عن ذلك ويلوم نفسه فيعجب بنفسه فيحبط العبادة عليه ويتلفها ويفسدها فاستقبلته ههنا (عقبة القوادح) فاحتاج الى قطعها بالاخلاص وذكر المنة ونحوها ليسلم له مايعمل من خير فأخذ في قطع هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى بجد واحتياط وتيقظ بحسن عصمة الجبار تعالى وتأييده ، فلما فرغ من هذه كلها حصلت له العبادة كما يحق وينبغي وسلمت من كل آفة ، ولكنه نظر فاذا هو غريق في بحر منن الله تعالى وأياديه من كثرة ماأنعم الله عليه من امداد التوفيق والعصمة وأنواع التأييد والحراسة والكرامة وخاف أن يكون منه اغفال للشكر فيقع في الكفران فينحط عن تلك المرتبة الرفيعة التي هي مرتبة الخدم الخالصين لله عزوجل وتزول عنه تلك النعم الكريمة من ضروب ألطاف الله تعالى وحسن نظره اليه فاستقبلته ههنا (عقبة الحمد والشكر) فأخذ فيها فقطعها بما أمكنه من كثرة الحمد والشكر على كثير نعمه ، فلما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل فاذا هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه فلم يسر الا قليلا حتى وقع في سهل الفضل وصحراء الشوق وعرصات المحبة، ثم يقع في رياض الرضوان وبساتين الأنس الى بساط الانبساط ومرتبة التقريب ومجلس المناجاة ونيل الخلع والكرامات فهو يتنعم في هذه الحالات ويتقلب في طيبها أيام بقائه وبقية عمره بشخص في الدنيا وقلب في العقبى ينتظر البريد يوما فيوما حتى مل الخلق كلهم ويستقذر الدنيا ويحن الى الموت ويستكمل الشوق الى الملأ الأعلى ، فاذا هو برسل رب العالمين اليه يردون عليه بالروح والريحان والبشرى والرضوان من عند رب راض غير غضبان فينقلونه في طيبة النفس وتمام البشر والأنس من هذه الدار الفانية المفتنة الى الحضرة الالهية ومستقر رياض الجنة فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيما مقيما وملكا كبيرا عظيما ، ويلقى هنالك من سيده الرحيم المتفضل الكريم جل ذكره من اللطف به والعطف والترحيب والتقريب والانعام والاكرام مالايحيط به وصف الواصفين ونعت الناعتين فهو في كل يوم في زيادة الى أبد الآبدين . فيالها من سعادة عظيمة ويالها من دولة عالية وياله من عبد مسعود وامرئ مغبوط وشأن محمود وطوبى له وحسن مآب . نسأل الله البر الرحيم سبحانه وتعالى أن يمن علينا وعليكم بهذه المنة العظيمة والنعمة

فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة واحدة وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة . واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال رجل طلب العلم ليتخذه زاده الى المعاد ولم يقصد به الا وجه الله والدار الآخرة فهذا من الفائزين. ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة وينال به العز والجاه والمال وهو عالم بذلك مستشعر في قلبه ركاكة حاله وخسة مقصده فهذا من المخاطرين. فان عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة وبقي أمره في خطر المشيئة وان وفق للتوبة قبل حلول الأجل . وأضاف الى العلم العمل. وتدارك مافرط فيه من الخلل . التحق بالفائزين. فان التائب من الذنب كمن لاذنب له. ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة الى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الأتباع يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضي من الدنيا وطره وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكان لاتسامه بسمة العلماء وترسمه برسومهم في الزي والنطق مع تكالبه

الجسيمة وماذلك على الله بعزيز ، وأن لا يجعلنا من الذين لا نصيب لهم من هذا الأمر الا وصف وسماع وعلم وتمن بلا انتفاع ، وأن لا يجعل ما تعلمناه من العلم حجة علينا يوم القيامة وأن يوفقنا جميعا للعمل بذلك والقيام به كما يحب ويرضى انه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم وشرف وكرم (فهذا) هو الترتيب الذى ألهمنى مولاى فى طريق العبادة (فاعلم الآن) بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة سبع عقبات: الأولى عقبة العلم ، الثانية عقبة التوبة ، الثالثة عقبة العوائق ، الرابعة عقبة العوارض ، الخامسة عقبة البواعث ، السادسة عقبة القوادح ، السابعة عقبة الحمد والشكر ، وبتمامها يتم كتاب منهاج العابدين الى الجنة . ونحن الآن نتبع هذه العقبات بشرح موجز اللفظ مشتمل على النكت المقصودة من هذا الشأن كل منها فى باب مفرد ان شاء الله عز وجل . والله سبحانه ولى التوفيق والتسديد بمنه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿ العقبة الأولى وهى عقبة العلم ﴾

(فأقول) وبالله التوفيق : ياطالب الخلاص والعبادة عليك أولا وفقك الله بالعلم فانه القطب وعليه المدار . واعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ماترى وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين ووعظ الواعظين ونظر الناظرين ، بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل ، بل لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهن من الخلق وتأمل آيتين فى كتاب الله عز وجل احداهما قوله جل ذكره ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم لاسيما علم التوحيد ، والآية الثانية قوله جل من قائل «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزوم الاقبال عليها ، فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدارين فحق للعبد أن لا يشتغل الا بهما ولا يتعب الا لهما ولا ينظر الا فيهما . واعلم أن ماسواهما من الأمور باطل لا خير فيه ولغو لا حاصل له . فاذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما ولذلك قال النبى ﷺ «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي» وقال ﷺ «نَظْرَةٌ إِلَى الْعَالِمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا» وقال ﷺ «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَشْرَفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هُمْ عُلَمَاءُ أُمَّتِي» فبان لك أن العلم أشرف جوهرا من العبادة ولكن لا بد للعبد من العبادة مع العلم والا كان علمه هباء منثورا فان العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها فالشرف للشجرة اذ هى الأصل لكن الانتفاع انما يحصل بثمرتها فاذن لا بد للعبد من أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب ، ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا هذه العبادة طلبا لا يضر بالعلم ولما استقر أنه لا بد للعبد منهما جميعا فالعلم أولى بالتقديم لا محالة لأنه الأصل والدليل ولذلك قال ﷺ «الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ» وانما صار العلم أصلا متبوعا يلزمك تقديمه على العبادة لأمرين : أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم فانك أولا يجب عليك أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل فى نعته ، فربما تعتقد فيه وفى صفاته شيئا والعياذ بالله مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورا وقد شرحنا مافى ذلك من الخطر العظيم فى بيان معنى سوء الخاتمة من كتاب الخوف من جملة كتب احياء علوم الدين . ثم

فهذا من الهالكين ومن الحمق المغرورين اذ الرجاء منقطع عن توبته على الدنيا ظاهرا وباطنا لظنه أنه من المحسنين وهو غافل عن قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وهو ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ فَقِيلَ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ عُلَمَاءُ السُّوءِ» وهذا لأن الدجال غايته الاضلال ومثل هذا العالم وان صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داع لهم بأعماله وأحواله ولسان الحال أفصح من لسان المقال وطباع الناس الى المشاهدة فى الاعمال أميل منها الى المتابعة فى الاقوال فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله اذ لا يستجرىء الجاهل على الرغبة فى الدنيا الا باستجراء العلماء فقد صار علمه سببا لجراءة عباد الله على معاصيه ونفسه الجاهلة مدلة مع ذلك تمنيه وترجيه وتدعوه

يجب عليك أن تعلم مايلزمك فعله من الواجبات الشرعية على ماأمرت به لتفعل ذلك ومايلزمك تركه من المناهى لتترك ذلك ، والا فكيف تقوم بطاعات لاتعرفها ماهى وكيف هى وكيف يجب أن تفعل أم كيف تجتنب معاصى لاتعلم أنها معاص حتى لاتوقع نفسك فيها ، فالعبادات الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها فربما أنت مقيم على شىء سنين وأزمانا ممايفسد عليك طهارتك وصلواتك ويخرجهما عن كونهما واقعتين على وفاق السنة وأنت لاتشعر بذلك وربما يعترض لك مشكل ولاتجد من تسأله عن ذلك وأنت ماتعلمته ، ثم مدار هذا الشأن أيضا على العبادات الباطنة التى هى مساعى القلب يجب أن تعلمها من التوكل والتفويض والرضا والصبر والتوبة والاخلاص وغير ذلك مماسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى، ويجب أن تعلم مناهيها التى هى أضداد هذه الأمور كالسخط والأمل والرياء والكبر لتجتنب ذلك فان هذه فرائض ونص الله تعالى على الأمر بها والنهى عن أضدادها فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه ﷺ كما قال تعالى ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ وقوله ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أى أخلص اليه اخلاصا ونحو ذلك من الآيات كما نص على الأمر بالصلاة والصوم فمالك أقبلت على الصلاة أو الصوم وتركت هذه الفرائض والأمر بهما من رب واحد فى كتاب واحد بل غفلت عنها فلاتعرف شيئا منها بفتوى من أصبح بعاجل حظه مشغوفا حتى صير المعروف منكرا والمنكر معروفا ومن أهمل العلوم التى سماها الله فى كتابه نورا وحكمة وهدى وأقبل على مابه يكتسب الحرام ويكون مصيدة للحطام. أماتخاف أيها المسترشد أن تكون مضيعا الشىء من هذه الواجبات بل لأكثرها وتشتغل بصلاة التطوع وصوم النفل فتكون فى لاشىء. وربما أنت مصر على معصية من المعاصى التى تستوجب بها النار وتترك مباحا من طعام أوشراب أونوم تبتغى به قربة الى الله تعالى عزوجل فتكون فى لاشىء . وأشد من ذلك كله أنك تكون فى أسر الأمل والأمل معصية محضة فتظنه نية خير لجهلك بالفرق بينهما وتقاربهما فى بعض الوجوه. وكذلك تكون فى جزع وسخط فتظنه تضرعا وابتهالا الى الله عزوجل وتكون فى رياء محض وتحسبه حمدا لله سبحانه وتعالى أودعوة للناس الى خير فتأخذ تعد على الله سبحانه المعاصى بالطاعات وتحتسب الثواب العظيم فى مواضع العقوبات فتكون فى غرور عظيم وغفلة قبيحة فهذه والله مصيبة فظيعة للعاملين من غير علم . ثم مع ذلك كله فان للاعمال الظاهرة علائق من المساعى الباطنة تصلحها وتفسدها كالاخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغيره فمن لم يعرف هذه المساعى الباطنة ووجود تأثيرها فى العبادات الظاهرة وكيفية الاحتراس منها وحفظ العمل عنها فقلما يسلم له عمل الظاهر أيضا فتفوته طاعات الظاهر والباطن ولايبقى بيده الا الشقاء والكدر. هذا هو الخسران المبين ولهذا قال رسول الله ﷺ فى صفة العلم « إِنَّ نَوْمًا عَلَى عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى جَهْلٍ » فان العامل بغير علم يفسد أكثر ممايصلح. وقال رسول الله ﷺ فى العلم « إِنَّهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ » والمعنى والعلم عند الله سبحانه أن احدى شقوتيه أن لايتعلم العلم ثم يشقى ويتعب فى العبادة على خبط فمايكون له من ذلك الا العناء والعياذ بالله من علم وعمل لاينفع ولهذا عظمت عناية العلماء الزهاد العاملين رضى الله عنهم بالعلم خاصة من بين سائر الناس فان مدار أمر العبودية وملاك العبادة والخدمة لله رب العالمين على العلم وهكذا يكون نظر أولى الأبصار وأهل التأييد والتوفيق

الى أن يمن على الله بعلمه وتخيل اليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله فكن أيها الطالب من الفريق الأول واحذر أن تكون من الفريق الثانى فكم من مسوف عاجله الأجل قبل التوبة فخسر واياك ثم اياك أن تكون من الفريق الثالث فتهلك هلاكا لايرجى معه فلاحك ولا ينتظر صلاحك. فان قلت فما بداية الهداية لأجرب بها نفسى فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى ونهايتها باطنة التقوى فلاعاقبة الا بالتقوى ولا هداية الا للمتقين . والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه فهما قسمان وهاأنا أشير عليك بجملة مختصرة من ظاهر علم التقوى فى القسمين جميعا

﴿القسم الأول الطاعات﴾

اعلم أن أوامر الله تعالى فرائض ونوافل فالفرض رأس المال وهو أصل التجارة وبه تحصل التجارة والنفل هو الربح وبه الفوز فى الدرجات قال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ

فاذا تبين لك بهذه الجملة أن الطاعة لا تحصل للعبد ولا تسلم له الا بالعلم فيلزم اذا تقديمه فى شأن العبادة (وأما الخصلة الثانية) التى توجب تقديم العلم فهى أن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته فبالعلم يعرفه ويعظمه ويهابه فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله وليس وراء هذين مقصد للعبد فى عبادة الله سبحانه وتعالى فعليك بالعلم أرشدك الله ياسالك طريق الآخرة أول كل شىء والله ولى التوفيق بفضله ورحمته. ولعلك أن تقول قد ورد الخبر عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه أنه قال «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» فما العلم الذى طلبه فرض لازم وما الحد الذى لا بد للعبد من تحصيله فى أمر العبادة (فاعلم) أن العلوم التى طلبها فرض فى الجملة ثلاثة علم التوحيد وعلم السر أعنى به ما يتعلق بالقلب ومساعيه وعلم الشريعة (وأما) حد ما يجب من كل واحد منها فالذى يتعين فرضه من علم التوحيد مقدار ما تعرف به أصول الدين وهو أن لك الها عالما قادرا مريدا حيا متكلما سميعا بصيرا واحدا لا شريك له متصفا بصفات الكمال منزها عن النقصان والزوال ودلالات الحدوث منفردا بالقدم عن كل محدث، وأن محمدا ﷺ عبده ورسوله الصادق فيما جاء به عن الله تعالى وتقدس وفيما ورد على لسانه من أمور الآخرة. ثم (مسائل) فى شعائر السنة تجب معرفتها واياك أن تبتدع فى دين الله سبحانه وتعالى مالم يأت به كتاب ولا أثر فتكون مع الله سبحانه على أعظم خطر. وجميع أدلة التوحيد موجود أصلها فى كتاب الله سبحانه وقد ذكرها شيوخنا رضى الله عنهم فى كتبهم التى صنفوها فى أصول الديانات. وعلى الجملة كل مالا تأمن الهلاك فى جهله فطلب علمه فرض لا يسوغ لك تركه فهذه هذه وبالله التوفيق. وأما الذى يتعين فرضه من علم السر فمعرفة مواجبه ومناهيه حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى والاخلاص له والنية وسلامة العمل، وجميع ذلك يأتى فى كتابنا هذا ان شاء الله عز وجل (وأما) ما يتعين من علم الشريعة فكل ما يتعين عليك فرض فعله وجب عليك معرفته لتؤديه كالطهارة والصلاة والصوم وأما الحج والزكاة والجهاد فان تعين عليك فرضه وجب عليك علمه لتؤديه والا فلا. فهذا حد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لا محالة وتعين فرضه بحيث لا بد لك من ذلك (فان قلت) فهل يفترض على أن أتعلم من علم التوحيد اماما أنقض به جميع ملل الكفر وألزمهم حجة الاسلام وأنقض به جميع البدع وألزمهم حجة السنة (فاعلم) أن هذا فرض على الكفاية وانما يتعين عليك ما تصحح به اعتقادك فى أصول الدين لا غير وكذلك لا يتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والاتيان على جميع مسائله (نعم) ان وردت عليك شبهة فى أصول الدين تخاف أن تقدح فى اعتقادك فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع. واياك والمماراة والمجادلة فانها داء محض لا دواء له فاحترز منه جهدك فان من ارتدا لم يفلح الا أن يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه (ثم اعلم) أنه اذا كان فى كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل الشبه ويرد على أهل البدع ويستقل بهذا العلم ويصفى قلوب أهل الحق عن وساوس المبتدعة فقد سقط الفرض عمن سواه وكذلك لا يلزمك من معرفة دقائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب الا ما يفسد عليك عبادتك فيجب عليك معرفته لتجتنبه وما يلزمك فعله كالاخلاص والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك فيلزمك معرفته لتؤديه (وأما) ما سواه فلا وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أبواب الفقه من البيوع والاجارات

وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» ولن تصل أيها الطالب الى القيام بأوامر الله تعالى الا بمراقبة قلبك وجوارحك فى لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح الى حين تمسى فاعلم أن الله تعالى مطلع على ضميرك ومشرف على ظاهرك وباطنك ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك وخطواتك وسائر سكناتك وحركاتك وأنك فى مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه فلا يسكن فى الملك والملكوت ساكن ولا يتحرك متحرك الا وجبار السموات والأرض مطلع عليه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويعلم السر وأخفى فتأدب أيها المسكين ظاهرا وباطنا بين يدى الله تعالى تأدب العبد الذليل المذنب فى حضرة الملك الجبار القهار واجتهد أن لا يراك مولاك حيث

والاجارات والنكاح والطلاق والجنايات انما كل ذلك فرض على الكفاية (فان قلت) هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الانسان من غير معلم (فاعلم) أن الاستاذ فاتح ومسهل والتحصيل معه أسهل وأروح والله تعالى بفضله يمتن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم سبحانه وتعالى (ثم اعلم) أن هذه العقبة التى هى عقبة العلم عقبة كؤود ولكن بها ينال المطلوب والمقصود، نفعها كثير وقطعها شديد وخطرها عظيم، كم من عدل عنها فضل، وكم من سلكها فزل، وكم من تائه فيها متحير، وكم من خبر منقطع، وكم من سالك قطعها فى مدة يسيرة وآخر متردد فيها سبعين سنة والأمر كله بيد الله عزوجل . أما نفعه فعلى ماذكرنا من شدة الحاجة للعبد اليه وبناء أمر العبادة كله عليه لاسيما علم التوحيد وعلم السر (فلقد روى) أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال ياداود تعلم العلم النافع فقال الهى وما العلم النافع فقال أن تعرف جلالى وعظمتى وكبريائى وكمال قدرتى على كل شىء فان هذا الذى يقربك الى (وعن على كرم الله وجهه) أنه قال: مايسرنى أن لومت طفلا وأدخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربى فان أعلم الناس بالله أشدهم خشية وأكثرهم عبادة وأحسنهم فى الله سبحانه وتعالى نصيحة (وأما) شدتها فابذل نفسك فى الاخلاص فى طلب العلم وليكن الطلب طلب دراية لا طلب رواية (واعلم) أن الخطر عظيم فمن طلب العلم ليصرف به وجوه الناس اليه ويجالس به الأمراء ويباهى به النظراء ويتصيد به الحطام فتجارته بائرة وصفقته خاسرة قال رسول الله ﷺ «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُفَاخِرَ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ» (قال) أبو يزيد البسطامى رحمه الله: عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم وخطره . واياك أن يزين لك الشيطان فيقول لك اذا كان قد ورد هذا الخطر العظيم فى العلم فتركه أولى فلا تظنن ذلك (فلقد روى) عن رسول الله ﷺ أنه قال «اطَّلَعْتُ لَيْلَةَ المعراج على النارِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ قالوا يارسولَ اللهِ من المالِ قال لا بل من العلمِ» فمن لا يتعلم العلم لا يتأتى له احكام العبادات والقيام بحقوقها كما ينبغى ولو أن رجلا عبد الله سبحانه عبادة ملائكة السموات بغير علم كان من الخاسرين . فشمر فى طلب العلم بالبحث والتلقين والتدريس واجتنب الكسل والملال والا فأنت فى خطر الضلال والعياذ بالله عزوجل (ثم جملة الأمر) أنك اذا نظرت فى دلائل صنع الله عزوجل وأمعنت النظر علمت أن لك ولنا إلها قادرا عالما حيا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حدوث الكلام والعلم والارادة مقدسا عن كل نقص وآفة لا يوصف بصفات المحدثين ولا يجوز عليه مايجوز على المخلوقين ولا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شىء ولا تتضمنه الأماكن والجهات ولا تحله الحوادث والآفات (ونظرت) فى معجزات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآياته وأعلام نبوته علمت أنه رسول الله ﷺ وأمينه على وحيه وما كان السلف الصالح يعتقدونه من أن الله تعالى يرى فى الآخرة وأنه موجود وليس فى جهة محدودة وأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وليس بحروف مقطعة ولا أصوات اذ لو كان كذلك لكان من جملة المخلوقات وأنه لا يكون فى الملك والملكوت فلتة خاطر ولا لفتة ناظر الا بقضاء الله تعالى وقدره وارادته ومشيئته فمنه الخير والشر والنفع والضر والايمان والكفر وأنه لا واجب على الله تعالى لأحد من خلقه فمن أثابه فبفضله ومن عاقبه فبعدله وما ورد على لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه من أمور الآخرة كالحشر والنشر وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والميزان

نهاك ولايفقدك حيث أمرك ولن تقدر على ذلك الابان توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك الى مسائك فاصغ الى مايلقى اليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك الى وقت رجوعك الى مضجعك

﴿ فصل فى آداب الاستيقاظ من النوم ﴾

فاذا استيقظت من النوم فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر وليكن أول مايجرى على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فقل عند ذلك الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين أصبحنا على فطرة الاسلام وعلى كلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين اللهم انا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم الى كل خير وأعوذ بك أن أجترح فيه سوءا أو أجره الى مسلم اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور نسألك خير هذا اليوم وخير مافيه ونعوذ بك من شر

والصراط فهذه أصول درج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على اعتقادها والتمسك بها ووقع عليها الاجماع قبل تنوع البدع وظهور الاهواء نعوذ بالله من الابتداع فى الدين واتباع الهوى بغير دليل (ثم نظرت) فى أعمال القلب والمواجب الباطنة والمناهى التى تأتى فى هذا الكتاب ليحصل لك علمه ثم تعرف جملة ما تحتاج إلى استعماله كالطهارة والصوم والصلاة ونحوه (فلقد أديت) فرض الله تعالى عليك الذى تعبدك فى باب العلم ولقد صرت من علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم الراسخين فى العلم فان عملت بعلمك وأقبلت على عمارة معادك كنت عبدا عالما عاملا لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل فلك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكبيرة والثواب الجزيل وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها وراءك وقضيت حقها باذن الله تعالى والله سبحانه مسؤل أن يمدك وايانا بحسن توفيقه وتيسيره انه أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

﴿ العقبة الثانية وهى عقبة التوبة ﴾

ثم عليك ياطالب العبادة ــ وفقك الله ــ بالتوبة وذلك لأمرين (أحدهما) ليحصل لك توفيق الطاعة فان شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان وان قيد الذنوب يمنع عن المشى إلى طاعة الله عزوجل والمسارعة الى خدمته لأن ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات والنشاط فى الطاعات، وان الاصرار على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها فى ظلمة وقساوة لاخلوص فيها ولاصفاوة ولالذة ولاحلاوة وان لم يرحم الله فستجر صاحبها الى الكفر والشقاوة فياعجبا كيف يوفق للطاعة من هو فى شؤم وقسوة وكيف يدعى الى الخدمة من هو مصر على المعصية ومقيم على الجفوة وكيف يقرب للمناجاة من هو متلطخ بالأقذار والنجاسات فى الخبر عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «اذا كذبَ العبدُ تنحَّى عنه الملَكان من نَتْنِ مايخرُجُ من فيهِ» فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عزوجل فلا جرم لايكاد يجد المصر على العصيان توفيقا ولا تخف أركانه لعبادة الله تعالى فان اتفق فبكد لاحلاوة معه ولا صفوة وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة (ولقد) صدق من قال إذا لم تقو على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك مكبول قد كبلتك خطيئتك فهذه هذه (والثانى) من الأمرين انما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك فان رب الدين لايقبل الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصى وارضاء الخصوم فرض لازم وعامة العبادة التى تقصدها نفل فكيف يقبل منك تبرعك والدين عليك حال لم تقضه وكيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مصر على فعل المحظور والحرام وكيف تناجيه وتدعوه وتثنى عليه وهو والعياذ بالله عليك غضبان فهذا ظاهر حال العصاة المصرين على المعصية والله المستعان (فان قلت) فما معنى التوبة النصوح وماحدها وما ينبغى للعبد أن يفعله حتى يخرج من الذنوب كلها (فأقول) أما التوبة فانها سعى من مساعى القلب وهى عند التحصيل فى قول العلماء رضى الله عنهم تنزيه القلب عن الذنب (قال شيخنا رحمه الله) فى حد التوبة انه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه منزلة لاصورة تعظيما لله تعالى وحذرا من سخطه فلها اذا أربعة شرائط (أحدها) ترك اختيار الذنب وهو أن يوطن قلبه ويجرد عزمه على أنه لايعود إلى الذنب ألبتة فأما ان ترك الذنب وفى نفسه أنه ربما يعود اليه أولا يعزم على ذلك بل يتردد فانه ربما يقع له العود فانه ممتنع عن الذنب غير تائب منه (والثانية) أن يتوب من ذنب قد سبق عنه مثله اذ لو لم يسبق عنه مثله لكان متقيا غير تائب ألا ترى أنه يصح

هذا اليوم وشر مافيه فاذا لبست ثيابك فانو به امتثال أوامر الله تعالى فى ستر عورتك واحذر أن يكون قصدك من لباسك مرءاة الخلق فتخسر

﴿ باب آداب دخول الخلاء ﴾

فاذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة فتقدم فى الدخول رجلك اليسرى وفى الخروج رجلك اليمنى ولا تستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى ورسوله ولا تدخل حاسر الرأس ولا حافى القدمين وقل عند الدخول بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم وعند الخروج غفرانك الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى علىّ ما ينفعنى وينبغى أن تعد النبل قبل قضاء الحاجة وأن لا تستنجى بالماء فى موضع قضاء الحاجة وأن تستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاثا وبامرار اليد اليسرى على أسفل القضيب. وان كنت فى الصحراء فابعد عن عيون الناظرين أو استتر بشىء ان وجدته ولا تكشف عورتك قبل الانتهاء الى موضع الجلوس ولا تستقبل القبلة ولا الشمس ولا القمر ولا

القول بأن النبي ﷺ كان متقيا عن الكفر ولا يصح القول بأنه كان تائبا عن الكفر اذ لم يسبق عنه كفر بحال وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان تائبا عن الكفر لما سبق عنه ذلك (والثالثة) أن الذي سبق عنه يكون مثل الذي يترك اختياره في المنزلة والدرجة لا في الصورة ألا ترى أن الشيخ الهرم الفاني الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق اذا أراد أن يتوب عن ذلك تمكنه التوبة لا محالة اذ لم يغلق عنه بابها ولا يمكنه ترك اختيار الزنا وقطع الطريق اذ هو لا يقدر الساعة على فعل ذلك فلا يقدر على ترك اختياره فلا يصح وصفه بأنه تارك له ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير متمكن منه لكنه يقدر على فعل ما هو مثل الزنا وقطع الطريق في المنزلة والدرجة كالكذب والقذف والغيبة والنميمة وجميع ذلك معاص وان كان الاثم يتفاوت في كل واحدة بقدرها لكن جميع هذه المعاصي الفرعية كلها بمنزلة واحدة وهي دون منزلة البدعة ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك تصح منه التوبة عند الزنا وقطع الطريق وسائر ما مضى من الذنوب التي هو عاجز عن أمثالها اليوم في الصورة (والرابعة) أن يكون ترك اختياره لذلك تعظيما لله عز وجل وحذرا من سخطه وأليم عقابه مجردا لا لرغبة دنيوية أو رهبة من الناس أو طلب ثناء أو صيت أو جاه أو ضعف في النفس أو فقر أو غير ذلك فهذه شرائط التوبة وأركانها فاذا حصلت واستكملت فهي توبة حقيقة صادقة وأما مقدمات التوبة فثلاث (احداها) ذكر غاية قبح الذنوب (والثانية) ذكر شدة عقوبة الله عز وجل وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به (والثالثة) ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك فان من لا يحتمل حر شمس ولا لطمة شرطي ولا قرص نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية ولسع حيات كأعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار في دار الغضب والبوار نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وعذابه فاذا واظبت على هذه الاذكار وعاودتها آناء الليل والنهار فانها ستحملك على التوبة النصوح من الذنوب والله الموفق بفضله (فان قيل) أليس قد قال النبي ﷺ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» ولم ذكرتم ما ذكرتم من شرائطها وشددتم شيئا يقال له اعلم أولا أن الندم غير مقدور للعبد ألا ترى أنه تقع الندامة عن أمور في قلبه وهو يريد أن لا يكون ذلك والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها. ثم انا قد علمنا انه لو ندم على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس أو ماله في النفقة فيها فان ذلك لا يكون توبة بلا ريب فعلمت بذلك أن في الخبر معنى لم تفهمه من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح فان ذلك من صفات التائبين وحالهم فانه اذا ذكر الاذكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل فتحمله على الابتهال والتضرع فلما كان ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه رسول الله ﷺ باسم التوبة فافهم ذلك موفقا إن شاء الله تعالى (فان قلت) كيف يمكن الانسان أن يصير بحيث لا يقع منه ذنب البتة من صغير أو كبير كيف وأنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة أم لا (فاعلم) أن هذا أمر ممكن غير مستحيل ثم هو هين والله يختص برحمته من يشاء (ثم) من شرط التوبة أن لا يتعمد ذنبا فأما ان وقع منه بسهو أو خطأ فهو معفو عنه بفضل الله تعالى وهذا هين على من وفقه الله تعالى (فان قلت) انما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود الى الذنب ولا أثبت على التوبة فلا فائدة في ذلك (فاعلم) أن هذا من غرور الشيطان ومن أين لك هذا العلم فعسى أن تموت تائبا قبل أن تعود الى الذنب. وأما الخوف من العود فعليك العزم والصدق في ذلك وعليه

تستدبرهما ولا تبل في متحدث الناس ولا تبل في الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر واحذر الأرض الصلبة ومهب الريح احترازا من الرشاش لقوله ﷺ «ان عامَّةَ عذابِ القبرِ منه» واتكئ في جلوسك على الرجل اليسرى ولا تبل قائما الا عن ضرورة واجمع في الاستنجاء بين استعمال الحجر والماء فاذا أردت الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل. وان اقتصرت على الحجر فعليك أن تستعمل ثلاثة أحجار طاهرة منشفة للعين تمسح بها محل النجو بحيث لا تنقل النجاسة عن موضعها وكذلك تمسح القضيب في ثلاثة مواضع من حجر فان لم يحصل الانقاء بثلاثة فتمم خمسة أو سبعة الى أن ينقى بالايتار فالايتار مستحب والانقاء واجب ولا تستنج الا باليد اليسرى وقل عند الفراغ من الاستنجاء اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش وادلك يدك بعد تمام الاستنجاء بالارض أو بحائط ثم اغسلها

الاتمام فان أتم فذاك المقصود من فضله وان لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها وتخلصت منها وتطهرت وليس عليك الا هذا الذنب الذى أحدثته الآن. وهذا هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود عن التوبة فانك من التوبة أبدا بين احدى الحسنيين والله ولى التوفيق والهداية فهذه هذه. (وأما) الخروج عن الذنوب والتخلص منها (فاعلم) أن الذنوب فى الجملة ثلاثة أقسام (أحدها) ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها فتقضى ما أمكنك منها (والثانى) ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك فتندم على ذلك وتوطن قلبك على ترك العود الى مثلها أبدا (والثالث) ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب وهى أقسام قد تكون فى المال وفى النفس وفى العرض وفى الحرمة وفى الدين (فما كان فى المال) فيجب عليك أن ترده عليه ان امكنك فان عجزت عن ذلك لعدم وفقر فتستحل منه فان عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه فافعل وان لم يمكنك فعليك بتكثير حسناتك والرجوع الى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنك يوم القيامة (وأما ما كان فى النفس) فتمكنه من القصاص أو أولياءه حتى يقتص منك أو يجعلك فى حل، فان عجزت فالرجوع الى الله سبحانه والابتهال اليه أن يرضيه عنك يوم القيامة (وأما فى العرض) فان اغتبته أو بهته أو شتمته فحقك أن تكذب نفسك بين يدى من فعلت ذلك عنده وأن تستحل من صاحبه ان امكنك، هذا اذا لم تخش زيادة غيظ أو هيج فتنة فى اظهار ذلك أو تجديده، فان خشيت ذلك فالرجوع الى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا فى مقابلته والاستغفار الكثير لصاحبه (وأما الحرمة) بأن خنته فى أهله أو ولده أو نحوه فلا وجه للاستحلال والاظهار لأنه يولد فتنة وغيظا بل تتضرع الى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا فى مقابلته فان أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فتستحل منه (وأما فى الدين) بأن كفرته أو بدعته أو ضللته فهو أصعب الأمور فتحتاج الى تكذيب نفسك بين يدى من قلت له ذلك وأن تستحل من صاحبك ان أمكنك والا فالابتهال الى الله تعالى جدا والتندم على ذلك ليرضيه عنك (وجملة الأمر) فما أمكنك من ارضاء الخصوم عملت ومالم يمكنك رجعت الى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ليرضيه عنك فيكون ذلك فى مشيئة الله سبحانه يوم القيامة والرجاء منه بفضله العظيم واحسانه العميم أنه اذا علم الصدق من قلب العبد فانه يرضى خصماءه من خزانة فضله ولا حكم. فاعلم هذه حقها راشدا فهذه هذه (فاذا أنت) عملت ما وصفناه وبرأت القلب عن اختيار مثلها فى المستقبل فقد خرجت من الذنوب كلها وان حصلت منك تبرئة القلب ولم يحصل منك قضاء الفوائت وارضاء الخصوم فالتبعات لازمة وسائر الذنوب مغفورة ولهذا الباب شرح يطول فلا يحتمله هذا المختصر. وانظر كتاب التوبة من كتاب احياء علوم الدين أولا، وكتاب القربة الى الله تعالى ثانيا، وكتاب الغاية القصوى ثالثا تجد فوائد كثيرة وشرحا جما. والذى ذكرناه ههنا هو الأصل الذى لا بد منه وبالله التوفيق

﴿فصل﴾ ثم اعلم يقينا أن هذه العقبة عقبة صعبة أمرها مهم وضررها عظيم (فلقد بلغنا) عن الاستاذ أبى اسحق الاسفراينى رحمه الله وكان من الراسخين فى العلم العاملين به أنه قال: دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقنى توبة نصوحا ثم تعجبت فى نفسى فقلت سبحان الله حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت

للفم ومرضاة للرب ومسخطة للشيطان وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلا سواك وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ » وعنه صلى الله عليه وسلم « أُمِرْتُ بِالسِّوَاكِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيَّ » ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كى لا يصيبك الرشاش وقل بسم الله الرحمن الرحيم « رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » ثم اغسل يديك ثلاثا قبل أن تدخلها الاناء وقل اللهم انى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم انو رفع الحدث أو استباحة الصلاة ولا ينبغى أن تعزب نيتك قبل غسل الوجه فلا يصح وضوءك ثم خذ غرفة لفيك وتمضمض بها ثلاثا وبالغ فى رد الماء الى الغلصمة

قضيت الى الآن ، فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول لى أتتعجب من ذلك أتدرى ماذا تسأل الله انما تسأل الله سبحانه أن يحبك أما سمعت قوله جل جلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أفهذه حاجة هينة . فانظر الى هؤلاء الأئمة واهتمامهم ومواظبتهم على صلاح قلوبهم والتزود لمعادهم (وأما) الضرر المخوف فى تأخير التوبة فان أول الذنب قسوة وآخره والعياذ بالله شؤم وشقوة . فاياك أن تنسى أمر ابليس وبلعم بن باعوراء اذ كان مبدأ أمرهما ذنبا وآخره كفرا فهلكا مع الهالكين أبد الآبدين . فعليك رحمك الله بالتيقظ والجهد عسى أن تقلع من قلبك عرق هذا الاصرار وتخلص رقبتك من هذه الأوزار . ولا تأمن قساوة القلب من الذنوب . وتأمل حالك فلقد قال بعض الصالحين : ان سواد القلب من الذنوب وعلامة سواد القلب أن لا تجد من الذنوب مفزعا ولا للطاعة موقعا ولا للموعظة منجعا ، ولا تستحقرن من الذنوب شيئا فتحسب نفسك تائبا وأنت مصر على الكبائر (فلقد بلغنا) عن كهمس بن الحسن أنه قال أذنبت ذنبا فأنا أبكى عليه منذ أربعين سنة قيل ما هو يا أبا عبد الله قال زارنى أخ لى فى الله فاشتريت له سمكا فأكل ثم قمت الى حائط جارى فأخذت منه قطعة طين فغسل بها يده . فناقش نفسك وحاسبها وسارع الى التوبة وبادر فان الأجل مكتوم والدنيا غرور والنفس والشيطان عدوان ، وتضرع الى الله سبحانه وابتهل اليه واذكر حال أبينا آدم ﷺ الذى خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه وحمله الى جنته على أعناق الملائكة لم يذنب الا ذنبا واحدا فنزل به ما نزل حتى روى أن الله تعالى قال يا آدم أى جار كنت لك قال نعم الجار يارب قال يا آدم اخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى فانه لا يجاورنى من عصانى حتى انه فيما روى بكى على ذنبه مائتى سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه الواحد . هذا حاله مع نبيه وصفيه فى ذنب واحد فكيف حال الغير فى ذنوب لا تحصى ، وهذا تضرع التائب وابتهاله فكيف بالمصر المتعسف ولقد أحسن من قال :

يخاف على نفسه من يتوب * فكيف ترى حال من لا يتوب

فان تبت ثم نقضت التوبة وعدت الى الذنب ثانيا فعد الى التوبة مبادرا وقل لنفسك لعلى أموت قبل أن أعود الى الذنب هذه المرة وكذلك ثالثا ورابعا وكما اتخذت الذنب والعود اليه حرفة فاتخذ التوبة أيضا والعود اليها حرفة ولا تكن فى التوبة أعجز منك فى الذنب ولا تيأس ، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فانه دلالة الخير . أما تسمع قوله ﷺ «خياركم كل مفتن تواب» أى كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه والرجوع الى الله جل جلاله بالندامة والاستغفار وتذكر قوله سبحانه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فهذه هذه وبالله التوفيق

﴿فصل﴾ وجملة الأمر أنك اذا ابتدأت فبرأت قلبك عن الذنوب كلها بأن توطنه على أن لا تعود الى الذنب أبدا البتة الا ما كان منك فى علم الله على وجه علم الله سبحانه وتعالى صدق عزمك من قلب نقى وترضى الخصوم بما أمكنك وتقضى الفوائت بما تقدر عليه وترجع فى البواقى الى الله سبحانه وتعالى بالابتهال والتضرع ليكفيك ذلك ، ثم تذهب فتغتسل وتغسل ثيابك وتصلى أربع ركعات كما يجب وتضع وجهك على الأرض فى مكان خال لا يراك الا الله سبحانه وتعالى ، ثم تجعل التراب على رأسك وتمرغ وجهك الذى هو أعز أعضائك فى التراب بدمع جار وقلب حزين وصوت عال وتذكر ذنوبك واحدا واحدا ما أمكنك وتلوم نفسك العاصية عليها وتوبخها وتقول أما تستحين يا نفس أما آن لك أن تتوبى ألك طاقة بعذاب الله سبحانه ألك

الا أن تكون صائما فترفق وقل اللهم أعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة * ثم خذ غرفة لأنفك واستنشق بها ثلاثا واستنثر ما فى الأنف من رطوبة وقل فى الاستنشاق اللهم أرحنى رائحة الجنة وأنت عنى راض وفى الاستنثار اللهم انى أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ثم خذ غرفة لوجهك فاغسل بها مبتدئا تسطيح الجبهة الى منتهى ما يقبل من الذقن فى الطول ومن الأذن الى الأذن فى العرض وأوصل الماء الى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو ما بين رأس الأذن الى زاوية الجبين أعنى ما يقع منه فى جهة الوجه وأوصل الماء الى منابت الشعور الأربعة الحاجبين والشاربين والأهداب والعذارين وهما ما يوازى الأذنين من مبتدأ اللحية ويجب ايصال الماء الى منابت الشعر من اللحية الخفيفة دون الكثيفة وقل عند غسل الوجه اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا

حاجة بسخط الله سبحانه وتذكر من هذا كثيرا وتبكى ثم ترفع يديك الى الرب الرحيم وتقول (الهى) عبدك الآبق رجع الى بابك ، عبدك العاصى رجع الى الصلح ، عبدك المذنب أتاك بالعذر فاعف عنى بجودك وتقبلنى بفضلك وانظر الى برحمتك اللهم اغفر لى ماسلف من الذنوب واعصمنى فيما بقى من الأجل فان الخير كله بيديك وأنت بنا رءوف رحيم ثم تدعو دعاء الشدة وهو : يامجلى عظائم الأمور يامنتهى همة المهمومين يامن اذا أراد أمرا فانما يقول له كن فيكون أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها يامذخورا لكل شدة كنت أدخرك لهذه الساعة فتب على انك أنت التواب الرحيم . ثم أكثر من البكاء والتذلل والتضرع وقل يامن لايشغله شأن عن شأن ولاسمع عن سمع يامن لاتغالطه كثرة المسائل يامن لايبرمه الحاح الملحين أذقنا بردعفوك وحلاوة مغفرتك برحمتك ياأرحم الراحمين انك على كل شىء قدير ثم تصلى على النبى ﷺ وعلى آله ثم تستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وترجع الى طاعة الله جل جلاله فتكون قدتبت توبة نصوحا وقد خرجت من الذنوب طاهرا كيوم ولدتك أمك وأحبك الله سبحانه ولك من الأجر والثواب وعليك من البركة والرحمة مالا يحيط به وصف الواصفين وحصل لك الأمن والخلاص ونجوت من غضبه وغصة المعاصى وبليتها فى الدنيا والآخرة وكنت قد قطعت هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى والله ولى الهداية بمنه وفضله

﴿ العقبة الثالثة وهى عقبة العوائق ﴾

ثم عليك ياطالب العبادة وفقك الله تعالى بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك . وقد ذكرنا أن العوائق أربعة (أحدها) الدنيا ومافيها ودفعها انما هو بالتجرد عنها والزهد فيها وانما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين: أحدهما لتستقيم لك العبادة وتكثر فان الرغبة فى الدنيا تشغلك أما ظاهرك فبالطلب وأما باطنك فبالارادة وحديث النفس وكلاهما يمنع العبادة فان النفس واحدة والقلب واحد فاذا اشتغل بشىء انقطع عن ضده وان مثل الدنيا والآخرة كمثل الضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الأخرى وانهما كالمشرق والمغرب بقدر ماتميل الى أحدهما أعرضت عن الآخر . أما شغلها فى الظاهر فقد روينا عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال : زاولت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة (وعن عمر رضى الله عنه) أنه قال : لوكانتا مجتمعتين لأحد غيرى لاجتمعتا لى لما أعطانى الله سبحانه من القوة واللين . فاذا كان الحديث كذلك فأضر بالفانية واختار السلامة والسلام (وأما) شغلها بالقلب وهو الباطن لمكان الارادة فاروى عن النبى ﷺ أنه قال «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَايَفْنَى » فبان لك أنه اذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بارادتها فلا تتيسر لك العبادة حقها وأما اذا زهدت فيها فتفرغت بظاهرك وباطنك ، تتيسر لك العبادة بل تعاونك أعضاؤك عليها (ولقد روى) عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه قال : ان العبد اذا زهد فى الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه فى العبادة . فهذه هذه (والثانى) من الأمرين أنه تكثر قيمة عملك ويعظم قدره وشرفه فلقد قال ﷺ «رَكْعَتَانِ مِنْ رَجُلٍ عَالِمٍ زَاهِدٍ قَلْبُهُ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ أَبَدًا سَرْمَدًا» فاذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك فحق لمن طلب العبادة أن يزهد فى الدنيا ويتجرد عنها (فان قلت) فامعنى الزهد فى الدنيا وماحقيقة ذلك

تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك ولا تترك تخليل اللحية الكثيفة ثم اغسل يدك اليمنى ثم اليسرى مع المرفقين الى أنصاف العضدين فان الحلية فى الجنة تبلغ مواضع الوضوء وقل عند غسل اليمنى اللهم أعطنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم انى أعوذبك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى * ثم استوعب رأسك بالمسح بأن تبل يدك وتلصق رؤس أصابع يدك اليمنى باليسرى وتضعها على مقدمة الرأس وتمرها الى القفا ثم تردها الى المقدمة فهذه مرة تفعل ذلك ثلاث مرات وكذلك فى سائر الأعضاء وقل اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لاظل الا ظلك اللهم حرم شعرى وبشرى على النار ثم تمسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بماء جديد وأدخل مسبحتيك فى صماخى أذنيك وامسح ظاهر أذنيك ببطن ابهاميك وقل اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول

(فاعلم) أن الزهد عند علمائنا رحمهم الله زهدان : زهد مقدور للعبد وزهد غير مقدور . فالذى هو مقدور ثلاثة أشياء: ترك طلب المفقود من الدنيا وتفريق المجموع منها وترك ارادتها واختيارها (وأما) الزهد الذى هو غير مقدور للعبد فهو برودة الشىء على قلب الزاهد (ثم الزهد) الذى هو مقدور للعبد مقدمات للزهد الذى هو غير مقدور للعبد فاذا أتى به العبد بأن لا يطلب ما ليس عنده من الدنيا ويفرق ما عنده منها ويترك بالقلب ارادتها واختيارها لأجل الله وعظيم ثوابه بتذكره لآفاتها أورثته تلك برودة الدنيا على قلبه وهذا عندى هو الزهد الحقيقى (ثم اعلم) أن أصعب الأمور الثلاثة انما هو ترك الارادة بالقلب اذ كم من تارك لها بظاهره محب مريد لها بباطنه فهو فى مكابدات ومقاساة شديدة من نفسه والشأن كله فى هذه ألم تسمع الى قوله سبحانه عز من قائل ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ علق الحكم بنفى الارادة دون الطلب والفعل المراد. وقوله سبحانه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وقوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ وقوله ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الآية أما ترى الاشارة كلها الى الارادة فأمرها هو المهم اذن، لكن العبد اذا واظب واستقام على الأولين أعنى التفريق والترك فأمول من فضل الله سبحانه أن يوفقه لدفع هذه الارادة والاختيار عن قلبه فانه المتفضل الكريم عز وجل (ثم الذى يبعث على الترك والتفريق) ويهون عليك ذلك ذكر آفات الدنيا وعيوبها وقد أكثر الناس القول فى ذلك فمنه قول بعضهم: تركت الدنيا لقلة غنائها وكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها (قال شيخى الامام رحمه الله) لكن يجىء من هذا رائحة الرغبة فانه لأن من شكا فراق أحد أحب وصاله ومن ترك شيئا لمكان الشركاء فيه أحب لو انفرد به، فالقول البالغ فيه ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى: ان الدنيا عدو الله عز وجل وأنت محبه ومن أحب أحدا أبغض عدوه (قال) ولأنها فى أصلها وسخة جيفة ألا ترى أن آخرها الى القذر والفساد والتلاشى والاضمحلال والنفاد لكنها جيفة ضمخت بطيب وطويت بزينة فاغتر بظاهرها الغافلون وزهد فيها العاقلون (فان قيل) فما حكم الزهد فى الدنيا أهو فرض أم نفل (فاعلم) أن الزهد يقع عندنا فى الحلال والحرام فهو فى الحرام فرض وفى الحلال نفل . ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمى الطاعات بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها الا عند الضرورة بمقدار دفع الضرر (وأما) الزهد فى الحلال فانما يكون فى منزلة الابدال يكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منها الا قدرا لا بد منه والحرام عندهم بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصد تناولها بحال وهذا معنى البرودة على القلب بأن يقطع همته عنها ويستقذرها ويستنكرها جدا فلا يبقى لها فى قلبه اختيار ولا ارادة (فان قلت) كيف يمكن أن تصير الدنيا فى شهواتها ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الانسان بمنزلة النار أو بمنزلة الجيفة المستقذرة المستحيلة والبنية بنيتنا والطبع طبعنا (فاعلم) أن من وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقذرها فى أصلها فتصير عنده كذلك وانما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيوب الدنيا وآفاتها المغترون بظاهرها وزينتها . وسأضرب لك مثلا لذلك (فاعلم) أن هذا يمثل بانسان صنع خبيصا بشرائطه من السكر وغيره ثم طرح فيه قطعة سم قاتل وأبصر ذلك رجل ولم يبصره آخر ووضع الخبيص بين أيديهما مزينا مزخرفا فالرجل الذى أبصر ما جعل فيه من السم يكون زاهدا فى ذلك الخبيص لا يخطر بباله أن يتناول منه بحال البتة ويكون ذلك عنده بمنزلة

فيتبعون أحسنه اللهم أسمعنى منادى الجنة فى الجنة مع الأبرار ثم امسح رقبتك وقل اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ثم اغسل رجلك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين وخلل بخنصر اليسرى أصابع رجليك مبتدئا بخنصر اليمنى حتى تختم بخنصر اليسرى وتخلل الأصابع من أسفل وقل اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين وكذلك تقول عند غسل اليسرى اللهم انى أعوذ بك أن تزل قدمى على الصراط فى النار يوم تزل أقدام المنافقين والمشركين. وارفع الماء الى أنصاف الساقين وراع التكرار ثلاثا فى جميع أفعالك فاذا فرغت من الوضوء فارفع بصرك الى السماء وقل أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله الا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك وأتوب اليك فاغفرلى وتب على انك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من عبادك

الناربل أصعب لكان مايعلم من آفاته فلا يغتر بظاهره وزينته (وأما) الرجل الآخر الذى لم يبصر ماجعل فيه اغتر بظاهره المزخرف وحرص عليه ولم يصبر عنه وأخذ يتعجب من صاحبه الزاهد فيه وربما يسفهه فى ذلك. فهذا مثل حرام الدنيا مع البصراء المستقيمين والجهال الراغبين فان لم يطرح فيه السم ولكن بصق فيه أو امتخط ثم ضمخه وزينه فالرجل الذى شاهد منه ذلك الفعل يكون مستقذرا لذلك الخبيص نافرا عنه لا يكاد يقدم عليه الا عند الضرورة وشدة الحاجة اليه والذى لم يشاهد ذلك فهو جاهل بما فيه مغتر بظاهره حريص عليه مكب معجب محب. فهذا مثل حلال الدنيا مع الفريقين أهل البصيرة والاستقامة وأهل الرغبة والغفلة. وانما اختلف حال الرجلين مع تساويهما فى الطبع والبنية لبصارة وعلم كانا لأحدهما وجهل وخفاء كانا للآخر فلو علم الراغب وأبصر ماعلمه الزاهد لكان زاهدا مثله ولو جهل الزاهد وعمى عما عمى عنه الراغب لكان راغبا مثله. فعلمت بذلك أن هذا التميز لكان البصائر دون الطبائع وهذا أصل مفيد وكلام بين سديد اعترف به من عقل وأنصف والله تعالى ولى الهداية والتوفيق بفضله (فان قيل) فلا بد لنا من قدر من الدنيا ليكون قواما لنا فكيف نزهد فيها (فاعلم) أن الزهد فى الفضول مما لا يحتاج اليه فى قوام البنية فالمقصود القوام والقوة حتى نعبد الله سبحانه وتعالى لا الأكل والشرب والتلذذ والله تعالى ان شاء أقامها بشىء وسبب وان شاء تعالى أقامها بغير سبب كالملائكة عليهم السلام ثم ان كان بشىء ان شاء فبشىء حاصل عندك أو بطلبك وكسبك وان شاء بشىء غيره يسببه لك من حيث لا تحتسب من غير طلب منك وكسب كما قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ فاذا لا تحتاج بحال الى طلب وارادة فان لم تقو على ذلك الزهد وطلبت وأردت فانو بذلك العدة والتقوى على عبادة الله سبحانه وتعالى دون الشهوة واللذة فانك اذا نويت ذلك كان الطلب والارادة منك خيرا وطلبا للآخرة بالحقيقة لا للدنيا ولا يقدح فى زهدك وتجردك. فاعلم هذه الجملة راشدا وبالله التوفيق (العائق الثانى الخلق) ثم عليك وفقك الله وايانا لطاعته بالتفرد عن الخلق وذلك لأمرين (أحدهما) أنهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل على ماحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله أشهى الى من كلامك فقلت أنت وحدك فقال معى ربى وملكاى فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار بيده نحو السماء وقام وتركنى: وقال: أكثر خلقك عنك شاغل. فالخلق اذا يشغلونك عن العبادة بل يمنعونك منها بل يوقعونك فى الشر والهلاك على ماقال حاتم الأصم رحمه الله: طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها: طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا، فقلت أعينونى عليهما ان لم تفعلوا فلم يفعلوا، فقلت ارضوا عنى ان فعلت فلم يفعلوا، فقلت لا تمنعونى عنها اذا فنعونى، فقلت لا تدعونى الى مالا يرضى الله العظيم ولا تعادونى عليه ان لم أتابعكم فلم يفعلوا، فتركتهم واشتغلت بخاصة نفسى (واعلم) أيها الأخ فى الدين أن نبيك محمدا ﷺ وصف زمان العزلة وبين نعته ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد وكان ﷺ لا محالة أعلم بالصالح وأنصح لنا منا لأنفسنا فان وجدت زمانك على ماوصف وبين فامتثل أمره ﷺ واقبل نصيحته ولا تشك فى أنه ﷺ كان أعرف بما يصلح لك فى زمانك ولا تتعلل بالعلل الكاذبة ولا تخادع نفسك، والا فأنت هالك ولا عذر لك. والوصف الذى ذكرناه منها ماهو فى الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما

هذه الدعوات فى وضوئه خرجت خطاياه من جميع أعضائه وختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك الوضوء الى يوم القيامة واجتنب فى وضوئك سبعا لا تنفض يديك فترش الماء ولا تلطم رأسك ووجهك بالماء لطما ولا تتكلم فى أثناء الوضوء ولا تزد فى الغسل على ثلاث مرات ولا تكثر صب الماء من غير حاجة بمجرد الوسواس فللموسوسين شيطان يلعب بهم يقال له الولهان ولا تتوضأ بالماء المشمس ولا فى الأوانى الصفرية فهذه السبعة مكروهة فى الوضوء وفى الخبر ان من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه الا ما أصابه الماء

﴿ آداب الغسل ﴾

فاذا أصابتك جنابة من احتلام أو وقاع فاحمل الاناء الى المغتسل واغسل يديك أولا ثلاثا وأزل ماعلى بدنك

عنهما أنه قال: بينا نحن حول النبى ﷺ اذ ذكرت الفتنة فقال: «إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه» قلت ما أصنع عند ذلك جعلنى الله فداءك قال: الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة» وذكر فى خبر آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال «ذلك أيام الهرج قيل وما أيام الهرج قال حين لا يأمن الرجل جليسه» (وذكر) ابن مسعود رضى الله عنه فى خبر آخر للحرث بن عميرة أنه ﷺ قال له «إن يدفع عن عمرك فسيأتى عليك زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه كثير سؤاله قليل معطوه الهوى فيه قائد العلم قال ومتى ذاك قال اذا أميتت الصلاة وقبلت الرشا ويباع الدين بعرض يسير من الدنيا فالنجاء النجاء ويحك ثم النجاء (قلت) وجميع ما ذكر فى هذه الأخبار تراه بعينك فى زمانك وأهله فانظر لنفسك (ثم) ان السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله وآثروا العزلة وأمروا بذلك وتواصوا به ولا شك أنهم كانوا أبصر وأنصح وأن الزمان لم يصر بعدهم خيرا مما كان بل أشر منه وأمر وهو ما ذكر عن يوسف بن أسباط أنه قال سمعت الثورى يقول والله الذى لا اله الا هو لقد حلت العزلة فى هذا الزمان (قلت) أنا ولئن حلت فى زمانه ففى زماننا هذا وجبت وافترضت (وعن سفيان الثورى أيضا) أنه كتب الى عباد الخواص رحمهما الله أما بعد فانك فى زمان كان أصحاب محمد ﷺ يتعوذون بالله من أن يدركوه فيما بلغنا ولهم من العلم ما ليس لنا فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم وقلة صبر وقلة أعوان على الخير وكدر من الدنيا وفساد من الناس فان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: فى العزلة راحة من خلطاء السوء. وفى مثل هذا قيل

هذا الزمان الذى كنا نحاذره ... فى قول كعب وفى قول ابن مسعود
دهر به الحق مردود بأجمعه ... والظلم والبغى فيه غير مردود
أعمى أصم من الأزمان ملتبس ... فيه لابليس تصويب وتصعيد
ان دام هذا ولم تحدث له غير ... لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

(ولقد) وجدت عن سفيان بن عيينة أنه قال: قلت للثورى أوصنى قال: أقلل من معرفة الناس (قلت) يرحمك الله أليس قد جاء فى الخبر «أكثروا من معرفة الناس» فان لكل مؤمن شفاعة قال لا أحسبك رأيت قط ما تكره الا ممن تعرف، قلت أجل. ثم مات رحمه الله فرأيته بعد موته فى النام بحجج فقلت يا أبا عبد الله أوصنى قال أقلل من معرفة الناس ما استطعت فان التخلص منهم شديد. وقد قيل فى معنى هذا الخبر نظما:

وما زلت مذ لاح المشيب بمفرق ... أفتش عن هذا الورى وأكشف
فما ان عرفت الناس الا ذممتهم ... جزى الله خيرا كل من لست أعرف
ومالى ذنب أستحق به الجفا ... سوى أننى أحببت من ليس ينصف

قال وقيل كتب على باب لدار: جزى الله من لا يعرفنا خيرا ولا جزى بذلك أصدقاءنا فانا أوذينا قط الا منهم. وأنشدوا فيه:

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ... ولا بينه ود ولا نتعارف
فما مسنا هم ولا نالنا أذى ... من الناس الا من نود ونعرف

من قدر وتوضأ كما سبق وضوءك للصلاة مع جميع الدعوات وأخر غسل رجليك كى لا يضيع الماء فاذا فرغت من الوضوء فصب الماء على رأسك ثلاثا وأنت ناو رفع الحدث من الجنابة ثم على شقك الأيمن ثلاثا ثم على الأيسر ثلاثا وادلك ما أقبل من بدنك وما أدبر وخلل شعر رأسك ولحيتك وأوصل الماء الى معاطف البدن ومنابت الشعر ما خف منه وما كثف واحذر أن تمس ذكرك بعد الوضوء فان أصابته يدك فأعد الوضوء. والفريضة من جملة ذلك كله النية وازالة النجاسة واستيعاب البدن بالغسل ومن الوضوء غسل الوجه واليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين الى الكعبين مرة مرة مع النية والترتيب وما عداها سنن مؤكدة فضلها كثير وثوابها جزيل والمتهاون بها خاسر بل هو بأصل فرائضه مخاطر فان النوافل جوابر للفرائض

﴿ آداب التيمم ﴾ فان عجزت عن استعمال الماء لفقده بعد الطلب أو لعذر

(قال الفضيل رحمه الله) هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ماتعرف ودع ماتنكر (وقال) سفيان الثورى : هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والرضا بالقوت الى أن تموت (وعن داود الطائى) رحمه الله : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد. وعن أبى عبيدة: مارأيت حكيما قط الا قال لى عقب كلامه ان أحببت ألا تعرف فأنت من الله على بال. والأخبار فى هذا الباب أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب. وقد صنفنا فيه كتابا مفردا وسميناه كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار فقف عليه تر العجب العجاب. والعاقل يكفيه الاشارة والله ولى التوفيق والهداية بفضله (وأما الخصلة الثانية) التى تقتضى التفرد عن الناس فى هذا الشأن أن الناس يفسدون عليك مايحصل لك من العبادة ان لم يعصم الله سبحانه بسبب مايعرض من قبلهم من دواعى الرياء والتزين. ولقد صدق يحيى ابن معاذ الرازى رحمه الله حيث قال : رؤية الناس بساط الرياء. وهؤلاء الزهاد قد خافوا على أنفسهم من هذا المعنى حتى تركوا الملاقاة والتزاور. ولقد ذكر أن هرم بن حيان قال لأويس القرنى رحمهما الله: ياأويس صلنا بالزيارة واللقاء. فقال أويس: قد وصلتك بماهو أنفع لك منهما وهو الدعاء على ظهر الغيب لأن الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزين والرياء (وقيل لسليمان الخواص) حين قدم ابراهيم بن أدهم أفلا تأتيه فقال: لأن ألقى شيطانا ماردا أحب الى من لقائه. فاستنكروا ذلك من قوله فقال. انى أخاف اذا لقيته أن أتزين له واذا لقيت شيطانا امتنعت منه . ولقد لقى شيخى الامام بعض العارفين فتذاكرامليا ثم دعوا فى آخر حديثهما ، فقال شيخى الامام للعارف ماأظننى جلست مجلسا أناله أرجى من مجلسى هذا. فقال له العارف: لكنى ماجلست مجلسا أناله أخوف من مجلسى هذا ألست تعمد الى أحسن حديثك وعلومك فتحدثنى بها وتظهرها بين يدى وأنا كذلك فقد وقع الرياء فبكى شيخى الامام مليا ثم غشى عليه فكان بعد ذلك يتمثل بهذه الأبيات :

ياويلتا من موقف مابه * أخوف من أن يعدل الحاكم * أبارز الله بعصيانه
وليس لى من دونه راحم * يارب عفوا منك عن مذنب * أسرف الا أنه نادم
يقول فى الليل اذا ما دجى * آها لذنب ستر العالم

فهذه حال أهل الزهد والرياضة فى ملاقاتهم فكيف حال أهل الرغبة والبطالة بل حال أهل الشر والجهالة. (اعلم) أن الزمان قد أصبح فى فساد عظيم وأصبح الناس فى ضر كثير فانهم يشغلونك عن عبادة الله تعالى حتى لايكاد يحصل لك منها شىء ثم يفسدون عليك ماحصل لك حتى لايكاد يسلم لك منها شىء فلزمتك العزلة والتفرد عن الناس والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته (فان قيل) فما حكم العزلة والتفرد عن الناس فبين لنا حال طبقات الخلق فيها والحد الذى يجب منها. فاعلم رحمك الله وايانا أن الناس فى هذا الباب رجلان: رجل لاحاجة بالخلق اليه فى علم وبيان حكم فالأولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم الا فى جمعة أو جماعة أو عيد أو حج أو مجلس علم بالسنة أو حاجة فى معيشة لابد له من ذلك والا فيوارى شخصه ويلزم كنه لايعرف ولايعرف. فأما ان أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس فلا يخالطهم فى أمر من الأمور ألبتة من دين أو دنيا وجماعة وجمعة أو غيرهما لما يرى له فى ذلك من مصلحته وفراغه فانه لايسعه ذلك الا بأحد أمرين (اما) أن يصير الى موضع لايلزمه هنالك هذه الفروض كرؤوس

من مرض أو لمانع من الوصول اليه مع سبع أو حبس أو كان الماء لحاجة تحتاج اليه لعطشك أو عطش رفيقك أو كان ملكا لغيرك ولم يبع الا بأكثر من ثمن المثل أو كانت بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة ثم اقصد صعيدا طيبا عليه تراب خالص طاهر لين فاضرب عليه بكفيك ضاما بين أصابعك وانو استباحة فرض الصلاة وامسح بهما وجهك مرة واحدة ولاتتكلف ايصال الغبار الى منابت الشعر خف أو كثف ثم انزع خاتمك واضرب ضربة ثانية مفرقا بين أصابعك وامسح بهما يديك مع مرفقيك فان لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى الى أن تستوعبهما ثم امسح احدى كفيك بالأخرى وامسح مابين أصابعك بالتخليل وصل به فرضا واحدا وماشئت من النوافل فان أردت فرضا ثانيا فاستأنف له تيمما آخر (آداب الخروج الى المسجد) فاذا فرغت من طهارتك فصل فى بيتك ركعتى

الجبال وبطون الأودية ونحوها ولعل هذا أحد الوجوه التى دعت العبّاد الى تلك المواضع البعيدة عن الناس (واما) أن يتيقن بالحقيقة أن الضرر الذى يلحقه فى مخالطة الناس بسبب هذه الفروض أعظم من تركها فحينئذ يكون له عذر فى تركها. ولقد رأيت أنا بمكة حرسها الله بعض المشايخ المنفردين من أهل العلم وهو لا يحضر المسجد الحرام فى الجماعات مع قربه منه وسلامة حاله فحاورته فى ذلك يوما فى حال ترددى اليه فذكر من عذره ما أشرنا اليه وهو أن ما يحصل له من الثواب لا يفى بما يلحقه من الآثام والتبعات فى الخروج الى المسجد ولقاء الناس (قلت أنا) وجملة الأمور فلا عتب على المعذور والله تعالى أعلم بالعذر وهو عليم بذات الصدور. ولكن الطريق العدل فيه هو الأول بأن يشارك الناس فى الجمعة والجماعات وضروب الخيرات ويباينهم فيما سوى ذلك. فان أحب الطريق الثانى بأن ينقطع عن الناس بمرة فسبيله الخروج الى مواضع لا تتوجه عليه هذه الفروض ثم، لأن الطريق الثالث وهو أن يكون مع الناس فى مصر واحد ولا يحضر جمعة ولا جماعة لعذر يراه فى ذلك من وزر أو تبعة عليه فانه يحتاج الى نظر دقيق وعوارض عظيمة حتى يسقط ذلك عنه وفيه خطر من الغلط فالأولان أسلم وأحفظ له والله ولىّ الهداية بفضله (وأما الرجل الثانى) فرجل يكون قدوة فى العلم بحيث يحتاج الناس اليه فى أمر دينهم لبيان حق أو رد على مبتدع أو دعوة الى خير بفعل أو بقول أو نحو ذلك فلا يسع مثل هذا الرجل الاعتزال عن الناس بل ينصب نفسه بينهم ناصحا لخلق الله تعالى ذابا عن دين الله تعالى مبينا لأحكام الله فلقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال «إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ» هذا اذا كان بينهم واذا خرج من بيتهم فلا يجوز له أيضا الاعتزال (ولقد حكى) أن الأستاذ أبا بكر بن فورك رحمه الله قصد أن ينفرد لعبادة الله عن الناس فبينما هو فى بعض الجبال اذ سمع صوتا ينادى يا أبا بكر اذ صرت من حجج الله على خلقه تركت عباد الله فرجع وكان هذا سبب صحبته للخلق (وذكر لى) مأمون بن أحمد رحمه الله أن الأستاذ أبا اسحق رحمه الله تعالى قال لعبّاد جبل لبنان: يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد ﷺ فى أيدى المبتدعة واشتغلتم ههنا بأكل الحشيش قالوا له انا لا نقوى على صحبة الناس وانما أعطاك الله قوة فلزمك ذلك فصنف بعد ذلك كتابه الجامع للجلى والخفى. وكان لهم رضى الله عنهم مع غزارة علمهم العمل الجم والنظر الدقيق فى سلوك طريق الآخرة (واعلم) أن مثل هذا الرجل المحتاج اليه الناس فى طرق باب الدين يحتاج فى صحبة الخلق الى أمرين شديدين (أحدهما) صبر طويل وحلم عظيم ونظر لطيف واستعانة بالله تعالى دائمة (والثانى) أن يكون فى هذا المعنى منفردا عنهم وان كان بالشخص معهم فان كلموه كلمهم وان زاروه عظمهم على قدرهم وشكرهم وان سكتوا عنه وأعرضوا عنه استغنم ذلك منهم وان كانوا فى حق وخير ساعدهم وان صاروا الى لغو وشر خالفهم وهجرهم بل رد عليهم وزجرهم ان رجا قبولهم ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات والعيادات وقضاء الحاجات التى ترفع اليه ما أمكنه ولا يطالبهم بالمكافآت ولا يرجو ذلك منهم ولا يريهم من نفسه استيحاشا لذلك ويباسطهم بالبذل ان قدر وينقبض عنهم فى الأخذ ان أعطى ويتحمل منهم الأذى ويظهر لهم البشر ويتجمل بظاهره لهم ويكتم حاجاته عنهم فيقاسيها بنفسه ويعالجها فى سره وباطنه ثم يحتاج مع ذلك أن ينظر لنفسه خاصة فيجعل لها حظا من العبادات خاصة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ان نمت الليل لأضيعن نفسى ، وان نمت النهار لأضيعن الرعية ، فكيف لى بالنوم بين هاتين . وفى هذا المعنى عرض لى أبيات من الشعر وهى :

الفجر ان كان الفجر قد طلع كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توجه الى المسجد ولا تدع الصلاة فى الجماعة لاسيما الصبح فصلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة فان كنت تتساهل فى مثل هذا الربح فأى فائدة لك فى طلب العلم وانما ثمرة العلم العمل به فاذا مشيت الى المسجد فامش على الهينة والسكينة ولا تعجل وقل فى طريقك اللهم بحق السائلين عليك وبحق الراغبين اليك وبحق ممشاى هذا اليك فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت

(آداب دخول المسجد)

فاذا أردت الدخول الى المسجد فقدم رجلك اليمنى وقل اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ومهما رأيت فى المسجد من يبيع فقل لا أربح الله تجارتك واذا رأيت فيه من ينشد عن ضالة فقل لا رده الله عليك ضالتك كذلك أمر رسول الله ﷺ فاذا دخلت المسجد فلا

فان كنت فى هدى الأئمة راغبا * فوطن على أن تنتحيك الوقائع
بنفس وقور عنـد كل ملمة * وقلب صبور وهو فى الصدر مانع
لسانك مخزون وطرفك ملجم * وسرك مكتوم لدى الرب ذائع
وذكرك مغمور وبابك مغلق * وثغرك بسام وبطنك جائع
وقلبك مجروح وسوقك كاسد * وفضلك مدفون وطعنك شائع
وفى كل يوم أنت جارع غصة * من الدهر والاخوان والقلب طائع
نهارك شغل الناس من غير منة * وليلك شوق غاب عنه الطلائع
فدونك هذا الليل خذه ذريعة * ليوم عبوس عز فيه الذرائع

نعم يكون بالنفس معهم والقلب ماأبعده عنهم وذلك لعمرى أمر شديد وعيش نكد وفيه يقول شيخنا رحمه الله فى وصيته : يابنى عش مع أهل زمانك ولا تقتد بهم . ثم قال : ماأشد هذا العيش مع الأحياء والاقتداء بالأموات . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : خالط الناس وزايلهم ودينك لاتكلمنه . فهذه نكتة مقنعة (ثم أقول) اذا ماج الفتن بعضها فى بعض وتراجع الأمر وولى الناس عن أمر الدين مدبرين لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ولا يطلبون عالما ولا يرمقون مفيدا ولا يعنيهم أمر دينهم ألبتة وترى الفتنة تعم العامة وتدب بين الخاصة . فللعالم العذر فى العزلة والتفرد ودفن العلم وأخاف أن ماذكره هو هذا الزمان النكد الصعب والله المستعان وعليه التكلان . فهذا حكم العزلة والتفرد عن الناس فافهمه فان الغلط فيه عظيم وضرره كثير وبالله التوفيق (فان قيل) أليس النبى ﷺ قال «عَلَيْكُمْ بِالجماعَةِ فَإِنَّ يَدَ ٱللهِ تَعَالَى عَلَى الجماعَةِ وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ ذِئْبُ ٱلْإِنْسَانِ يَأْخُذُ ٱلشَّاذَّةَ وَالنَّاجِيَةَ وَٱلْقَاصِيَةَ وَالْفَاذَّةَ» وقال «إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ مَعَ الْفَذِّ وَهُوَ مَعَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ» (فاعلم) أن هذه وردت . وورد أيضا «إِلْزَمْ بَيْتَكَ وَعَلَيْكَ بِالْخَاصَّةِ وَدَعْ أَمْرَ ٱلْعَامَّةِ» فأمر بالعزلة والتفرد فى الزمان السوء ، ولا تناقض فى قوله ﷺ ولابد من الجمع بين الخبرين بحول الله وتوفيقه (فأقول) قوله ﷺ «عَلَيْكُمْ بالجماعَةِ» يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أنه يعنى به فى الدين والحكم اذ لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة . فخرق الاجماع والحكم بخلاف ماعليه جمهور الأمة والشذوذ عنهم باطل وضلال وأما أن يعتزل عنهم لصلاح فى دينه فليس هذا من ذلك فى شىء (والثانى) عليكم بالجماعة بأن لا تنقطعوا عنهم فى جمعهم وجماعاتهم ونحوها فان فيها قوة الدين وكمال الاسلام وغيظ الكفار والملحدين ، ولا يخلو ذلك من بركات ونظر من الله عز وجل بالرحمة ولذلك نقول : ان حق المنفرد أن يشارك الناس فى الجموع العامة فى الخير وأن يجانبهم فى الصحبة والمزاحمة فى سائر الأمور لما فيهما من ضروب الآفات (والثالث) أن ذلك فى غير زمان الفتنة للرجل الضعيف فى أمر الدين وأما الرجل البصير القوى فى أمر الله تعالى اذا رأى زمان الفتنة الذى حذر النبى ﷺ الأمة منه وأمرهم بالعزلة فيه فالعزلة أولى لما فى الخلطة من الفساد والآفات وينبغى له أن لا ينقطع من مجموع الاسلام والخيرات العامة وان أراد أن ينفرد عن الناس بمرة فليسكن بشاهق جبل أو بطن فلاة لصلاح يراه فى دينه (ثم قلت) ولا أرى مثل هذا الرجل أينما كان الا ويمكنه الله عز وجل من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الاسلام فيحضر لئلا يفوته الحظ منها أيضا فان جموع الاسلام من الله تعالى بمكان وان تغير الناس وفسدوا كذا سمعنا من حال الأبدال أنهم

يحضرون

تجلس حتى تصلى ركعتى التحية فان لم تكن على طهارة أو لم ترد فعلها كفتك الباقيات الصالحات ثلاثا وقيل أربعا وقيل ثلاثا للمحدث وواحدة للمتوضىء فان لم تكن صليت ركعتى الفجر فيجزئك أداؤهما عن التحية فاذا فرغت من الركعتين فانو الاعتكاف وادع بما دعا به رسول الله ﷺ بعد ركعتى الفجر فقل اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها ألفتى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتقضى لى بها حاجتى وتعصمنى بها من كل سوء اللهم انى أسألك ايمانا خالصا يباشر قلبى وأسألك يقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى الا ما كتبته علىّ والرضا بما قسمته لى اللهم انى أسألك ايمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر وأسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم انى أسألك الصبر عند القضاء والفوز عند

يحضرون جموع الاسلام أينما كانت ويسيرون من الأرض حيث شاءوا وأن الأرض لهم قدم واحد (وفى الأخبار) أن الأرض تطوى لهم وينادون بالتحيات ويتحفون بأنواع البر والكرامات فهنيئا بما ظفروا به وأحسن الله عزاء من غفل عن النظر فى خلاص نفسه وأعان الطالب الذى لم يصل الى المقصود كأمثالنا ولقد عرض لى فى صفة حالى أبيات من الشعر وهى:

ظفر الطالبون واتصل الوصـل وفاز الأحباب بالأحباب
وبقينا مذبذبين حيارى * بين حد الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهذا * نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الهـ * ـم وتهدى الى طريق الصواب
ياطبيب السقام يامرهم الجر * ح ويامنقذى من الأوصاب
لست أدرى بما أداوى سقامى * أو بماذا أفوز يوم الحساب

ولنقبض الآن عنان البنان ونرجع الى المقصود من شأن العزلة فقد خرجنا عن شرط الباب (فان قيل) أليس قد قال النبى ﷺ « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِى الْجُلُوسُ فِى الْمَسَاجِدِ » وفيه زجر عن التفرد فاعلم أن ذلك فى غير زمن الفتنة كما ذكرناه وأيضا فانه يجلس فى المسجد ولا يخالط الناس ولا يداخلهم فيكون بالشخص معهم وفى المعنى منفردا عنهم وهذا هو المعنى فى العزلة والتفرد الذى نحن فى شرحه لا التفرد بالشخص والمكان فافهم ذلك رحمك الله. وفيه يقول ابن أدهم رحمه الله: كن واحدا جامعيا ومن ربك ذا أنس ومن الناس وحشيا (فان قيل) فما تقول فى مدارس علماء الآخرة ورباطات الصوفية سالكى طريق الآخرة والسكون فيها (فاعلم) أن تلك الطريقة المثلى فى هذا الشأن لعامة أهل العلم والاجتهاد وذلك لأنها جمعت المعنيين والفائدتين اللتين احداهما العزلة عن الناس والتفرد عنهم بالصحبة والمخالطة والمزاحمة فى أمورهم والثانية المشاركة معهم فى جمعهم وجماعاتهم وتكثير شعائر الاسلام فتحصل السلامة التى هى للمنفردين والخير الكثير الذى هو لعامة المسلمين مع ما للناس فيهم من القدوة والبركة والنصيحة فصار السكون فيها أعدل طريق وأحسن حال وأسلم سبيل ولهذا الشأن أقام أكثر العارفين بين الناس لنفعهم لعباد الله تعالى فى باب الدين وقلة أذاهم ومشاهدة الخلق لآدابهم وحسن رسومهم ليقتدوا بهم فان لسان الحال أفصح من لسان المقال فصار ذلك أحسن تدبير فى أمر الدين للعلم والعبادة وأحكم رأى (فان قيل) فما حال المريد مع المجتهدين والمرتاضين أيصحبهم أم يعتزلهم (فاعلم) أنهم اذا كانوا ثابتين على رسومهم الأولى وسيرتهم الموروثة عن سلفهم فهم أجل اخوان فى الله عز وجل وأصحاب وأعوان على عبادة الله تعالى فلا تسعك عنهم عزلة وتفرد فانما مثلهم مثل ما نسمع من زهاد لبنان وغيرهم أن منهم جماعات يتعاونون على البر والتقوى ويتواصون بالحق والصبر وأما اذا تغيروا عن سيرتهم وتركوا رسومهم وأخلوا بطريقتهم الموروثة عن أسلافهم الصالحين فحكم هذا المجتهد المرتاض معهم كحكمه مع سائر الناس يلزم زاويته ويكف لسانه ويشاركهم فى خيراتهم ويجانبهم فى سائر أحوالهم وآفاتهم فيكون هو فى عزلة من أهل العزلة منفردا عن المنفردين (فان قلت) فان اختار هذا المجتهد المرتاض أن يخرج من بينهم الى مكان آخر لاصلاح يراه فى نفسه وتجنب آفة تدخل عليه فى صحبتهم (فاعلم) أن هذه المدارس والرباطات بمنزلة حصن حصين

اللقاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء اللهم انى أنزل بك حاجتى وان ضعف رأيى وقصر عملى وافتقرت الى رحمتك فأسألك ياقاضى الأمور وياشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن فتنة القبور ومن دعوة الثبور اللهم وما ضعف عنه رأيى وقصر عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فانى أرغب اليك فيه وأسألك اياه يارب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك سلما لأوليائك نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم اللهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين لك بالعهود انك رحيم

يتحصن بها المجتهدون عن القطاع والسراق وأن الخارج بمنزلة الصحراء تدور فيها فرسان الشياطين عسكرا عسكرا فتسلبه أو تستأسره فكيف حاله اذا خرج الى الصحراء وتمكن العدو منه من كل جانب يعمل به مايشاء فاذن ليس لهذا الضعيف الا لزوم الحصن . وأما الرجل القوى البصير الذى لا يغلبه الأعداء واستوى عنده الحصن والصحراء فلا خوف عليه اذا خرج غير أن الكون فى الحصن أحوط على كل حال اذ لا يؤمن من الفلتات والاتفاقات مع قرناء السوء واذا كان الأمر بهذه المثابة فالكون مع رجال الله والصبر على مشقة الصحبة أولى للمرتاض وطلب الخير بكل حال وأن لا مانع للقوى البالغ مبلغ الاستقامة عن التفرد منهم فاعلم هذه الجملة وتأملها تغنم وتسلم ان شاء الله تعالى (فان قيل) فما تقول فى زيارة الاخوان فى الله عزوجل ومواصلة الأصحاب بالتلاقى والتذاكر (فاعلم) أن زيارة الاخوان فى الله عزوجل من جواهر عبادة الله تعالى وفيها الزلفة الكريمة الى الله عزوجل مع مافيها من ضروب الفوائد وصلاح القلب ولكن بشرطين أحدهما أن لا تخرج فى ذلك الى الاكثار والافراط (قال) النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» والثانى أن تحفظ حق ذلك بالتجنب عن الرياء والتزين وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك فيعود عليك وعلى أخيك الوبال فلقد حكى أن الفضيل وسفيان رحمهما الله تذاكرا فبكيا فقال سفيان يا أبا على أرجو أنا ما جلسنا مجلسا أرجى لنا من هذا المجلس فقال الفضيل ماجلست مجلسا أخوف علىّ من هذا فقال وكيف يا أبا على قال : ألست تعمد الى أحسن حديثك فتحدثنى به وأنا عمدت الى أحسن ماعندى فحدثتك به فتزينت لى وتزينت لك فبكى سفيان . فيجب أن تكون مجالستك للاخوان وملاقاتهم على مقدار قصد واحتياط ونظر لطيف فلا يقدح ذلك حينئذ فى عزلتك وتفردك عن الناس ولا يعود عليك وعلى أخيك بضرر وآفة بل بخير كثير ونفع عظيم والله الموفق (فان قلت) فما يبعثنى على العزلة عن الناس والتفرد ويهوّن علىّ ذلك (فاعلم) أن الذى يهوّن عليك ذلك ثلاثة أمور : أحدها استغراق أوقاتك فى العبادة فان فى العبادة شغلا وان الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فاذا رأيت نفسك تتطلع الى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة وضرورة فاعلم أن ذلك فضول ساقه الفراغ والبطر ولقد أحسن من قال فى هذا المعنى

ان الفراغ الى سلامك قادنى * ولربما عمل الفضول الفارغ

فأنت اذا عانقت العبادة بحقها وجدت حلاوة المناجاة فاستأنست بكتاب الله سبحانه واشتغلت عن الخلق واستوحشت من صحبتهم وكلامهم (وفى الخبر) أن موسى عليه السلام كان اذا رجع من المناجاة يستوحش من الناس وكان يجعل إصبعيه فى أذنيه لئلا يسمع كلامهم وكان كلامهم عنده فى النفور والوحشة فى ذلك الوقت كأصوات الحمير فعليك بما قاله شيخنا رحمه الله :

ارض بالله صاحبا * وذر الناس جانبا * صادق الود شاهدا * كنت فيهم وغائبا
قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا

والثانى قطع الطمع عنهم بمرة فيهوّن عليك أمرهم لأن من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء والثالث تبصرا آفاتهم وتذكر ذلك وتكرره على قلبك لأن هذه الأركان الثلاثة اذا لزمتها طردتك عن صحبة الخلق الى باب الله تعالى والتفرد لعبادته وحببته اليك وألزمتك بابه وبالله التوفيق والعصمة

ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان من اتصف بالعز وقال به، سبحان من لبس المجد وتكرم به ، سبحان من لا ينبغى التسبيح الا له ، سبحان ذى الفضل والنعم ، سبحان ذى القدرة والكرم سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى ، اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا أعظم نور واجعل لى نورا برحمتك يا أرحم الراحمين * فاذا فرغت من الدعاء فلا تشتغل الا بأداء الفريضة أو بذكر أو تسبيح أو قراءة القرآن فاذا سمعت الأذان فى أثناء ذلك فاقطع ما أنت فيه بجواب المؤذن فاذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقل مثل ذلك وكذلك فى كل كلمة الا فى الحيعلتين فقل فيهما لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم فاذا قال الصلاة خير من النوم فقل صدقت وبررت وأنا على ذلك من

العائق

﴿العائق الثالث الشيطان﴾ ثم عليك ياأخى بمحاربة الشيطان وقهره وذلك لخصلتين : احداهما أنه عدو مضل مبين ولا مطمع فيه لمصالحة وابقاء عليك بل لا يقنعه الا هلاكك أصلا فلا وجه اذا للأمن من مثل هذا العدو والغفلة عنه وتأمل آيتين من كتاب الله تعالى احداهما قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ والثانية قوله تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وهذا أقصى التحذير وغايته. والخصلة الثانية أنه مجبول على عداوتك ومنتصب أبدا لمحاربتك فهو آناء الليل وأطراف النهار يرميك بسهامه وأنت غافل عنه فكيف الحال. ثم وقعت معك نكتة أخرى وهى أنك فى عبادة الله تعالى ودعوة الخلق الى باب الله سبحانه بفعلك وقولك وهذا ضد صنيع الشيطان وهمته ومراده وحرفته فصرت كأنك قمت وشددت وسطك لتغايظ الشيطان وتكايده وتناقضه فهو أيضا يشد وسطه ليعاديك ويقاتلك ويماكرك حتى يفسد والعياذ بالله عليك شأنك بل حتى يهلكك رأسا اذ لا يأمن من جانبك بعد فانه الذى يسىء ويقصد بالهلاك الى من لا يغايظه ولا يناقضه بل يصادقه ويوافقه كالكفار وأهل الضلال وأهل الرغبة فى بعض الأحوال فكيف قصده لمن قام لمغايظته وتجرد لمناقضته فله اذا مع سائر الناس عداوة عامة ومعك أيها المجتهد فى العبادة والعلم عداوة خاصة، وان أمرك لهم ومعه عليك أعوان اشدها عليك نفسك وهو الكوله أسباب ومداخل وأبواب أنت عنها غافل (ولقد صدق) يحيى بن معاذ الرازى حيث قال: الشيطان فارغ وأنت مشغول والشيطان يراك وأنت لا تراه وأنت تنساه وهو لا ينساك ومن نفسك للشيطان عليك أعوان فاذن لا بد من محاربته وقهره والا فلا تأمن الفساد والهلاك (فان قلت) فبأى شىء أحارب الشيطان وبأى شىء أقهره وأدفعه، فاعلم أن لأهل هذه الصناعة فى هذه المسألة طريقين أحدهما ماقال بعضهم : ان التدبير فى دفع الشيطان الاستعاذة بالله سبحانه لا غير . فان الشيطان كلب سلطه الله سبحانه عليك فان اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك ويظفر بك فيعقرك ويجرحك فالرجوع الى رب الكلب ليصرفه عنك أولى. والثانى ماقال آخرون ان الطريق المجاهدة والقيام عليه بالدفع والرد والمخالفة (قلت) والذى عندى أن الطريق العدل الجامع فى أمره أن نجمع بين الطريقين فنستعيذ بالله تعالى أولا من شره كما أمرنا وهو الكافى شره ثم ان رأيناه يتغلب علينا علمنا أنه ابتلاء من الله تعالى ليرى صدق مجاهدتنا وقوتنا فى أمره سبحانه وتعالى ويرى صبرنا كما أنه سلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة كما قال تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ فكذلك هذا. ثم ان محاربته وقهره فيما قاله علماؤنا رضى الله عنهم فى ثلاثة أشياء أحدها أن تتعرف وتتعلم مكايده وحيله، فلا يتجاسر حينئذ عليك كاللص اذا علم أن صاحب الدار قد أحس به فر. والثانى أن تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك بذلك ، ولا تتبعه فانه بمنزلة الكلب النابح ان أقبلت عليه أولع بك ولج وان أعرضت عنه سكت. والثالث أن تديم ذكر الله سبحانه بلسانك وقلبك .فلقد قال ﷺ « إِنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى فى جَنْبِ الشَّيْطَانِ كَالأَكِلَةِ فِى جَنْبِ ابْنِ آدَمَ» (فان قلت) فكيف أتعلم مكايده وكيف الطريق الى معرفة ذلك (فاعلم) أن له وساوس هى بمنزلة السهام التى يرميها وذلك انما يتبين لك بمعرفة الخواطر وأقسامها . والثانى أن له حيلا هى بمنزلة الشبكات التى تنصبها وذلك يتبين لك بمعرفة المكايد وأوصافها ومجاريها

الشاهدين فاذا سمعت الاقامة فقل مثل مايقول الا فى قوله قد قامت الصلاة فقل أقامها الله وأدامها مادامت السموات والأرض فاذا فرغت من جواب المؤذن فقل اللهم انى أسألك عند حضور صلاتك وأصوات دعاتك وادبار ليلك واقبال نهارك أن تؤتى محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ياأرحم الراحمين فاذا سمعت الأذان وأنت فى الصلاة فتمم الصلاة ثم تدارك الجواب بعد السلام على وجهه فاذا أحرم الامام بالفرض فلا تشتغل الا بالاقتداء به وصل الفرض كما سيتلى عليك فى كيفية الصلاة وآدابها فاذا فرغت فقل اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دارك دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام سبحان ربى العلى الأعلى لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله الا الله أهل النعم والفضل والثناء الحسن

ولقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أبوابا فى الخواطر وقد صنفنا كتابا سميناه تلبيس ابليس وكتابنا هذا لا يحتمل الاكثار لكننا نذكر لك ان شاء الله تعالى من كل واحد منها أصلا كافيا اذا اعتصمت به *فأما أصل الخواطر فاعلم أن الله تعالى وكل بقلب بن آدم ملكا يدعوه الى الخير يقال له اللهم ولدعوته الهام وسلط فى مقابلته شيطانا يدعو العبد الى الشر يقال له وسواس ولدعوته وسوسة فاللهم لا يدعوه الا الى الخير والوسواس لا يدعوه الا الى الشر فى قول أكثر علمائنا وقد حكى عن شيخنا رحمه الله : أن الشيطان ربما يدعو الى الخير وقصده فى ذلك الشر بأن يدعوه الى المفضول ليمنعه عن الفاضل أو يدعوه الى خير ليجره الى ذنب عظيم لا يفى خيره بذلك الشر من عجب أو غيره فهذان داعيان قائمان على قلبه يدعوانه وهو يسمع قلبه يحس بذلك على ماروى فى الأخبار أنه عليه السلام قال: «إذا وُلد لابن آدم مولودٌ قَرن الله سبحانه به مَلَكاً وقرن الشيطانُ به شيطانا فالشيطانُ جاثمٌ على أُذُن قلب بن آدم الأيسرِ والملكُ جاثمٌ على أُذُن قلبه الأيمنِ فهما يدعُوانه» وقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم «للشيطان لَمّةٌ بابن آدم وللملك لَمّةٌ» يعنى نزلةً بالدعوة من قولهم لمّ بالمكان وألمّ به اذا نزل به. ثم ركب الله تعالى فى بنية الانسان طبيعة مائلة الى الشهوات ونيل اللذات كيف كانت من حسن أو قبيح فذلك هوى النفس الصارفة الى الآفات فهذه ثلاثة دعاة (ثم اعلم) بعد هذه المقدمة أن الخواطر هى آثار تحدث فى قلب العبد تبعثه على الأفعال والتروك وتدعوه اليها، وسميت خواطر لاضطرابها من خطرات الريح ونحوها وحدوثها جميعا فى قلب العبد بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى لكنها أربعة أقسام منها ما يحدثه الله تعالى فى القلب ابتداء فيقال له الخاطر فقط وقسم يحدثه موافقا الطبع الانسان فيقال له هوى النفس وينسب اليها وقسم يحدثه عقيب دعوة اللهم فينسب اليه ويقال له الالهام وقسم يحدثه عقيب دعوة الشيطان فينسب اليه ويقال له الوسوسة وتنسب اليه بأنها خواطر من الشيطان وانما هى فى الحقيقة حادثة عند دعوته فهو كالسبب فى ذلك ولكنه ينسب اليه .

فهذه أربعة أقسام من الخواطر (ثم اعلم) بعد هذا التقسيم أن الخاطر الذى من قبل الله تعالى ابتداء قد يكون بخير اكراما والزاما للحجة وقد يكون بشر امتحانا وتغليظا للمحنة والخاطر الذى يكون من قبل اللهم لا يكون الا بخير اذ هو ناصح مرشد لم يرسل الا لذلك والخاطر الذى يكون من قبل الشيطان لا يكون الا بشر اغواء واستزلالا وربما يكون بالخير مكرا واستدراجا والذى يكون من قبل هوى النفس يكون بالشر وبما لا خير فيه تمنيا وتعسفا ولقد وجدت عن بعض السلف أن هوى النفس أيضا قد يدعو الى خير والمقصود منه شر كالشيطان فهذه أنواعها. ثم اعلم بعد هذا أنك محتاج الى معرفة ثلاثة فصول لابد لك منها البتة وفيها المقصود : أحدها الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر فى الجملة. والثانى الفرق بين خاطر شر ابتدائى أو شيطانى أو هوائى وبماذا يفرق بينها فان لكل واحد منها دفعا من نوع آخر. والثالث الفرق بين خاطر خير ابتدائى أو الهامى أو شيطانى أو هوائى لتتبع ما يكون من الله تعالى أو من اللهم وتجتنب ما يكون من الشيطان وكذلك الهوى على قول من يقول به (فأما الفصل الأول) فقال علماؤنا رضى الله عنهم : اذا أردت ان تعلم خاطر الخير من خاطر الشر وتفرق بينهما فزنه بأحد الموازين الأربعة يتبين لك حاله الأول ان تعرض الأمر الذى خطر ببالك على الشرع فان وافق جنسه فهو خير وان كان بالضد برخصة او شبهة فهو شر فان لم يستبن لك بهذا الميزان فاعرضه

لا إله الا الله ولا نعبد إلا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون* ثم ادع بعد ذلك بالجوامع الكوامل وهو ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها فقل اللهم انى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمتُ منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمتُ منه ومالم أعلم وأسألك الجنة وما يقرب اليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأعوذ بك من النار وما يقرب اليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ اللهم وما قضيت لى من أمر فاجعل عاقبته رشدا، ثم ادع بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها فقل ياحى ياقيوم ياذا الجلال والاكرام لا إله الا أنت برحمتك أستغيث ومن عذابك استجير لا تكلنى الى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله بما اصلحت به الصالحين، ثم قل ما قاله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: اللهم انى اصبحت

على الاقتداء فان كان فى فعله اقتداء بالصالحين فهو خير وان كان بالضد اتباعا للصالحين فهو شر فان لم يستبن لك بهذا الميزان فاعرضه على النفس والهوى فانظر ان كان مما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب فاعلم انه خير وان كان مما تميل النفس اليه ميل طبع وجبلة لا ميل رجاء الى الله تعالى وترغيب فهو شر اذ النفس امارة بالسوء لا تميل بأصلها الى خير فبأحد هذه الموازين اذا نظرت وامعنت النظر يستبين لك خاطر الخير من خاطر الشر . والله تعالى ولى الهداية بفضله انه جواد كريم (وأما الفصل الثانى) فقال علماؤنا اذا اردت ان تفرق بين خاطر شر يكون من قبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس أو من قبل الله تعالى ابتداء فانظر فيه من ثلاثة اوجه احدها ان وجدته مصمما راتبا على حالة واحدة فهو من الله تعالى أو من هوى النفس وان وجدته مترددا مضطربا فاعلم انه من الشيطان ﴿ وكان بعض الصالحين ﴾ رحمه الله يقول: مثل هوى النفس مثل النمر اذا حارب لا ينصرف الا بقمع بالغ وقهر ظاهر أو مثل الخارجى الذى يقاتل تدينا الا يكاد يرجع حتى يقتل. ومثل الشيطان مثل الذئب اذا طردته من جانب دخل من جانب آخر . وثانيها ان وجدته عقيب ذنب أحدثته فهو من الله تعالى اهانة وعقوبة بشؤم ذلك الذنب قال الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قال شيخى الامام رحمه الله هكذا تؤدى الذنوب الى قسوة القلب أولها خاطر ثم يؤدى الى القسوة والرين. وان كان هذا الخاطر مبتدأ لاعقيب ذنب كان منك فاعلم أنه من قبل الشيطان هذا فى الأكثر لأنه يبتدئ بدعوة الشر ويطلب الاغواء بكل حال. وثالثها ان وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى ولا يزول فهو من الهوى وان وجدته يضعف ويقل بذكر الله سبحانه فهو من الشيطان كما ذكر فى تفسير قوله تعالى ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم اذا ذكر الله تعالى خنس واذا غفل وسوس (وأما الفصل الثالث) إذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى أو من الملك فانظر فى ذلك من ثلاثة أوجه أحدها أن تنظر فان كان قويا مصمما فهو من الله تعالى وان كان مترددا فهو من الملك اذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك فى كل جانب ووجه ويعرض عليك كل نصح رجاء اجابتك ورغبتك فى الخير والثانى ان كان عقيب اجتهاد منك وطاعة فهو من الله تعالى قال الله تعال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ وان كان مبتدأ فهو من الملك فى الأغلب . والثالث ان كان فى الأصول والأعمال الباطنة فهو من الله سبحانه وان كان فى الفروع والأعمال الظاهرة فهو من الملك فى الاكثر اذ الملك لا سبيل له الى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم *وأما خاطر الخير الذى يكون من قبل الشيطان استدراجا الى شر يربى عليه فلقد قال شيخنا رحمه الله انظر ان وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية ومع عجلة لا مع تأن ومع أمن لا مع خوف ومع عمى عن العاقبة لا مع بصيرة فاعلم أنه من الشيطان فاجتنبه وان وجدت نفسك على ضد ذلك مع خشية لا مع نشاط ومع تأن لا مع عجلة ومع خوف لا مع أمن ومع بصارة للعاقبة لا مع عمى فاعلم أنه من الله سبحانه أو من الملك (قلت) أنا وكأن النشاط خفة فى الانسان للفعل من غير بصيرة وذكر ثواب ينشطه فى ذلك. واما الثانى فحمود الا فى مواضع معلومة معدودة وذكر فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم «الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ تَزْوِيجُ الْبِكْرِ إِذَا أَدْرَكَتْ وَقَضَاءُ الدَّيْنِ إِذَا وَجَبَ وَتَجْهِيزُ الْمَيِّتِ إِذَا مَاتَ وَقِرَى الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ وَالتَّوْبَةُ مِنَ

لاأستطيع دفع ما أكره ولا املك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيدك لا بيد غيرك واصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى اليك ولا غنى اغنى منك عنى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا اكبر همى ولا مبلغ علمى ولا تسلط على بذنبى من لا يرجمنى* ثم ادع بما بدالك من الدعوات المشهورات واحفظها مما اوردناه فى كتاب الدعوات من كتب احياء علوم الدين ولتكن اوقاتك بعد الصلاة الى طلوع الشمس موزعة على اربع وظائف وظيفة فى الدعوات ووظيفة فى الأذكار والتسبيحات وتكررها فى مسبحة ووظيفة فى قراءة القرآن ووظيفة فى التفكر فتفكر فى ذنوبك وخطاياك وتقصيرك فى عبادة مولاك وتعرضك لعقابه الأليم وسخطه العظيم وترتب أوقاتك بتدبيرك أورادك فى جميع يومك لتتدارك به مافرطت من تقصيرك وتحترز من التعرض لسخط الله الأليم فى يومك وتنوى الخير لجميع المسلمين

الذنب إذا أذنب» وأما الخوف فيحتمل ان يكون فى اتمامه وأدائه على وجهه وحقه وقبول الله تعالى اياه وأما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن انه رشد وخير ويحتمل ان يكون لرؤية الثواب فى العقبى ورجائه فاعلم ذلك موفقا . فهذه جملة الفصول الثلاثة التى لزمتك معرفتها فى فصل الخواطر فارعها وأمعن النظر فيها مااستطعت فانها من العلوم اللطيفة والأسرار الشريفة فى هذا الباب والله الموفق بفضله ﴿ واما فصل الحيل والمخادعات من الشيطان ﴾ فجرى ذلك ومثاله أن مكائد الشيطان مع ابن آدم فى الطاعات فى سبعة أوجه أحدها أن ينهاه عنها فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال انى لمحتاج الى ذلك جدا اذ لا بد لى من التزود من هذه الدنيا الفانية للآخرة التى لا انقضاء لها ثم يأمره بالتسويف فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال ليس أجلى بيدى على أنى ان سوفت عمل اليوم الى غد فعمل غد متى أعمله فان لكل يوم عملا ثم يأمره بالعجلة فيقول له عجل عجل لتتفرغ لكذا وكذا فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال قليل العمل مع التمام خير من كثيره مع النقصان ثم يأمره باتمام العمل مرا آة للناس فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال ما الذى أعمل بمرآة الناس أفلا تكفينى رؤية الله تعالى ثم يريد أن يوقعه فى العجب فيقول ما أعظمك وما أيقظك وما أفضلك فان عصمه الله تعالى رده بأن قال المنة لله تعالى فى ذلك دونى فهو الذى خصنى بتوفيقه وجعل لعملى قيمة عظيمة بفضله ولولا فضله فماذا كان قيمة هذا العمل فى جنب نعمة الله تعالى على وجنب معصيتى له ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها ولا يقف عليه الا متيقظ وهو أن يقول اجتهد أنت فى السر فان الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عمل عمله وأراد بذلك ضربا من الرياء فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال يا ملعون الى الآن كنت تأتينى من وجه افساد عملى والآن تأتينى من وجه اصلاحه لتفسده انما أنا عبد الله تعالى وهو سيدى ان شاء أظهر وان شاء أخفى وان شاء جعلنى خطيرا وان شاء جعلنى حقيرا وذلك اليه ما أبالى ان أظهر ذلك للناس أو لم يظهره فليس بأيديهم شىء ثم يأتيه من وجه سابع ويقول لا حاجة لك الى هذا العمل لأنك ان خلقت سعيدا لم يضرك ترك العمل وان خلقت شقيا لم ينفعك فعله فان عصمه الله تعالى رده بأن قال انما أنا عبد وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته والرب أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولأنه ينفعنى العمل كيفما كنت لأنى ان كنت سعيدا احتجت اليه لزيادة الثواب وان كنت شقيا فأنا محتاج اليه كى لا ألوم نفسى على أن الله تعالى لا يعاقبنى على الطاعة بكل حال ولا يضرنى . على أنى ان أدخلت النار وأنا مطيع أحب الى من أن أدخلها وأنا عاص فكيف ووعده حق وقوله صدق. وقد وعد على الطاعات بالثواب فمن لقى الله تعالى على الايمان والطاعة لم يدخل النار البتة ودخل الجنة لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعد الله الصادق تعالى وتقدس ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء اذ قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده. فتيقظ رحمك الله فان الأمر كما ترى وتسمع وقس عليه سائر الأحوال والأفعال واستعن بالله تعالى واستعذ به فان الأمر بيده ومنه التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ﴿ العائق الرابع النفس ﴾ ثم عليك يا طالب العبادات عصمك الله وايانا بالحذر من هذه النفس الأمارة بالسوء فانها أضر الأعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الأشياء وداؤها أعضل الداء ودواؤها أشكل الدواء وانما ذلك لأمرين: أحدهما أنها عدو من داخل واللص اذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر ولقد صدق القائل :

نفسى الى ما ضرنى داعى * تكثر أسقامى وأوجاعى

وتختار أفضلها وتتأمل تهيئة أسبابها ليشتغل بها ولا تدع عنك التفكر فى قرب الأجل وحلول الموت القاطع للأمل وخروج الأمر عن الأختيار وحصول الحسرة والندامة وطول الاغترار وليكن من تسبيحاتك وأذكارك عشر كلمات احداهن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير الثانية لا إله إلا الله الملك الحق المبين الثالثة لا إله الا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار الرابعة سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم الخامسة سبوح قدوس رب الملائكة والروح السادسة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم السابعة أستغفر الله العظيم الذى لا إله الا هو الحى القيوم وأسأله التوبة والمغفرة الثامنة اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى

كيف

كيف احتيالى من عدوى اذا * كان عدوى بين أضلاعى

والثانى أنه عدو محبوب والانسان عم عن عيب محبوبه لايكاد يبصر عيبه كما قال القائل:

ولست ترى عيبا لذى الود والاخا * ولا بعض مافيه اذا كنت راضيا
وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

فاذا يستحسن الانسان من نفسه كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها وهى فى عداوتها وأضرارها فما أوشك ماتوقعه فى فضيحة وهلاك وهو لا يشعر الا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها برحمته (ثم أقول) تأمل أيها الرجل نكتة واحدة مقنعة وهى أنك إذا نظرت وجدت أصل كل فتنة وفضيحة وخزى وهلاك وذنب وآفة وقع فى خلق الله تعالى من أول الخلق الى يوم القيامة من قبل هذه النفس اما بها وحدها أو بمعاونتها ومشاركتها ومساعدتها فأول المعصية لله تعالى كانت من ابليس وكان سببه بعد القضاء السابق هوى النفس بكبرها وحسدها ألقته بعد عبادة ثمانين ألف سنة على ماقيل فى بحر الضلال فغرق الى أبد الآبدين اذ لم يكن هنالك دنيا ولا خلق ولا شيطان بل كانت النفس بكبرها وحسدها فعملت به ماعملت. ثم ذنب آدم وحواء عليهما السلام طرحتهما شهوة النفس فى ذلك وحرصهما على البقاء والحياة حتى اغترا بقول ابليس فكان ذلك إذا بعون النفس وشركتها حتى سقطا بذلك من جوار الله تعالى وقرار الفردوس الى هذه الدنيا الحقيرة النكدة الفانية المهلكة ولقيا مالقيا واقى أولادهما القوا من ذلك اليوم الى أبد الآبدين. ثم حديث قابيل وهابيل كان السبب فى أمرهما الحسد والشح. ثم حديث هاروت وماروت كان السبب فى شأنهما الشهوة ثم هلم جرا الى يوم القيامة. فلا تجد فى الخلق فتنة ولا فضيحة ولا ضلالا ولا معصية الا وأصلها النفس وهواها والا كان الخلق فى سلامة وخير واذا كان عدو بهذا الضرر كله فحق للعاقل أن يهتم بأمره والله تعالى ولى الهداية والتوفيق بفضله (فان قلت) فما الحيلة اذا لنا فى هذا العدو وما التدبير فى أمره فبين لنا ذلك فاعلم أنا ذكرنا فيما تقدم أن أمرها عسير صعب اذ لا يمكن قهرها بمرة كسائر الأعداء اذ هى المطية والآلة وقيل ان أعرابيا دعا لانسان بخير فقال كبت الله تعالى كل عدو لك الا نفسك، ولا يمكن اهمالها بمرة لمكان ضررها فتحتاج الى طريق بين الطريقين تربيها وتقويها بقدر ماتحتمل فعل كل خير وتضعفها وتحبسها على حد لا يتمادى. فأنت من أمرها فى علاج شديد ونظر لطيف. ثم قد ذكرنا فى أمرها أن تلجمها بلجام التقوى والورع لتحصل الفائدتين جميعا (فان قلت) ان هذه دابة جموح وبهيمة صعبة شكسة لا تنقاد للجام فما الحيلة فيها حتى تمكننا منها (فاعلم) أنك فيها صادق والحيلة تذليلها حتى تنقاد للجام (قال) علماؤنا رضى الله عنهم انما يذلل النفس ويكسرها ثلاثة أشياء أحدها: منع الشهوات فان الدابة الحرون تلين اذا نقص من علفها والثانى حمل أثقال العبادات عليها فان الحمار اذا زيد فى حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد. والثالث الاستعانة بالله عزوجل والتضرع اليه بأن يعينك والا فلا مخلص أما تسمع قول يوسف عليه السلام «إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ» فاذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح باذن الله عزوجل فحينئذ تبادر الى أن تملكها وتلجمها وتأمن من شرها (فان قلت) فبين لنا الآن ماهو التقوى حتى نعلمه (فاعلم) أولا أن التقوى كنز عزيز فلئن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم جسيم وملك عظيم فكأن

لمامنعت ولا رادلما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. التاسعة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم. العاشرة باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم تكرر كل واحدة من هذه الكلمات اما مائة مرة أو سبعين مرة أو عشر مرات وهو أقله ليكون المجموع مائة ولازم هذه الأذكار ولا تتكلم قبل طلوع الشمس ففى الخبر أن ذلك أفضل من اعتاق ثمان رقاب من ولد اسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام أعنى الاشتغال بذلك الى طلوع الشمس من غير أن يتخلله كلام (آداب ما بعد طلوع الشمس الى الزوال) فاذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح فصل ركعتين وذلك عند زوال وقت الكراهة للصلاة فانها مكروهة من بعد فريضة الصبح الى الارتفاع فاذا أضحى النهار ومضى منه قريب من ربعه فصل صلاة الضحى أربعا أوستا أو ثمانيا مثنى مثنى فقد نقلت هذه الأعداد كلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة خير كلها فمن شاء فليستكثر

فليس بين الطلوع والزوال راتبة الا هذه الصلوات فما فضل منها

خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التى هى التقوى وتأمل مافى القرآن من ذكرها فكم علق بها من خير وكم وعد عليها من أجر وثواب وكم أضاف اليها من سعادة وأنا أعدّ لك من جملتها اثنتى عشرة خصلة : أولها المدحة والثناء قال الله تعالى « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » والثانى الحفظ والحراسة من الأعداء قال الله تعالى « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » والثالث التأييد والنصرة قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ والرابع النجاة من الشدائد والرزق من الحلال قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ والخامس اصلاح العمل قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ والسادس غفران الذنوب قال الله تعالى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والسابع محبة الله قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ والثامن القبول قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والتاسع الاعزاز والاكرام قال الله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ والعاشر البشارة عند الموت قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ والحادى عشر النجاة من النار قال الله تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقال تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ والثانى عشر الخلود فى الجنة قال الله تعالى ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذا بيان كل خير وسعادة فى الدارين تحت هذه التقوى فلا تنس نصيبك أيها الرجل منها. ثم الذى يختص به هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول : أحدها التوفيق والتأييد أولا وهو للمتقين كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ والثانى اصلاح العمل واتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ والثالث قبول العمل وهو للمتقين كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ومدار العبادة على هذه الأمور الثلاثة التوفيق أولا حتى تعمل ثم الاصلاح للتقصير حتى يتم ثم القبول اذا تم . وهذه الأمور الثلاثة التى يتضرع فيها العابدون الى الله تعالى ويسألون فيقولون ربنا وفقنا لطاعتك وأتمم تقصيرنا وتقبل منا وقد وعد الله تعالى ذلك كله على التقوى وأكرم بها المتقى سأل أولم يسأل فعليك بهذه التقوى ان أردت عبادة الله سبحانه بل ان أردت سعادة الدنيا والعقبى ولقد صدق القائل :

من اتقى الله فذاك الذى * سيق اليه المتجر الرابح

(وكتب بعضهم هذا البيت)

لايتبع المرء الى قبره * غير التقى والعمل الصالح

(وقال غيره) من عرف الله فلم تغنه * معرفة الله فذاك الشقى

مايصنع العبد بعز الغنى * والعز كل العز للمتقى

ماضر ذا الطاعة مانا له * فى طاعة الله وماذا لقى

﴿وكتب بعضهم على القبور﴾

ليس زاد سوى التقى * فخذى منه أو دعى

(ثم تأمل) أصلا واحدا وهو أنه هب أنك قد تعبت جميع عمرك فى العبادة وجاهدت وكابدت حتى حصل لك ماتمنيت أليس الشأن كله فى القبول ولقد علمت أن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فرجع

ومن شاء فليستقلل من أوقاتك فلك فيه أربع حالات (الحالة الأولى) وهي الأفضل أن تصرفه فى طلب العلم النافع دون الفضول الذى أكب الناس عليه وسموه علما والعلم النافع مايزيد فى خوفك من الله تعالى ويزيد فى بصيرتك بعيوب نفسك ويزيد فى معرفتك بعبادة ربك ويقلل من رغبتك فى الدنيا ويزيد فى رغبتك فى الآخرة ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحترز منها ويطلعك على مكايد الشيطان وغروره وكيفية تلبيسه على علماء السوء حتى عرّضهم لمقت الله تعالى وسخطه حيث اشتروا الدنيا بالدين واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة الى أخذ أموال السلاطين وأكل أموال الأوقاف واليتامى والمساكين وصرفوا همتهم طول نهارهم الى طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق واضطرهم ذلك الى المراءاة والمماراة والمناقشة فى الكلام والمباهاة وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه فى كتاب احياء

الأمر كله الى التقوى ولذلك روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: ماأعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشىء من الدنيا ولاأعجبه أحد الاذوتقى. وعن قتادة أنه قال: مكتوب فى التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت وبلغنى عن عامر بن عبد قيس أنه بكى عند موته وكان يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ثم يأتى الى فراشه فيقول يامأوى كل شر والله مارضيتك لله طرفة عين. وبكى يومافقيل له مايبكيك قال قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (ثم تأمل نكتة أخرى) وهى أصل الأصول وهى ماذكر أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه أوصنى بوصية فقال: أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ (قلت أنا) أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد أوليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد ولو كانت فى العالم خصلة هى أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل فى العبودية وأعظم فى القدر وأولى بالحال وأنجح فى المآل من هذه الخصلة التى هى التقوى لكان الله تعالى أمر بها عباده وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة وجمع الأولين والآخرين من عباده فى ذلك واقتصر عليها علمت أنها الغاية التى لامتجاوز عنها ولا مقصد دونها وأنه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وارشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب فى هذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته ورحمته وعلمت أن هذه الخصلة التى هى التقوى هى الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة الى أعلى الدرجات فى العبودية وقد أحسن من قال:

ألا انما التقوى هى العز والكرم * وحبك للدنيا هو الذل والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة * اذا صحح التقوى وان حاك أو حجم

وهذا أصل لامزيد عليه وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى. وعمل بذلك واستغنى. والله ولى الهداية والتوفيق عنه (فان قلت) لقد عظم قدر هذه الخصلة وجل موقعها واشتدت الحاجة الى معرفتها فلابد الآن من تفصيلها (فاعلم) أن الأمر كذلك لحق لها أن يجل قدرها ويلزم طلبها وتمس الحاجة الى معرفتها ولكنك تعلم أن كل خطير وكبير يحتاج فى اجتلابه الى طلب كثير وتعب كبير وهمة عالية وجهد شديد فاذن كما أن هذه الخصلة خصلة عظيمة كبيرة فان المجاهدة فى طلبها والقيام بحقها والعناية فى تحصيلها أيضا لفعل كبير وشأن عظيم فان المكارم على حسب المكاره وان اللذات على حسب المؤنات والله تعالى يقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهو الرءوف الذى بيده تيسير كل عسير فاستمع وتنبه وتفهم جيدا بيان هذه الخصلة حتى تعلمها ثم تشمر للقيام بها، واستعن بالله عز وجل حتى تعمل بما تعلم فان الشأن كله فى ذلك والله ولى التوفيق والهداية بفضله (فنقول) اعلم أولا بارك الله فى دينك وزاد فى يقينك أن التقوى فى قول شيوخنا رحمهم الله هو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى تحصل لك من قوة العزم على تركها وقاية بينك وبين المعاصى هكذا قال شيخنا رحمه الله. وذلك أن أصل لفظة التقوى فى اللغة هو الوقوى بالواو وهو مصدر الوقاية يقال وقى يقى وقاية ووقوى فأبدلت عن الواو تاء كما هو فى الوكلان والتكلان ونحوهما فقيل تقوى فاذا لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصى من قوة عزمه على تركها وتوطين قلبه على ذلك فيوصف حينئذ بأنه متق ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين تقوى والتقوى فى القرآن تطلق على ثلاثة أشياء أحدها بمعنى الخشية والهيبة قال الله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ وقال

علوم الدين فان كنت من أهله فحصله واعمل به ثم علمه وادع اليه فمن علم ذلك ثم عمل به ثم دعا اليه فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السموات بشهادة عيسى عليه السلام فاذا فرغت من ذلك وفرغت من اصلاح نفسك ظاهرا وباطنا وفضل شىء من أوقاتك فلا بأس أن تشتغل بعلم المذهب فى الفقه لتعرف به الفروع النادرة فى العبادات وطريق التوسط بين الخلق فى الخصومات عند انكبابهم على الشهوات فذلك أيضا عند الفراغ من هذه المهمات من جملة فروض الكفايات فان دعتك نفسك الى ترك ماذكرناه من الأوراد والأذكار اشتغالا بذلك فاعلم أن الشيطان اللعين قد دس فى قلبك الداء الدفين وهو حب الجاه والمال فاياك أن تغتر به فتكون ضحكة للشيطان فيهلكك ثم يسخر بك فان جربت نفسك مدة فى الاوراد والعبادات فكانت لا تستثقلها كسلا عنها لكن ظهرت رغبتك فى تحصيل العلم النافع ولم ترد به الا وجه الله تعالى والدار الآخرة فذلك أفضل من نوافل العبادات مهما صحت

من الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ والثانى بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: أطيعوا الله حق طاعته. وقال مجاهد. هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر . والثالث بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب . فهذه هى الحقيقة فى التقوى دون الأولين ألا ترى أن الله تعالى يقول ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهى تنزيه القلب عما ذكرناه ثم قالوا رحمهم الله: منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصى الفرعية. ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى آية واحدة وهى قوله جل من قائل ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ فالتقوى الأولى تقوى عن الشرك والايمان الذى فى مقابلتها التوحيد. والتقوى الثانية عن البدعة والايمان الذى ذكر معها اقرار عقود السنة والجماعة . والتقوى الثانية عن المعاصى الفرعية والاقرار فى هذه المنزلة فقابلها بالاحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها فتكون منزلة مستقيمى الطاعة فالآية جمعت ذكر المنازل الثلاث: منزلة الايمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة. فهذا ماقاله العلماء رحمهم الله فى بيان معنى التقوى (قلت) وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال وهو ماروى فى الخبر المشهور عن النبى ﷺ أنه قال «إِنَّمَا سُمِّىَ الْمُتَّقُونَ مُتَّقِينَ لِتَرْكِهِمْ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ» فأحببت أن أجمع بين ماقاله علماؤنا رحمهم الله وبين ماجاء فى الخبر عن النبى ﷺ فيكون حدا جامعا ومعنى بالغا (فأقول) التقوى هى اجتناب كل ماتخاف منه ضررا فى دينك ألا ترى أنه يقال للمريض المحتمى انه يتقى اذا اجتنب كل شىء يضره فى بدنه من طعام أو شراب أو فاكهة أو غيرها ثم الذى يخاف منه الضر فى أمر الدين قسمان محض الحرام والمعصية وفضول الحلال لأن الاشتغال بفضول الحلال والانهماك فيه يستجر صاحبه الى الحرام ومحض العصيان وذلك لشره النفس وطغيانها وتمرد الهوى وعصيانه فمن أراد أن يأمن الضرر فى أمر دينه اجتنب الخطر وامتنع عن فضول الحلال حذرا أن يجره الى محض الحرام على ماقاله صلى الله عليه وسلم لتركهم مالا بأس به حذرا عما به بأس يعنى لتركهم فضول الحلال حذرا عن الوقوع فى الحرام . فالتقوى البالغة الجامعة اجتناب كل مافيه ضرر لأمر الدين وهو المعصية والفضول هذا تفصيلها . وأما اذا أردنا تحديدها على موضوع علم السر (فنقول) حد التقوى الجامع تنزيه القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر . ثم الشرور ضربان شر أصلى وهو مانهى الله عنه تحريما كالمعاصى المحضة وشر غير أصلى وهو مانهى عنه تأديبا وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوة فالأولى تقوى فرض يلزم بتركها عذاب النار والثانية تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحبس والحساب والتعيير واللوم فمن أتى بالأولى فهو فى الدرجة الدنيا من التقوى وهى منزلة مستقيمى الطاعة ومن أتى بالأخرى فهو فى الدرجة العليا من التقوى وذلك منزلة مستقيمى ترك المباح فاذا جمع العبد بينهما أعنى اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقها وجمع كل خير فيها وهذا هو الورع الكامل الذى هو ملاك أمر الدين وذلك منزلة الأدب على باب الله تعالى فهذا معنى التقوى وبيانها فى الجملة فافهمه موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) ففصل لنا

النية ولكن الشأن فى صحة النية فان لم تصح النية فهى معدن غرور الجهال ومزلة أقدام الرجال (الحالة الثانية) أن لا تقدر على تحصيل العلم النافع لكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر والقرآن والتسبيحات والصلاة فذلك من درجة العابدين وسير الصالحين وتكون أيضا بذلك من الفائزين (الحالة الثالثة) أن تشتغل بما يصل منه خير للمسلمين ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين أو تيسر به الأعمال الصالحة للصالحين كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين والتردد فى أشغالهم والسعى فى اطعام الفقراء والمساكين والتردد مثلا على المرضى بالعيادة وعلى الجنائز بالتشييع فكل ذلك أفضل من النوافل فان هذه عبادات وفيها رفق للمسلمين (الحالة الرابعة) ان لم تقو على ذلك فاشتغل بحاجاتك اكتسابا على نفسك أو على عيالك وقد سلم المسلمون منك وأمنوا من لسانك ويدك وسلم لك دينك اذ لم ترتكب معصية فتنال به درجة أصحاب اليمين ان لم تكن من أهل الترقى الى مقامات السابقين فهذه أقل

الآن

الآن هذا المعنى فى النفس واستعماله فيها فان الحاجة جاءت هنالك لنعلم كيف نلجم هذه النفس بهذا المعنى الذى فصلت من حقيقة التقوى (فأقول) أجل انما تفصيله فى أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية وتصونها عن كل فضول فاذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى فى عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك وألجمتها بلجام التقوى. ولهذا الباب شرح يطول وقد أشرنا اليه فى كتاب احياء علوم الدين (وأما الذى) لا بد منه ههنا فأن نقول من أراد أن يتقى الله فليراجع الأعضاء الخمسة فانها الأصول (وهى) العين والأذن واللسان والقلب والبطن فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررا فى أمر الدين من معصية وحرام وفضول واسراف من حلال واذا حصل صيانة هذه الأعضاء فرجو أن يكفى سائر أركانه ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى فدعت الحاجة الى بيان خمسة فصول لهذه الأعضاء وتفصيل ما يحرم فى حق كل واحد منها قدر ما يليق بهذا الكتاب

﴿ الفصل الأول فصل العين ﴾

ثم عليك وفقك الله وايانا بحفظ العين فانها سبب كل فتنة وآفة وأذكر فى أمرها ثلاثة أصول كافية (أحدها) ما قاله الله سبحانه ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ واعلم أنى تأملت هذه الآية فاذا فيها مع قصرها ثلاثة معان عزيزة تأديب وتنبيه وتهديد * فأما التأديب فقوله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ولا بد للعبد من امتثال أمر السيد والتأدب بآدابه والا فيكون سيء الأدب فيحجب فلا يؤذن له فى حضور المجلس والمثول بالحضرة فافهم هذه النكتة وتأمل ما تحتها فان فيها ما فيها * وأما التنبيه فقوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ وينطلق على معنين والله أعلم الأول ذلك أطهر لقلوبهم والزكاة الطهارة والتزكية التطهير والثانى ذلك أنمى لخيرهم وأكثر والزكاة فى الأصل النمو فنبه على أن فى غض البصر تطهير القلب وتكثير الطاعة والخير وذلك انك ان لم تغض بصرك وأرخيت عنانه تنظر الى ما لا يعنيك فلا يخلو من أن تقع عينك على حرام فان تعمدت فذنب كبير وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك ان لم يرحم الله تعالى فلقد روى أن العبد لينظر النظرة ينغل فيها قلبه كما ينغل الأديم فى الدباغ فلا ينتفع به أبدا وان كان مباحا فربما يشتغل قلبك به فجاءك الوسواس والخواطر بسببه ولعلك لا تصل اليه فتبقى مشغول القلب منقطعا عن الخير وان كنت لم تر ذلك كنت مستريحا عن ذلك كله ، وفى هذا المعنى ذكر عن عيسى صلوات الله عليه : اياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال ذو النون : نعم حاجب الشهوات غض الأبصار . ولقد أحسن القائل :

وأنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فاذن مهما كنت غاضا للبصر حافظا للعين لا تنظر الى ما لا يعنيك ولا يهمك كنت نقى الصدر فارغ القلب مستريحا عن كثير من الوسواس سالم النفس عن الآفات متزايدا فى الخيرات. فتنبه لهذه النكتة الجامعة والله عز وجل الموفق بمنه وكرمه (وأما التهديد) فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وقال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وكفى بهذا تحذيرا لمن خاف مقام ربه فهذا أصل واحد من كتاب الله عز وجل (الأصل الثانى) ما رويناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إِنَّ النَّظَرَ إِلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ

الدرجات فى مقامات الدين وما بعد هذا فهو من مراتع الشياطين

وذلك بأن تشتغل والعياذ بالله بما يهدم دينك أو تؤذى عبدا من عباد الله فهذه رتبة الهالكين فاياك أن تكون فى هذه الطبقة واعلم أن العبد فى حق دينه على ثلاث درجات اما سالم وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصى أو رابح وهو المتطوع بالقربات والنوافل أو خاسر وهو المقصر عن اللوازم فان لم تقدر أن تكون رابحا فاجتهد أن تكون سالما واياك ثم اياك أن تكون خاسرا والعبد فى حق سائر العباد له ثلاث درجات (الأولى) أن ينزل فى حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة وهو أن يسعى فى أغراضهم رفقا بهم وادخال السرور على قلوبهم (الثانية) أن ينزل فى حقهم منزلة البهائم والجمادات فلا ينالهم خيره ولكن يكف عنهم شره (الثالث) أن ينزل فى حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات لا يرجى خيره ويتقى شره فان لم تقدر ان تلتحق بأفق الملائكة فاحذر ان

مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا أَذَاقَهُ اللهُ تَعَالَى طَعْمَ عِبَادَةٍ تَسُرُّهُ» وان وجدان حلاوة العبادة ولذة المناجاة من العابدين بمكان وهذا شيء مجرب علمه وتحققه من عمل به لأنه اذا امتنع عن النظر الى مالا يعنيه يجد لذة للعبادة وحلاوة للطاعة وللقلب صفوة لم يجدها قبل ذلك (الأصل الثالث) أن تنظر الى كل عضو من أعضائك يصلح لماذا وينتظر له ماذا فعلى حسب ذلك تصونه وتحفظه فالرجل للمشى فى رياض الجنة وقصورها واليد لكأس الشراب وتناول الأثمار وكذا فى سائر الأعضاء فالعين انما هى للنظر الى رب العالمين سبحانه وليس فى الدارين كرامة أجل وأكبر من ذلك فحقيق لشيء ينتظر ويرجى له مثل هذه الكرامة أن يصان ويحفظ ويعزو يكرم فهذه الأصول الثلاثة اذا أحسنت التأمل فيها كفتك المؤنة فى هذا الفصل والله ولى التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل

﴿ الفصل الثانى الاذن ﴾

فعليك بصيانة سمعك عن الخنا والفضول وذلك لأمرين أحدهما لما روى أن المستمع شريك المتكلم وفى ذلك يقول القائل:

تحر من الطرق أوساطها * وعد عن الجانب المشتبه
وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

والثانى أن ذلك يهيج الخواطر والوسواس فى القلب ثم من ذلك يبدو الانشغال فى البدن فما يبقى للعبادة شيء (ثم اعلم) أن الكلام الذى يقع فى قلب الانسان وسمعه بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه فمنه الضار ومنه النافع ومنه الغذاء ومنه السم بل ان بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة بنوم وغيره وربما يبقى أثره زمانا ثم يزول وله دواء يزيل أثره من جسم الانسان وأما الكلام الذى وقع فى قلبه فربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه فان كان رديئا فلا يزال يتعبه ويعييه وترد بسببه خواطر فى القلب ووساوس يحتاج الى أن يعرض عنها ويعدل بقلبه عن تذكرها ويستعيذ بالله من شرها ولا يأمن أن يحمله على بلية ويحركه حتى يقع آخر الأمر فى آفة عظيمة بسبب ذلك ولو كنت حفظت سمعك عما لا يعنيك كنت عن هذه المؤن مستريحا فلينظر العاقل فى ذلك وبالله التوفيق

﴿ الفصل الثالث اللسان ﴾

ثم عليك بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فانه أشد الأعضاء جماحا وطغيانا وأكثرها فسادا وعدوانا ولقد روينا عن سفيان بن عبدالله أنه قال قلت يارسول الله ما أكثر ما تخاف على فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال هذا. وعن يونس بن عبدالله انى وجدت نفسى تحتمل مؤنة الصيام فى الحر الشديد بالبصرة ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها فعليك اذا بالتحفظ جدا وبذل المجهود. ونذكر خمسة أصول (أحدها) ماروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ابن آدم اذا أصبح بكرت الأعضاء كلها الى اللسان وقلن له ننشدك الله أن تستقيم فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (قلت) والمعنى فيه والله أعلم أن نطق اللسان يؤثر فى أعضاء الانسان بالتوفيق والخذلان يؤكد هذا المعنى ماحكى عن مالك بن دينار أنه قال: اذا رأيت قساوة فى قلبك ووهنا فى بدنك وحرمانا فى رزقك فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك (والأصل الثانى)

تنزل عن درجة البهائم والجمادات الى مراتب العقارب والحيات والسباع الضاريات فان رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين فلا ترض لها بالهوى الى أسفل السافلين فلعلك تنجو كفافا لا لك ولا عليك فعليك فى بياض نهارك أن لا تشتغل الا بما ينفعك فى معادك أو معاشك الذى لا تستغنى عنه وعن الاستعانة به على معادك أو معاشك فان عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة الناس وكنت لا تسلم فالعزلة أولى لك فعليك بها ففيها النجاة والسلامة فان كانت الوساوس فى العزلة تجاذبك الى مالا يرضى الله تعالى ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فهو أحسن أحوالك وأحوالنا اذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة فى الهزيمة فما أخس حال من سلامة دينه فى تعطيل حياته اذ النوم أخو الموت وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات ﴿ آداب الاستعداد لسائر الصلوات ﴾ ينبغى أن تستعد قبل الزوال لصلاة الظهر فتقدم القيلولة ان كان لك قيام

الثانى) حفظ وقتك فان أكثر مايتكلم به الانسان من غير ذكر الله تعالى فعلى الأقل يكون لغوا يضيع الوقت به. وذكر أن حسان بن أبى سنان مر على غرفة بنيت فقال منذ كم بنيت هذه ثم أقبل على نفسه وقال يانفسى المغرورة تسألين عما لايعنيك وعاقبها بصوم سنة (قلت) فياطوبى للمهتمين بأنفسهم ويا ويح الغافلين الذين خلعوا العذار وأرخوا العنان والله المستعان ولقد صدق القائل وأحسن حيث يقول :

واغتنم ركعتين فى ظلمة الليـــل اذا كنت خاليا مستريحا
واذا ما هممت باللغو فى البا * طل فاجعل مكانه تسبيحا
ولزوم السكوت خير من النطـــق وان كنت فى الكلام فصيحا

(والأصل الثالث) حفظ الأعمال الصالحة فان من لم يصن لسانه وأكثر الكلام يقع لا محالة فى غيبة الناس كما قيل من كثر لغطه كثر سقطه والغيبة هى الصاعقة المهلكة للطاعات على ماقيل ان مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقا فهو يرمى به حسناته شرقا وغربا يمينا وشمالا . وبلغنا عن الحسن أنه قيل له ياأباسعيد إن فلانا اغتابك فبعث اليه بطبق فيه رطب وقال بلغنى أنك أهديت الى حسناتك فأحببت أن أكافئك وذكرت الغيبة عند ابن المبارك فقال: لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت أمى لأنها أحق بحسناتى . وذكر أنه فات حاتما الأصم ليلة القيام فعيرته زوجته فقال ان أقواما صلوا البارحة فلما أصبحوا نالوا منى فتكون صلاتهم يوم القيامة فى ميزانى. (والأصل الرابع) السلامة من آفات الدنيا على ماقال سفيان: لاتتكلم بلسانك ماتكسر به أسنانك . وقال الآخر: لاتبسطن لسانك فيفسد عليك شانك وأنشدوا :

احفظ لسانك لاتقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

(ولابن المبارك رضى الله عنه)

ألا احفظ لسانك ان اللسان * سريع الى المرء فى قتله
وان اللسان دليل الفـؤاد * يدل الرجال على عقله

(ولابن أبى المطيع رحمه الله)

لسان المرء ليث فى كمين * اذا خلى عليه له أغاره
فصنه عن الخنا بلجام صمت * يكن لك من بليات ستاره

وفى المثل السائر رب كلمة تقول لصاحبها دعنى *نسأل الله التوفيق برحمته (الأصل الخامس) ذكر آفات الآخرة وعواقبها وأذكر فيه نكتة واحدة وهى أنه لايخلو اما أن تقول قولا محظورا حراما أو قولا مباحا من فضول لايعنيك فان كان محظورا حراما ففيه من عذاب الله تعالى الذى لاطاقة لك به فقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى رَأَيْتُ فِى النَّارِ قَوْمًا يَأْكُلُونَ الْجِيفَ فَقُلْتُ يَاجِبْرِيلُ مَنْ هٰؤُلَاءِ؟ قَالَ: هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ» (ولقد قال) ﷺ لمعاذ: «اقْطَعْ لِسَانَكَ عَنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ وَلَا تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلَابُ النَّارِ» وعن أبى قلابة أنه قال: ان فى الغيبة خراب القلب من الهدى. فنسأل الله تعالى العصمة من ذلك بفضله. هذا فى الكلام المحظور وأما المباح ففيه أربعة أمور (أحدها) شغل الكرام الكاتبين بما لاخير فيه ولا فائدة وحق للمرء أن يستحيى منهما فلا يؤذيهما (قال الله تعالى) ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ والثانى ارسال كتاب الى الله سبحانه وتعالى

من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار واجتهد أن تستيقظ قبل الزوال وتتوضأ وتحضر المسجد وتصلى تحية المسجد وتنتظر المؤذن فتجيبه ثم تقوم فتصلى أربع ركعات عقيب الزوال كان رسول الله ﷺ يطولهن ويقول « هٰذَا وَقْتٌ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ لِى فِيهِ عَمَلٌ صَالِحٌ » وهذه الأربع قبل الظهر سنة مؤكدة ففى الخبر « أن من صلاهن فأحسن رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له الى الليل » ثم تصلى الفرض مع الامام ثم تصلى بعد الفرض ركعتين فهما من الرواتب الثابتة ولا تشتغل الى العصر الا بتعلم علم أو اعانة مسلم أو قراءة قرآن أو سعى فى معاش تستعين به على دينك* ثم تصلى أربع ركعات قبل العصر وهى سنة مؤكدة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ أُمْرَأً صَلَّى أَرْبَعًا

اللغو والهذر فليحذر العبد من ذلك وليخش الله عزوجل. وذكر أن بعضهم نظر الى رجل يتكلم بالخنا فقال: ياهذا ويحك انما تملى كتابا الى ربك . فانظر ماذا تملى (والثالث) قراءته بين يدى الملك الجبار يوم القيامة على رءوس الاشهاد بين الشدائد والأهوال عطشان عريان جيعان منقطعا عن الجنة محبوسا عن النعمة (والرابع) اللوم والتعيير بماذا قلت وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة فقد قيل اياك والفضول فان حسابه يطول وكفى بهذه الأصول واعظا لمن اتعظ. وقد بسطنا فى كتاب أسرار معاملات الدين مافيه مقنع فانظر مافيه تجد الشفاء .

﴿الفصل الرابع القلب﴾ ثم عليك بحفظه واصلاحه وحسن النظر فى ذلك وبذل المجهود فانه أعظم هذه الأعضاء خطرا وأكثرها أثرا وأدقها أمرا وأشقها اصلاحا وأصعبها حالا وأذكر فيه خمسة أصول مقنعة (الأصل الأول) قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كم ذكره وكرر ذكره فى القرآن فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيرا وتهديدا للخواص من العباد لأن المعاملة مع علام الغيوب خطر خطير فانظر ماذا يعلم من قلبك (الأصل الثانى) قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» فالقلب اذاً موضع نظر رب العالمين فياعجبا ممن يهتم بوجهه الذى هو موضع نظر الخلق فيغسله وينظفه من الأقذار والأدناس ويزينه بما أمكنه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب ولا يهتم بقلبه الذى هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه ويطيبه كيلا يطلع الرب جل جلاله على دنس فيه وشين وآفة وعيب بل يهمله بفضائح وأقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرأوا منه وطردوه والله المستعان (الأصل الثالث) ان القلب ملك مطاع ورئيس متبع فالأعضاء كلها له تبع فاذا صلح المتبوع صلح التبع واذا استقام الملك استقامت الرعية ويبين لك ذلك ماروى عن النبى ﷺ أنه قال «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» واذا كان صلاح الكل فى ذلك وجب صرف العناية اليه (الأصل الرابع) ان القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها معرفة الله تعالى التى هى سبب سعادة الدارين ثم البصائر التى بها التقدم والوجاهة عند الله عزوجل ثم النية الخالصة فى الطاعات التى يتعلق بها ثواب الأبد ثم أنواع العلوم والحكم التى هى شرف العبد وسائر الأخلاق الشريفة والخصال الحميدة التى يحصل بها تفاضل الرجال على مافصلنا وشرحنا فى كتاب أسرار معاملات الدين وحق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ وتصان عن الأدناس والآفات وتحرس وتحرز من السراق والقطاع وتكرم وتجل بضروب الكرامات لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس ولا يظفر بها والعياذ بالله عدو (الأصل الخامس) انى تأملت حاله فوجدت له خمسة أحوال ليست لغيره من أعضاء ابن آدم أحدها أن العدو قاصد اليه مقبل عليه ملازم له فان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فهو منزل الالهام والوسوسة يقرعانه بالدعوتين أبدا الملك والشيطان. والثانى أن الشغل له أكثر فان العقل والهوى كلاهما فيه فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده والعقل وجنوده فهو أبدا بين محاربتهما وتقاتلهما وتناضلهما وحق بالثغر أن يحرس ويحصن ولا يغفل عنه. والثالث أن العوارض له أكثر فان الخواطر كالسهام لاتزال تقع فيه وكالمطر لا تزال تمطر عليه ليلا ونهارا لا تنقطع ولا أنت تقدر على منعها فتمتنع وليس بمنزلة العين التى بين الجفنين تغمض فتستريح أو

قَبْلَ الْعَصْرِ » فاجتهد أن ينالك دعاؤه صلى الله عليه وسلم ولا تشتغل بعد العصر الا بمثل ماسبق قبله ولا ينبغى أن تكون أوقاتك مهملة فتشتغل فى كل وقت بما اتفق كيف اتفق بل ينبغى أن تحاسب نفسك وترتب أورادك ووظائفك فى ليلك ونهارك وتعين لكل وقت شغلا لا تتعداه ولا تؤثر فيه سواه فبذلك تظهر بركة الأوقات. فأما اذا تركت نفسك سدى مهملا اهمال البهائم لا تدرى بماذا تشتغل فى كل وقت فينقضى أكثر أوقاتك ضائعا وفاتك عمرك وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك الى نعيم دار الأبد فى جوار الله تعالى فكل نفس من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها اذ لا بدل له فاذا فات فلا عود. فلا تكن كالحمقى المغرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم فأى خير فى مال يزيد وعمر ينقص ولا تفرح الا بزيادة علم أو عمل صالح فانهما رفيقاك يصحبانك فى القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك تكون

تكون فى موضع خال أوليل مظلم فتكفى رؤيتها أوكاللسان الذى هو من وراء الحاجبين الأسنان والشفتين وأنت القادر على منعه وتسكينه بل القلب غرض للخواطر لاتقدر على منعها والتحفظ عنها بحال وهى لاتنقطع عنك بوقت ثم النفس مسارعة الى اتباعها والامتناع عن ذلك فى مجهود الطاقة أمر شديد ومحنة عظيمة والرابع أن علاجه عسير اذ هو غيب عنك فلا تكاد تشعر حتى تدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج الى أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة. والخامس أن الآفات اليه أسرع فهو الى الانقلاب أقرب فلقد قيل ان القلب أسرع انقلابا من القدر فى غليانها ولذلك قيل:

ما سمى القلب الا من تقلبه * والرأى يضرب بالانسان أطوارا

ثم ان زل القلب والعياذ بالله فزلته أعظم ووقوعه أصعب وأفظع اذ أدناه قسوة وميل الى غير الله سبحانه وتعالى ومنتهاه ختم بكفر والعياذ بالله تعالى أما تسمع قوله تعالى ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فكان الكبر بقلبه فحمله على الاباء والكفر بظاهره أما تسمع قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فكان الميل واتباع الهوى بقلبه فحمله على ذلك الذنب المشؤم بنفسه أما تسمع قوله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولهذا المعنى أيها الرجل خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم اليها قال الله سبحانه فى وصفهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ جعلنا الله واياكم من المعتبرين بالعبر المهتدين بمواضع الخطر الموفقين لاصلاح قلوبهم بحسن النظر انه أرحم الراحمين (فان قيل) ان أمر هذا القلب لمهم جدا فأخبرنا عن المعانى التى تصلحه وعن الآفات التى تعترضه فتفسده عسى أن نوفق للاجتهاد فى العمل بذلك (يقال له) اعلم ان تفصيل هذه المعانى لطويل لايحتمله هذا الكتاب وانما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك وتصنيفه فى هذه النكتة لاغير. وقد ذكروا فيما يحتاج اليه من ذلك نحوا من تسعين خصلة محمودة وأضدادها المذمومة ثم من الأفعال والمساعى الواجبة والمحظورة نحو ذلك فى سائر تفاصيلها. ولعمرى ان من أهمه أمر دينه وانتبه من رقدة الغافلين ونظر لنفسه فلا يكون تحصيل جميع ذلك والعمل به عليه كثيرا اذا وفقه الله تعالى. وقد ذكرنا نبذة منها فى شرح عجائب القلب من كتاب احياء علوم الدين وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها وكيفية علاجها فى كتاب أسرار معاملات الدين وهو كتاب مستقل بنفسه عظيم الفائدة ولا ينتفع به الا فحول العلماء الراسخون فى العلم. وموضع هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدى والمنتهى والقوى والضعيف. فنظرنا فى الأصول التى لابد من ذكرها فى علاج القلب والحاجة اليها ماسة ولاغنية عنها البتة فى شأن العباد فوجدناها أربعة أمور هى مداحض العابدين وآفات المجتهدين وهى فتن القلوب وبليات النفوس تعوق وتشين وتفسد وتتلف. وأربعة فى مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة وصلاح القلوب. فالآفات الأربع: الأمل والاستعجال والحسد والكبر. والمناقب الأربع: قصر الأمل والتأنى فى الأمور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع فهذه هى الأصول فى صلاح القلب وفساده والنكتة التى عليها الدار. فلتبذل المجهود فى التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب تكف المؤن وتظفر بالمقصود ان شاء الله تعالى وسأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة مقنعة (أما طول الأمل) فانه العائق عن كل خير وطاعة والجالب لكل شر وفتنة وانه الداء العضال الذى يوقع الخلق فى أنواع البليات فاعلم أنك اذا طال أملك هاج لك منه أربعة

ثم اذا اصفرت الشمس فاجتهد أن تعود الى المسجد قبل الغروب وتشتغل بالتسبيح والاستغفار فان فضل هذا الوقت كفضل ماقبل الطلوع قال الله تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ واقرأ قبل غروب الشمس ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ والمعوذتين ولتغرب عليك الشمس وأنت فى الاستغفار فاذا سمعت الأذان فأجب وقل بعده اللهم انى أسألك عند اقبال ليلك وادبار نهارك وحضور صلاتك وأصوات دعاتك أن تؤتى محمدا الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته انك لاتخلف الميعاد والدعاء كما سبق *ثم صل الفرض بعد جواب المؤذن والاقامة وصل بعده ركعتين قبل أن تتكلم فهما راتبة المغرب وان صليت بعدهما أربعا فهى أيضا سنة * وان أمكنك أن تنوى الاعتكاف الى العشاء وتحيى مابين العشاءين بصلاة فقد ورد فى فضل ذلك مالا يحصى وهى ناشئة الليل لأنها

أشياء: أحدها ترك الطاعة والكسل فيها تقول سوف أفعل والأيام بين يدى ولا يفوتنى ذلك، ولقد صدق داود الطائى رحمه الله حيث قال : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله. وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله: الأمل قاطع عن كل خير، والطمع مانع من كل حق، والصبر صائر الى كل ظفر والنفس داعية الى كل شر. والثانى ترك التوبة وتسويفها تقول سوف أتوب، وفى الأيام سعة، وأنا شاب وسنى قليل والتوبة بين يدى ، وأنا قادر عليها متى رمتها وربما اغتاله الحمام فى الاصرار فاختطفه الأجل قبل اصلاح العمل. والثالث الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة. تقول أخاف الفقر فى الكبر وربما أضعف عن الاكتساب ولا بدلى من شىء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر . هذا ونحوه مما يحركك الى الرغبة فى الدنيا والحرص عليها. والاهتمام للرزق تقول ايش آكل وايش أشرب وايش البس وهذا الشتاء وهذا الصيف ومالى شىء ولعل العمر يطول فأحتاج والحاجة مع الشيب شديدة ولا بدلى من قوت وغنية عن الناس هذه وأمثالها تحركك الى طلب الدنيا والرغبة فيها والجمع لها والمنع لما عندك منها وأقل ما فى الباب أن يشغل قلبك ويضيع عليك عمرك أو وقتك ويكثر همك وغمك بلا فائدة ولا طائل على ما روى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال: قتلنى هم يوم لم أدركه قيل وكيف ذلك يا أباذر قال ان أملى جاوز أجلى. والرابع: القسوة بالقلب ، والنسيان للآخرة لأنك اذا أملت العيش الطويل لا تذكر الموت والقبر كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : ان أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل واتباع الهوى ألا وان طول الأمل ينسى الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق. فاذن يصير فكرك ومعظم أمرك فى حديث الدنيا وأسباب العيش وفى صحبة الخلق ونحوها فيقسو القلب من ذلك وانما رقة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة واذا لم يكن شىء من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة قال الله تعالى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فاذن أنت اذا طولت أملك قلت طاعتك وتأخرت توبتك وكثرت معصيتك واشتد حرصك وقسا قلبك وعظمت غفلتك عن العاقبة فذهب ــ والعياذ بالله ان لم يرحم الله تعالى ــ آخرتك فأى حال أسوأ من هذه وأى آفة أعظم من هذه وكل هذا بسبب طول الأمل. وأما ان قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت حال أقرانك واخوانك الذين عافصهم الموت فى وقت لم يحتسبوه ولعل حالك مثل حالهم. فاحذرى يانفسى الغرور واذكرى ما قال عوف بن عبد الله رحمه الله كم من مستقبل يوما لم يستكمله ومنتظر غدا لم يدركه لو رأيت الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره أما سمعت قول عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا ثلاثة أيام : أمس مضى ما بيدك منه شى، وغد لا تدرى أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه. ثم قول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه: الدنيا ثلاث ساعات: ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدرى أتدركها أم لا. فلست تملك بالحقيقة الا ساعة واحدة اذ الموت من ساعة الى ساعة. ثم قول شيخنا رحمه الله: الدنيا ثلاثة أنفاس: نفس مضى عملت فيه ما عملت، ونفس أنت فيه، ونفس لا تدرى أتدركه أم لا. اذ كم من متنفس نفسا ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فلست تملك الا نفسا واحدا بالحقيقة لا يوما ولا ساعة، فبادر فى هذا النفس الواحد الى الطاعة قبل أن يفوت والى التوبة فلعلك فى النفس الثانى تموت ولا تهتم بالرزق فلعلك لا تعيش فتحتاج اليه فيكون وقتك ضائعا والهم فاضلا وما عسى أن يهتم الانسان بالرزق ليوم واحد أو ساعة واحدة أو نفس واحد أما تذكر ما قال النبى ﷺ لأسامة « أَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِى بِصَبْرِ شَهْرٍ إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ وَاللهِ

أول نشأته وهى صلاة الأوابين وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » فقال « هِىَ الصَّلَاةُ مَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ إِنَّهَا تُذْهِبُ بِمَلْغِيَاتِ أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ » والملغيات جمع ملغاة وهى من اللغو * فاذا دخل وقت العشاء فصل أربع ركعات قبل الفرض احياء لما بين الأذانين ففضل ذلك كثير * وفى الخبر « ان الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد » ثم صل الفرض وصل الراتبة ركعتين واقرأ فيهما سورة الم السجدة وتبارك الملك أو سورة يس والدخان فذلك مأثور عن رسول الله ﷺ وصل بعده أربع ركعات ففى الخبر ما يدل على عظيم فضلها ثم صل الوتر بعدها ثلاثا بتسليمتين أو بتسليمة واحدة وكان رسول الله ﷺ يقرأ فيها سورة سبح اسم ربك الأعلى وقل يأيها الكافرون والاخلاص والمعوذتين فان كنت عازما على قيام الليل فأخر الوتر ليكون آخر صلاتك بالليل وترا ثم اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم او مطالعة

ماوضعت قدما فظننت أنى أرفعها ولا لقمة فظننت أنى أسيغها حتى يدركنى الموت والذى نفسى بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » فاذا أنت أيها الرجل تذكرت هذه الأذكار وواظبت على ذلك بالاعادة والتكرار قصر أملك باذن الله تعالى فحينئذ ترى نفسك تبادر الى الطاعات وتعجل توبتك فتسقط عنك معصيتك وتزهد فى الدنيا وطلبها فيخف حسابك وتبعتك ويقع قلبك فى تذكر الآخرة وأهوالها وما هو الامن نفس الى نفس تصير اليها وتعاينها واحدا فواحدا فتزول عنك القسوة وتبدو لك الرقة والصفوة وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية فيستقيم لك أمر عبادتك ويقوى الرجاء فى أن تستعد فى عافيتك وتظفر بالمراد فى عاقبتك وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بسبب هذه الخصلة التى هى قصر الأمل. ولقد حكى ان زرارة بن أوفى رحمه الله قيل له فى النوم بعد موته أى الأعمال أبلغ فيما عندكم قال الرضا وقصر الأمل فانظر لنفسك أيها الأخ وابذل المجهود فى هذا الأصل الكبير فانه الأهم والأعظم فى صلاح القلب والنفس والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته (وأما الحسد) فانه المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات وانه الداء العضال الذى يبتلى به الكثير من القراء والعلماء فضلا عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار (أما تسمع) قول رسول الله ﷺ «ستة يدخلون النار بستة: العرب بالعصبية والأمراء بالجور والدهاقين بالكبر والتجار بالخيانة وأهل الرساتيق بالجهل والعلماء بالحسد» وان بلية بلغ شؤمها أن أوردت العلماء النار لحقيق أن يحذر منها. واعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء: أحدها فساد الطاعات قال رسول الله ﷺ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» والثانى فعل المعاصى والشرور على ماقال وهب بن منبه رحمه الله: للحاسد ثلاث علامات يتملق اذا شهد ويغتاب اذا غاب ويشمت بالمصيبة اذا نزلت (قلت) وحسبك أن الله تعالى امرنا بالاستعاذة من شر الحاسد فقال سبحانه ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ كما أمرنا بالاستعاذة من شر الشيطان والساحر. فانظر كم له من الشر والفتنة حتى أنزله منزلة الشيطان والساحر حتى ان لا مستعان عليه ولا مستعاذ الا بالله رب العالمين. والثالث التعب والهم من غير فائدة بل مع ذلك وزر ومعصية كما قال ابن السماك رحمه الله: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد نفس دائم وعقل هائم وغم لازم. والرابع عمى القلب حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله عز وجل. فلقد قال سفيان الثورى رحمه الله: عليك بطول الصمت تملك الورع ولا تكن حريصا على الدنيا تكن حافظا ولا تكن طعانا تنج من ألسن الناس ولا تكن حاسدا تكن سريع الفهم. والخامس الحرمان والخذلان ولا يكاد يظفر بمراد وينصر على عدو، وكما قال حاتم الأصم رحمه الله: الضغين غير ذى دين والعائب غير عابد والنمام غير مأمون والحسود غير منصور (قلت) الحسود كيف يظفر بمراده ومراده زوال نعم الله تعالى عن عباده المسلمين وكيف ينصر على أعدائه وهم عباد الله المؤمنون. ولقد أحسن ابو يعقوب رحمه الله فيما قال اللهم صبرنا على تمام النعم على عبادك وحسن أحوالهم وانه داء يفسد عليك الطاعة ويكثر شرك ومعصيتك ويمنعك راحة النفس وفهم القلب والنصرة على الأعداء والظفر بالمطلوب فأى داء يكون أدوأ منه فعليك بمعالجة نفسك من ذلك والله تعالى ولى التوفيق بمنه وكرمه ﴿وأما الاستعجال والترقى فى البر﴾ فانه الخصلة المفوتة للمقاصد الموقعة فى المعاصى فان منها تبدو آفات أربع: احداها أن يقصد العابد منزلة فى الخير والاستقامة ويجتهد فربما يستعجل فى نيلها وليس ذلك يوم وقتها فاما أن يفتر وييأس فيترك الاجتهاد فيحرم تلك المنزلة واما ان يغلو

كتاب ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة اعمالك قبل نومك فان الأعمال بخواتيمها

﴿ آداب النوم ﴾

فاذا اردت النوم فابسط فراشك مستقبل القبلة ونم على يمينك كما يضجع الميت فى لحده واعلم أن النوم مثل الموت واليقظة مثل البعث ولعل الله تعالى يقبض روحك فى ليلتك فكن مستعدا للقائه بأن تنام على طهارة وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك وتنام تائبا من الذنوب مستغفرا عازما على أن لا تعود الى معصية واعزم على الخير لجميع المسلمين ان بعثك الله تعالى وتذكر أنك ستضجع فى اللحد كذلك وحيدا فريدا ليس معك الا عملك ولا تجزى الا بسعيك ولا تستجلب النوم تكلفا بتمهيد الفرش الوطيئة فان النوم تعطيل الحياة الا اذا كانت يقظتك وبالا عليك فنومك سلامة لدينك *واعلم ان الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فلا يكون نومك بالليل والنهار أكثر من ثمان ساعات فيكفيك ان عشت مثلا ستين سنة أن تضيع منها عشرين

فى الجهد واتعاب النفس فينقطع عن تلك المنزلة فهو بين افراط وتفريط وكلاهما نتيجة الاستعجال (ولقد) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إِنَّ دِينَنَا هَذَا مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى» وفى المثل السائر :ان لم تستعجل تصل. ولقائل :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية أن يكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى فيها ويكثر الدعاء ويجد فى عما يستعجل الاجابة قبل وقتها فلا يجدها فيفتر ويسأم فيترك الدعاء فيحرم حاجته ومقصوده. والثالثة أن يظلمه انسان فيغيظه فيعجل بالدعاء عليه فيهلك مسلم بسببه وربما يتجاوز عن الحد فيقع فى معصية وهلاك قال الله تعالى ﴿وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ والرابعة أن أصل العبادة وملاكها الورع والورع أصله النظر البالغ فى كل شىء والبحث التام عن كل شىء هو بصدده من أكل وشرب وكلام وفعل فاذا كان الرجل مستعجلا فى الأمور غير متأن ولا متثبت متين لم يقع منه توقف ونظر فى الأمور كما يجب ويتسارع الى كل كلام فيقع فى الزلل والى كل طعام فيقع فى الحرام والشبهة وكذلك فى كل أمر فيفوته الورع وأى خير فى عبادة بلا ورع. واذا كان فى خصلة الانقطاع عن منازل الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه ثم خطر فوت الورع الذى هو رأس المال فحق للانسان أن يهتم لها بالازالة واصلاح النفس بعدها والله ولى التوفيق بمنه وفضله (وأما الكبر) فانه الخصلة المهلكة رأسا أما تسمع قوله تعالى ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وليست هذه الخصلة بمنزلة سائر الخصال التى تقدح فى عمل وتضر بفرع وانما تضر بالأصل وتقدح فى الدين والاعتقاد واذا قويت وغلبت لا تتدارك والعياذ بالله ثم أقل ما يهيج منها على صاحبها أربع آفات احداها حرمان الحق وعمى القلب عن معرفة آيات الله تعالى وفهم أحكام الله تعالى قال الله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ والثانية المقت والبغض من الله تعالى قال الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (وروى) أن موسى عليه السلام قال يارب من أبغض خلقك اليك قال من تكبر قلبه وغلظ لسانه وصفق عينه وبخلت يده وساء خلقه . والثالثة الخزى والنكال فى الدنيا والآخرة قال حاتم رحمه الله: اجتنب أن يدركك الموت على ثلاثة على الكبر والحرص والخيلاء فان المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخدامه، والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه الى كسرة أو شربة ولا يجد مساغا والمختال لا يخرجه الله من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره (وقيل) من تكبر بغير حق أورثه الله تعالى ذلا بحق والرابعة النار والعذاب فى العقبى على ما روى أن الله تعالى يقول «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ نَارَ جَهَنَّمَ» والمعنى أن العظمة والكبرياء من الصفات التى تختص بى فلا تنبغى لأحد غيرى كما أن رداء الانسان وازاره يختص به لا يشاركه فيه، وان خصلة تفوتك معرفة الحق وفهم معانى آيات الله تعالى وأحكامه الذى هو أصل الأمر كله ثم تثمر لك المقت من الله سبحانه وتعالى والخزى فى الدنيا والنار فى الآخرة لا ينبغى لعاقل أن يغفل عن نفسه فلا يصلحها بازالتها بالحذر والتحرز والاستعاذة بالله من ذلك وهو جل وعز ولى العصمة والتوفيق بمنه . فهذا بعض ما حضرنا فى هذه الخصال الأربع من الآفات، وحسب العاقل واحدة منها فضلا عن الكل اذا أهمه أمر قلبه وحامى عن أمر دينه والله الموفق

وعلى القيام قبل الصبح وركعتان فى جوف الليل كنز من كنوز البر فاستكثر من كنوزك ليوم فقرك فلن تغنى عنك كنوز الدنيا اذا مت * وقل عند نومك باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه فاغفر لى ذنبى اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك اللهم باسمك أحيا وأموت أعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخرة فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك محياها ومماتها ان أمتها فاغفر لها وان أحييتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم انى أسألك العفو والعافية اللهم أيقظنى فى أحب الساعات اليك واستعملنى بأحب الأعمال اليك حتى تقربنى اليك زلفى

الموفق (فان قلت) فاذا كان الأمر بهذه المنزلة من آفات هذه الخصال ولزوم التحفظ منها فلا بد من معرفة حقيقتها وحدها فبين ذلك لنعرف الطريق الى التحفظ عنها (فاعلم) أن فى كل واحدة منها كلاما كثيرا وقد أشبعنا القول فيه فى كتاب الاحياء والاسرار ونحن نذكر هاهنا ما لا بد من ذكره ولا يقع الغنى عنه فنقول وبالله التوفيق (أما الأمل) فقال أكثر علمائنا رحمهم الله انه ارادة الحياة للوقت المتراخى بالحكم، وقصر الأمل ترك الحكم فيه بأن تقيده بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه فى الذكر أو بشرط الصلاح فى الارادة فاذاً ان ذكرت حياتك بأنى أعيش بعد نفس ثان أو ساعة ثانية أو يوم ثان بالحكم والقطع فأنت آمل وذلك منك معصية اذ هو حكم على الغيب فان قيدته بالمشيئة والعلم من الله فقلت أعيش ان شاء الله أو ان علم الله أن أعيش فقد خرجت عن حكم الأمل ووصفت بترك الأمل وكذلك ان أردت حياتك للوقت الثانى قطعا فأنت آمل وان قيدت ارادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الأمل ووصفت بقصر الأمل من حيث تركت الحكم فيه فعليك بترك الحكم فى ذكر البقاء وارادته والمراد بالذكر ذكر القلب ثم المراد منه التوطين على ذلك والتثبيت للقلب عليه فافهم ذلك راشدا ان شاء الله عز وجل * ثم الأمل ضربان أمل العامة وأمل الخاصة فأمل العامة أن تريد الحياة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها وهذه معصية محضة وضدها قصر الأمل قال الله تعالى ﴿فَذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وأما الخاصة أن تريد البقاء لاتمام عمل خير فيه خطر وهو ما لا يستيقن الصلاح له فيه فانه ربما يكون خير معين لا يكون للعبد فيه أو فى تمامه صلاح بأن يقع بسببه فى عجب وآفة لا يقوم بها هذا الخير فاذاً ليس للعبد اذا ابتدأ فى صلاة أو صوم أو غيره أن يحكم بأنه يتمه اذ هو غيب ولا أن يقصد ذلك قطعا لأنه ربما لا يكون له فيه صلاح بل يقيد ذلك بالاستثناء أو بشرط الصلاح ليخلص من عيب الأمل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وضد هذا الأمل فيما قال العلماء النية المحمودة وانما قالوا ذلك على ضرب من الاتساع لان الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعا من الأمل فهذا حكم الأمل والنية المحمودة اذ قد مست الحاجة اليها والى معرفتها مع أنها الأصل الأصيل قالوا رحمهم الله فى حدها الجامع التام ان النية الصحيحة المحمودة ارادة أخذ عمل مبتدأ به قبل سائر الأعمال بالحكم مع ارادة اتمامه بالتفويض والاستثناء (فان قيل) فلم جاز الحكم فى الابتداء ووجب التفويض والاستثناء فى الاتمام (يقال له) لفقد الخطر فى الابتداء اذ هو فى حال الابتداء ليس بشىء متراخ عنك ولثبوت الخطر فى الاتمام اذ هو يقع فى وقت متراخ ففيه الخطران: خطر الوصول لا تدرى هل تصل الى ذلك أم لا وخطر الفساد لا تدرى هل فى ذلك صلاح أم لا فاذاً أوجب الاستثناء لخطر الوصول والتفويض لخطر الفساد فاذا حصلت الارادة على هذه الشروط تكون حينئذ نية محمودة مخرجة عن حد الأمل وآفته فتأمل جدا فهذه هذه (واعلم) أن حصن قصر الأمل ذكر الموت وحصن حصنه ذكر فجأة الموت وأخذه على غرة وغفلة وهو فى غرور وفتور فاحتفظ بهذه الجملة وحصلها موفقا فان الحاجة ماسة اليها ودع عنك تضييع الوقت فى القيل والقال وملاحاة الرجال والله الموفق بفضله (وأما الحسد) فهو ارادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فان لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة وعلى هذا يحمل قوله عليه السلام: لا حسد الا فى اثنتين الخير أى لا غبطة الا فى ذلك فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعا فى ذلك لمقاربتهما فان لم يكن له فيها

وتبعدنى عن سخطك بعدا أسألك فتعطينى وأستغفر فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى، ثم اقرأ آية الكرسى وآمن الرسول الى آخر السورة والاخلاص والمعوذتين وسورة تبارك الملك وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله وعلى الطهارة فمن فعل ذلك عرج بروحه الى العرش وكتب مصليا الى أن يستيقظ * فاذا استيقظت فارجع الى ما عرفتك أولا وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك فان شقت عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظاراً للشفاء وتفكر فى قصر عمرك وان عشت مثلا مائة سنة فهى قليلة بالاضافة الى مقامك فى الدار الآخرة وهى أبد الآباد وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل فى طلب الدنيا شهراً أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلا فكيف لا تتحمل ذلك أياما قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد. ولا تطول أملك فيثقل عليك عملك وقدر قرب الموت وقل فى نفسك انى أحتمل المشقة اليوم فلعلى أموت الليلة، وأصبر الليلة فلعلى أموت غدا فان الموت لا يهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص فلا بد من

صلاح فأردت زوالها عنه فذلك غيرة فهذا هو الفرق بين هذه الخصال (وأما ضد الحسد) فالنصيحة وهى ارادة بقاء نعم الله تعالى على أخيك المسلم مماله فيها صلاح (فان قيل) كيف نعلم أن له فيها صلاحا أو فسادا لننصحه أو نحسده (فاعلم) أنه قد يكون لنا غالب الظن بذلك وغلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى هذه المواضع ثم ان اشتبه عليك فلا تريدن زوال نعمة أحد من المسلمين أو بقاءها الا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك فائدة النصيحة (وأما) حسن النصيحة المانع من الحسد فهو ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين، وحصن هذا الحصن ذكر ما عظم الله تعالى من حق المؤمن ورفع من قدره وماله عند الله من الكرامات العظيمة فى العقبى ومالك فيه من الفوائد الجليلة فى الدنيا من التعاون والتظاهر والجماعات والجمعات ثم ما ترجو من شفاعته فى الآخرة فهذه ونحوها مما يبعث على النصح لكل مسلم ويجنبك من أن تحسده فى نعمة أعطاه الله تعالى اياها والله سبحانه ولى التوفيق بفضله (وأما العجلة) فانها المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاقدام على الأمر بأول خاطر دون التوقف فيه والاستطلاع منه بل الاستعجال فى اتباعه والعمل به، وضدها الاناة وهو المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاحتياط فى الأمور والنظر فيها والتأنى فى اتباعها والعمل بها (وأما التوقف) فضده التعسف قال شيخنا رحمه الله: الفرق بين التوقف والتأنى أن التوقف قبل الدخول فى الأمر حتى يستبين له رشده والتأنى بعد الدخول فيه حتى يؤدى لكل جزء منه حقه ثم مقدمات الاناة ذكر وجوه الخطر فى الأمور التى تعترض للانسان وضروب الآفات المخوفة فيها وذكر ما فى النظر والتثبت من السلامة وما فى التعسف والاستعجال من الندامة والملامة. وهذه وأمثالها مما يبعث على التأنى والتوقف فى الأمور ويمنع من الاستعجال والتعسف والله تعالى ولى العصمة برحمته (وأما الكبر) فاعلم أنه خاطر فى رفع النفس واستعظامها والتكبر اتباعه. والضعة خاطر فى وضع النفس واحتقارها والتواضع اتباعه وكل واحد منهما عامى وخاصى فالتواضع العامى هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمسكن والمركب والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك. والتواضع الخاصى هو تمرين النفس على قبول الحق ممن كان وضيعا أو شريفا والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة. ثم حصن التواضع العامى أن نذكر مبدأك ومنتهاك وما أنت عليه فى الحال من ضروب الآفات والأقذار كما قال بعضهم: أولك نطفة مذرة. وآخرك جيفة قذرة. وأنت فيما بينهما حامل العذرة. وحصن التواضع الخاصى هو ذكر عقوبة العادل عن الحق المتمادى فى الباطل. فهذه جملة كافية لمن استبصر والله الموفق وولى التوفيق

﴿ الفصل الخامس فى البطن وحفظه ﴾

ثم عليك يا طالب العبادة بحفظ البطن واصلاحه فانه أشق الأعضاء اصلاحا على المجتهد وأكثرها مؤنة وشغلا وأعظمها ضررا وأثرا لأنه المنبع والمعدن ومنه تهيج الأمور فى الأعضاء من قوة وضعف وعفة وجماح ونحوه فعليك اذا بصيانته عن الحرام والشبهة أولا ثم عن فضول الحلال ثانيا ان كانت لك همة فى عبادة الله تعالى فأما الحرام والشبهة فانما يلزمك التجنب لثلاثة أمور: أولها حذرا من نار جهنم. قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وقال النبى ﷺ « كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » والثانى أن آكل الحرام والشبهة مطرود لا يوفق للعبادة اذ لا

هجومه فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا وأنت تعلم أنك لاتبقى فيها الامدة يسيرة ولعله لم يبق من أجلك الايوم واحد أو نفس واحد. فقدر هذا فى قلبك كل يوم وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما يوما فانك لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعصت عليك فان فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحا لا آخر له وان سوفت وتساهلت جاء الموت فى وقت لا تحتسبه وتحسرت تحسرا لا آخر له. وعند الصباح يحمد القوم السرى وعند الموت يأتيك خبر العقبى ولتعلمن نبأه بعد حين. واذ أرشدنا الى ترتيب الاوراد فلنذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما وآداب القدوة والجماعة والجمعة

﴿ آداب الصلاة ﴾

فاذا فرغت من طهارة الخبث وطهارة الحدث فى البدن والثياب والمكان ومن ستر العورة من السرة الى الركبة فاستقبل القبلة قائما مفرجا بين قدميك بحيث لا تضمهما واستو قائما ثم اقرأ قل أعوذ برب الناس

يصلح

يصلح لخدمة الله تعالى الا كل طاهر مطهر (قلت أنا) أليس الله تعالى قد منع الجنب عن الدخول فى بيته والمحدث عن مس كتابه قال عز من قائل «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» وقال الله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ مع أن الجنابة والحدث أمر مباح فكيف بمن هو منغمس فى قذر الحرام ونجاسة السحت والشبهة ومتى يدعى الى خدمة الله العزيز وذكره الشريف سبحانه كلا فلا يكون ذلك أبدا. وقال معاذ الرازى رحمه الله: الطاعة مخزونة فى خزائن الله تعالى ومفتاحها الدعاء وأسنانه الحلال فاذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب واذا لم ينفتح باب الخزانة كيف يصل الى ما فيها من الطاعة. والثالث أن آكل الحرام والشبهة محروم من فعل الخير فاذا اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه فاذاً لا يكون له من ذلك الا العناء والكدر وشغل الوقت قال ﷺ «كَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ الا السَّهَرُ وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ الا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ» وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام فهذه هذه

(وأما) فضول الحلال فانه آفة العباد وبلية أهل الاجتهاد فانى تأملت فوجدت فيه عشر آفات هن أصول فى هذا الشأن: الاولى أن فى كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره (روى) عن النبى ﷺ أنه قال «لا تميتوا القلبَ بكثرةِ الطعامِ والشرابِ فان القلب يموت كالزرع اذا كثر عليه الماء» ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلى والبخار يرتفع اليه فكثرة البخار تكدره وتسخنه. الثانية أن فى كثرة الأكل فتنة الأعضاء وهيجها وانبعاثها للفضول والفساد فان الرجل اذا كان شبعان بطر واشتهت عينه النظر الى مالا يعنيه من حرام أو فضول والاذن الاستماع اليه واللسان التكلم والفرج الشهوة والرجل المشى اليه. وان كان جائعا تكون الأعضاء كلها ساكنة هادئة لا تطمح الى شىء من هذا ولا تنشط له ولقد قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله ان البطن عضو ان جاع هو شبع سائر الأعضاء يعنى تسكن فلا تطالبك بشىء وان شبع هو جاع سائر الأعضاء. وجملة الامر ان أفعال الرجل وأقواله على حسب طعامه وشرابه ان دخل الحرام خرج الحرام وان دخل الفضول خرج الفضول كأن الطعام بذر الأفعال والأفعال نبت تبدو منه * الثالثة ان فى كثرة الأكل قلة الفهم والعلم فان البطنة تذهب الفطنة ولقد صدق الدارانى رحمه الله حيث قال: اذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها فان الأكل يغير العقل وهذا أمر ظاهر علمه من اختبره * الرابعة ان فى كثرة الأكل قلة العبادة فان الانسان اذا أكثر الأكل ثقل بدنه وغلبته عيناه وفترت أعضاؤه فلا يجىء منه شىء وان اجتهد الا النوم كالجيفة الملقاة. ولقد قيل اذا كنت بطينا فعد نفسك زمينا. ولقد ذكر عن يحيى عليه السلام ان ابليس بدا له وعليه معاليق فقال له يحيى ماهذه فقال هذه الشهوات التى أصيد بها بنى آدم فقال له هل تجد لى فيها شيئا قال لا الا أنك شبعت ذات ليلة فثقلناك عن الصلاة قال يحيى عليه السلام لا جرم انى لا أشبع بعدها أبدا قال ابليس لا جرم انى لا أنصح بعدها أحدا أبدا، فهذه فيمن لم يشبع فى عمره الا ليلة فكيف بمن لا يجوع فى عمره الا ليلة ثم يطمع فى العبادة. وقال سفيان رحمه الله العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة * الخامسة ان فى كثرة الاكل فقد حلاوة العبادة (قال) أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ماشبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربى وما رويت منذ أسلمت اشتياقا الى لقاء ربى وهذه صفات المكاشفين فكان أبو بكر رضى الله عنه مكاشفا واليه أشار ﷺ بقوله «مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَإِنَّمَا هُوَ شَىْءٌ وَقَرَ فِى نَفْسِهِ» وقال الدارانى أحلى ماتكون العبادة

تمحصنا بها من الشيطان الرجيم وأحضر قلبك وفرغه من الوسواس وانظر بين يدى من تقوم ومن تناجى واستح أن تناجى مولاك بقلب غافل وصدر مشحون بوسواس الدنيا وخبائث الشهوات. واعلم أن الله تعالى مطلع على سريرتك وناظر الى قلبك فانما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك واعبده فى صلاتك كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فان لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك فهذا لقصور معرفتك بجلال الله تعالى فقدر أن رجلا صالحا من وجوه أهل بيتك ينظر اليك ليعلم كيف صلاتك فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك ثم ارجع الى نفسك فقل يانفس السوء ألا تستحين من خالقك ومولاك اذا قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده اطلع عليك وليس بيده نفعك ولا ضرك خشعت جوارحك وحسنت صلاتك ثم انك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشين لعظمته أهو تعالى

اذا التزق بطني بظهري* السادسة أن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام لأن الحلال لا يأتيك الا قوتا ولقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الحلالَ لا يأتيك إلاّ قوتاً والحرامَ يأتيك جُزافاً جُزافاً»* السابعة أن فيه شغل القلب والبدن بتحصيله أولا وبتهيئته ثانيا ثم بأكله ثالثا ثم بالفراغ عنه والتخلص رابعا ثم بالسلامة منه خامسا بأن تبدو منه آفة في البدن بل آفات وعلل في الدين ولقد قال ﷺ «أصلُ كلِّ داءٍ البَرَدَةُ - يعني التخمة - وأصلُ كلِّ دواءٍ الأزمةُ» يعني الجوع والحمية. وعن مالك بن دينار أنه كان يقول ياهؤلاء لقد اختلفت الى الخلاء حتى استحييت من ربي بسبب كثرة الأكل فياليت أن الله جعل رزقي في حصاة أمصها حتى أموت. ثم لا بد في هذه الجملة من طلب الدنيا والطمع الى الناس وتضييع الوقت بسبب كثرة الأكل مالم يخف* الثامنة ماينا له من أمور الآخرة وشدة سكرات الموت (وروى) في الأخبار أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا فمن أكثر من هذه أكثر له من تلك* التاسعة نقصان الثواب في العقبى قال الله تعالى ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فانه بقدر ماتأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة ولهذا المعنى أن الله تعالى لما عرض الدنيا على نبينا ﷺ قال له ولا أنقصك من آخرتك شيئا، خصه بذلك فدل على أن لغيره النقصان الا أن يتفضل الله عليه بذلك (ولقد روى) أن خالد بن الوليد أضاف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهيأ له طعاما فقال عمر هذا لنا فما للفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير قال خالد لهم الجنة ياأمير المؤمنين قال عمر: لئن فازوا بالجنة وكان هذا حظنا من الدنيا فقد بانوا منا بونا بعيدا .وروى أن عمر رضي الله عنه عطش يوما فدعا بماء فأعطاه رجل اداوة فيها ماء نبذ فيه تمرات فلما قربها عمر من فيه وجد الماء باردا حلوا فأمسك وقال أوه فقال الرجل والله ما ألوته حلاوة ياأمير المؤمنين فقال عمر رضي الله عنه ذلك الذي منعني منه ويحك لولا الآخرة لشاركناكم في عيشكم* العاشرة الحبس والحساب واللوم والتعيير في ترك الأدب في أخذ الفضول وطلب الشهوات والدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب وزينتها الى تباب فهذه جملة العشرة وفي احداها كفاية لمن نظر لنفسه. فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوت كي لا تقع في حرام أو شبهة فيلزمك العذاب ثم بالاقتصار من الحلال على مايكون عدة على عبادة الله تعالى فلا تقع في شر فتبقى في الحبس والله ولي التوفيق (فان قلت) فبين لنا أولا حكم الحرام والشبهة وحدهما* فأقول لعمر الله لقد أشبعنا القول فيه في أسرار معاملات الدين وذكرنا له كتابا مفردا في كتاب الاحياء لكنا نشير الى كلمات مفردة بحيث تصل الى فهم الضعيف المبتدئ اذ مقصود هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدئ في العبادة ويعين الطالب . قال بعض العلماء كل ماتيقنت كونه ملكا للغير منهيا عنه في الشرع فهو حرام محض وأما اذا لم يكن لك يقين بذلك ولكن يغلب على ظنك أنه كذلك فهو شبهة. وقال آخرون: بل الحرام المحض مايكون به علم أو غالب ظن. لأن غلبة الظن منا تجري مجرى العلم في كثير من الأحكام فأما اذا تساوت الأمارتان حتى تبقى شاكا لا يكون لأحدهما ترجيح عندك فذلك شبهة يشبه أنه حلال ويشبه أنه حرام فاشتبه أمره عليك والتبس حاله. ثم الامتناع عن الذي هو حرام محض حتم واجب وعن الذي هو شبهة تقوى وورع وهذا أولى القولين عندنا (فان قيل) فما تقول في قبول جوائز السلاطين في هذا الزمان (فاعلم) أن العلماء اختلفوا فيه فقال قوم كل مالا يتيقن أنه حرام فله

عندك أقل من عبد من عباده فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك فعالج قلبك بهذه الحيل فعساه أن يحضر معك في صلاتك فانه ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها وأما ما أتيت به مع الغفلة والسهو فهو الى الاستغفار والتكفير أحوج فاذا حضر قلبك فلا تترك الاقامة وان كنت وحدك وان انتظرت حضور جماعة غيرك فأذن ثم أقم فاذا أقمت فانو وقل في قلبك أؤدي فرض الظهر لله تعالى وليكن ذلك حاضرا في قلبك عند تكبيرك لا تعزب عنك النية قبل الفراغ من التكبيرة وارفع يديك عند التكبير بعد ارسالهما أولا الى منكبيك وهما مبسوطتان وأصابعهما منشورة ولا تتكلف ضمهما ولا تفريقهما وارفع يديك بحيث تحاذي بابهاميك شحمتي أذنيك ورءوس أصابعك أعالي أذنيك وتحاذي بكفيك منكبيك فاذا استقرتا في مقرهما فكبر ثم أرسلهما برفق ولا تدفع يديك عند الرفع والارسال الى قدام دفعا ولا الى خلف رفعا ولا تنفضهما يمينا ولا شمالا فاذا أرسلتهما

أخذه.وقال آخرون : لايحل أن يأخذ مالايتحقق أنه حلال لأن الأغلب فى هذا العصر على أموال السلاطين الحرام والحلال فى أيديهم معدوم أوعزيز.وقال قوم:ان صلات السلاطين تحل للغنى والفقير اذا لم يتحقق أنها حرام وانما التبعة على المعطى قالوا لأن النبى ﷺ قبل هدية المقوقس ملك الاسكندرية واستقرض من اليهود مع قول الله سبحانه ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ قالوا وقد أدرك جماعة من الصحابة أيام الظلمة وأخذوا منهم فمنهم أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين . وقال آخرون:لايحل من أموالهم شىء لغنى ولا لفقير اذهم موسومون بالظلم والغالب على مالهم السحت والحرام والحكم للغالب فيلزم الاجتناب.وقال آخرون مالايتيقن أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغنى الا أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب فليس له أن يأخذه الا ليرده على مالكه ولا حرج على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان لأنها ان كانت ملك السلطان فأعطى الفقير فله أخذه بلا ريب وان كانت من فىء أو خراج أو عشر فللفقير فيه حق وكذلك لأهل العلم.قال على بن أبى طالب رضى الله عنه:من دخل الاسلام طائعا وقرأ القرآن ظاهرا فله فى بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم وروى مائة دينار ان لم يأخذها فى الدنيا أخذها فى الآخرة.وان كان كذلك فالفقير والعالم يأخذان من حقهما.قالوا:واذا كان المال مختلطا بمال مغصوب لايمكن تمييزه أوغصبا لايمكن رده على صاحبه وذريته فلا مخلص للسلطان منه الا بأن يتصدق به وما كان الله ليأمره بالصدقة على الفقير وينهى الفقير عن قبولها أو يأذن للفقير فى القبول وهو عليه حرام فان للفقير أن يأخذ الا عين الغصب والحرام فليس له أخذه وهذه المسائل لايمكن الفتوى فيها الا ببسط وتشقيق واستيعاب القول فيها يخرج عن المقصود من الكتاب فان أردت معرفتها فطالع كتاب الحلال والحرام من كتاب احياء علوم الدين الذى صنفناه تجده مشروحا مبينا ان شاء الله تعالى (فان قيل)فما تقول فى صلات أهل السوق وغيرهم هل يلزم ردها والبحث عنها وقد علمت مجازفتهم وقلة نظرهم فى معاملتهم وكذلك صلات الاخوان (فالجواب)أنه اذا كان ظاهر الانسان الصلاح والستر فلا حرج عليك فى قبول صلته وصدقته ولا يلزم البحث بأن تقول قد فسد الزمان فان هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به (ثم اعلم) ماهو الأصل فى هذا الباب وهو أن ههنا شيئين أحدهما حكم الشرع وظاهره والثانى حكم الورع وحقه فحكم الشرع أن تأخذ ما أتاك ممن ظاهره صلاح ولا تسأل الا أن تتيقن أنه غصب أوحرام بعينه،وحكم الورع أن لاتأخذ شيئا من أحد حتى تبحث عنه غاية البحث وتستقصى غاية الاستقصاء فتستيقن أنه لاشبهة فيه بحال والا فترده،فلقد روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن غلاما له أتاه بلبن فشربه فقال الغلام كنت اذا جئت بشىء تسألنى عنه ولم تسألنى عن هذا اللبن فقال وما قصته فقال رقيت قوما فى الجاهلية فأعطونى هذا فتقيأ أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال اللهم هذه قدرتى فما بقى فى العروق فأنت حسبه.فهذا يدلك على وجوب البحث عما تقدم عليه ان كان لك نظر فى الورع وحقه فهذه هذه(فان قلت)فكأن الورع يخالف الشرع وحكمه فاعلم أن الشرع موضوع على اليسر والسماحة ولذلك قال النبى ﷺ « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » والورع موضوع على التشديد والاحتياط كما قيل الأمر على المتقى أضيق من عقد التسعين.ثم الورع من الشرع أيضا وكلاهما فى الأصل واحد ولكن للشرع حكمان حكم الجواز وحكم الأفضل الاحوط فالجائز يقال له

فاستأنف رفعهما الى صدرك وأكرم اليمنى بوضعها على الشمال وانشر أصابع اليمنى على طول ذراعك اليسرى واقبض بها على كوعها وقل بعد التكبير الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم اقرأ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين الآيتين الى آخرهما ثم قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم اقرأ الفاتحة بتشديداتها واجتهد فى الفرق بين الضاد والظاء فى قراءتك فى الصلاة وقل آمين ولا تصله بقولك ولا الضالين وصلا واجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء أعنى الركعتين الأوليين الا أن تكون مأموما واجهر بالتأمين واقرأ فى الصبح بعد الفاتحة من السور طوال المفصل وفى المغرب من قصاره وفى الظهر والعصر والعشاء من أوساطه نحو والسماء ذات البروج وما قاربها من السور وفى الصبح فى السفر قل يأيها الكافرون وقل هو الله أحد ولا تصل آخر السورة بتكبيرة الركوع ولكن افصل بينهما بمقدار سبحان الله وكن فى جميع قيامك مطرقا

حكم الشرع والافضل الاحوط يقال له حكم الورع فهما مع تميزهما واحد فى الأصل فافهم ذلك راشدا ان شاء الله تعالى. فان قلت فاذا جاز البحث والاستقصاء عن كل شئ فسد علينا ما نأخذه فى هذا الزمان وتعذر الأمر بمرة على صاحب الورع اذ لا بد له من بلاغ يبلغه الى الطاعة فاعلم أن طريق الورع طريق شديد وأن من قصد سلوكه يشترط أن يوطن نفسه وقلبه على احتمال الشدة والا فلا يتم له ذلك ولهذا المعنى سار الكثير من أهل الورع والسابقون الى جبل لبنان وغيره فاقتصروا على أكل الحشيش وثمرات تافهة لا شبهة فيها بحال فمن سمت همته الى نيل منزلة الورع الأعلى فعليه أن يحتمل الشدائد ويصبر عليها ويسلك طريق أولئك لينال منزلتهم، وأما ان أقام بين الناس وأكل مما يتداولونه فى أيديهم فليكن عنده بمنزلة الميتة لا يقدم عليها الا عند الضرورة ثم لا يتناول منها الا مقدار ما يبلغه الى الطاعة فيكون له عذر فى ذلك ولا يضره وان كان فى أصله شبهة فان الله تعالى أولى بالعذر ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : فسد السوق فعليكم بالقوت ولقد بلغنى عن وهب بن الورد رحمه الله أنه كان يجوّع نفسه يوما أو يومين أو ثلاثة ثم يأخذ رغيفا ويقول اللهم انك تعلم أنى لا أقوى على العبادة وأخشى الضعف والا لم آكله اللهم ان كان فيه شئ من خبث أو حرام فلا تؤاخذنى به ثم يبل الرغيف بالماء فيأكله (قلت) فهذان الطريقان للطبقة العليا من أهل الورع فيما نعلمه وأما من دونهم فلهم احتياط وبحث على مقدار ولهم أيضا نصيب من الورع على مقدار وبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا وهو عليم بما يفعلون (فان قيل) فهذا جانب الحرام فأخبرنا عن جانب الحلال وما حد الفضول الذى يلزم منه الحبس والحساب وما المقدار الذى اذا أخذ العبد يكون ذلك أدبا ولا يكون فضولا ولا عليه فيه حبس ولا حساب (يقال له فاعلم) أن أحوال المباح فى الجملة ثلاثة أقسام : أحدها ان يأخذه العبد مفاخرا مكاثرا مباهيا مرائيا فيكون الآخذ منه فعلا يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير وهو منكر وشر يستوجب على باطن فعله منكرا وهو التكاثر والتفاخر وعذاب النار وذلك القصد منه معصية وذنب لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ الى قوله ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وقال النبى عليه الصلاة والسلام « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا مُبَاهِيًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا مُرَائِيًا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » فالوعيد على قصده ذلك بقلبه * والقسم الثانى أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب لقوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: « حَلَالُهَا حِسَابٌ » *والقسم الثالث أن يأخذ من الحلال فى حال العذر قدرا يستعين به على عبادة الله تعالى ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنة وأدب لا حساب عليه ولا عقاب بل يسوجب عليه الأجر والمدحة لقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ وقال ﷺ « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْئَلَةِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » وذلك لما قصد به هذا المقصود المحمود لله سبحانه. فهذه هذه فاعلمها (فان قيل) فما شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة كما ذكرتم (فاعلم) أنه يحتاج فى كونه خيرا فى الأصل الى شرطين أحدهما الحال والثانى القصد فالحال يجب أن يكون فى حال عذر وهو بحيث ان لم يأخذه تؤخذ نفسه وتفسيره أن يكون حاله ان لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل فيكون

مصلاك فذلك أجمع لهمك وأجدر لحضور قلبك واياك أن تلتفت قاصرا نظرك على عيناوشمالا فى صلاتك *ثم كبر للركوع وارفع يديك كما سبق ومد التكبير الى انتهاء الركوع ثم ضع راحتيك على ركبتيك بأصابعك منشورة وانصب ركبتك ومد ظهرك وعنقك ورأسك مستويا كالصفيحة الواحدة وجاف مرفقيك عن جنبيك والمرأة لا تفعل ذلك بل تضم بعضها الى بعض وقل سبحان ربى العظيم وبحمده وان كنت منفردا فالزيادة الى السبع والعشر حسن ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما وارفع يديك قائلا سمع الله لمن حمده فاذا استويت قائما فقل ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شئ بعد. وان كنت فى فريضة الصبح فاقرأ القنوت فى الركعة الثانية فى اعتدالك من الركوع ثم اسجد مكبرا غير رافع اليدين وضع أولا على الأرض ركبتيك ثم يديك ثم جبهتك مكشوفة وضع أنفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك وأقل بطنك عن فخذيك

فيكون ذلك أفضل من ترك المباح فان ترك مباح الدنيا فضيلة فاذا كان الحال كذلك فهو حال العذر وأما القصد فهو أن يقصد به العدة والاستعانة على عبادة الله سبحانه وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا مافيه من التوصل الى عبادة الله سبحانه لما أخذت ذلك فهذا ذكر الحجة فلما حصل ذكر الحجة فى حال العذر . صار ذلك الأخذ من الدنيا للحلال خيرا وحسنة وأدبا . وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون له هذا القصد والذكر أو يكون له هذا القصد والذكر ولا يكون فى حال العذر فلا يصير ذلك الأخذ من جملة الخيرات ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب تحتاج الى بصيرة وقصد مجمل بأنه لا يأخذ من الدنيا بحال الا للعدة على عبادة الله تعالى حتى انه ان سها عن ذكر الحجة فى حال أجزأه ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة . قال شيخنا رحمه الله : فصارت الأمور الثلاثة معتبرة فيه كل واحد من وجه . يعنى أن الذكر والحال معتبران فى حصول كونه خيرا أصلا . والقصد المجمل المقتضى عن بصيرة بمنزلة الأدب معتبر فى الاستقامة عليه فافهم ذلك راشدا (فان قيل) فان أخذ من الدنيا الحلال بشهوة فهل يكون ذلك معصية وهل يلزم عليه عذاب وهل الأخذ بالعذر فرض أم لا (فاعلم) أن ذلك فضيلة ونسميه خيرا وحسنة والأمر به أمر تأديب والأخذ بالشهوات شر وسيئة والنهى عنه نهى زجر وأدب وليس ذلك بمعصية ولا يكون عليه عذاب النار وانما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير ﴿فان قلت﴾ فما هذا الحبس والحساب اللذان يلزمان العبد (فاعلم) أن الحساب أن تسئل يوم القيامة عماذا اكتسبت وفيماذا أنفقت وماذا أردت بذلك . والحبس حبس عن الجنة مدة الحساب وذلك فى عرصات القيامة بين أهوالها ومخاوفها عريانا وعطشانا وكفى بذلك بلية (فان قيل) فاذن قد أحل الله لنا هذا الحلال فاللوم والتعيير فى أخذه لماذا (فاعلم) أن اللوم والتعيير لتركه الأدب كمن أجلس على مائدة الملك فترك الأدب فانه يعير بذلك ويلام وان كان الطعام له مباحا فالأصل فى هذا الباب أن الله تعالى خلق العبد لعبادته وهو عبد الله تعالى من كل وجه فحق للعبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه ويجعل أفعاله كلها عبادة من أى وجه أمكنه . فان لم يفعل ذلك وآثر شهوة نفسه واشتغل بذلك عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك من غير تعذر والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة فيستحق اللوم بذلك والتعيير من سيده فتأمل هذا الأصل راشدا ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . فهذه الجملة التى أردنا بيانها فى اصلاح النفس والجامها بلجام التقوى فارعها حقها واحتفظ بها جدا تفز بالخير الكثير فى الدارين ان شاء الله تعالى والله ولى العصمة والتوفيق بفضله

﴿فصل﴾ فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة العظيمة الطويلة فانها أعظم العقبات شدة وأكثرها مؤنة وأكثرها آفة وفتنة فان من هلك من الخلق كلهم انما انقطعوا عن طريق الحق اما بسبب دنيا أو خلق أو شيطان أو نفس ولقد ذكرنا فى كتبنا المصنفة من كتاب الاحياء والأسرار والقربة الى الله مايبعث على الاهتمام بذلك ، ومقصود هذا الكتاب أنى سألت الله أن يطلعنى على سر معالجة النفس وأن يصلحنى ويصلح بى فاقتصرت فى هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة اللفظ غزيرة المعنى تقنع من تأملها وتدعه على واضحة من الطريق ان شاء الله تعالى وهذا الفصل يختص بنكت فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس (أما الدنيا) فحق لك أن تحذرها وتزهد فيها لأن الأمر لا يخلو من ثلاثة اما أنت من ذوى البصائر والفطن فحسبك أن الدنيا عدوة الله سبحانه وهو حبيبك ووليك وأن الدنيا نقيضة عقلك والعقل

والمرأة لا تفعل ذلك وضع يديك على الأرض حذو منكبيك ولا تفرش ذراعيك على الأرض وقل سبحان ربى الأعلى ثلاثا أو سبعا أو عشرا ان كنت منفردا * ثم ترفع من السجود مكبرا حتى تعتدل جالسا واجلس على رجلك اليسرى وانصب قدمك اليمنى وضع يديك على فخذك والأصابع منشورة وقل رب اغفرلى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى ثم اسجد سجدة ثانية كذلك ثم اعتدل جالسا جلسة الاستراحة فى كل ركعة لا تتشهد عقبها ثم تقوم وتضع اليدين على الأرض ولا تقدم احدى رجليك فى حالة الارتفاع وابتدئ بتكبيرة الارتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة ومدها الى منتصف ارتفاعك الى القيام ولتكن هذه الجلسة جلسة خفيفة مختطفة وصل الركعة الثانية كالأولى وأعد التعوذ فى الابتداء ثم تجلس فى الركعة الثانية للتشهد الاول وضع اليد اليمنى فى جلوسك للتشهد الأول على الفخذ اليمنى مقبوضة الأصابع الا المسبحة والابهام فترسلهما وأشر

قيمتك واما أنت من ذوى الهمم والاجتهاد فى عبادة الله تعالى فحسبك أن الدنيا بلغ من شؤمها ما يمنعك من ارادتها وتشغلك الفكرة فيها عن العبادة والخير فكيف نفسها واما أنت من أهل الغفلة لا بصيرة لك تبصر الحقائق ولا همة لك تبعث على المكارم فحسبك أن الدنيا لا تبقى اما أن تفارقها واما أن تفارقك كما قال الحسن ان بقيت لك الدنيا لم تبق لها فأى فائدة لك اذا فى طلبها وانفاق العمر العزيز عليها ولقد أحسن القائل :

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصير ذاك الى زوال

فما ترجو بعيش ليس يبقى * وشيكا قد تغيره الليالى

وما دنياك الا مثل ظل * أظلك ثم آذن بارتحال

فلا ينبغى للعاقل اذا أن يخدع بها ولقد صدق القائل فيما قال :

أضغاث نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لا يخدع

(وأما الشيطان) فحسبك فيه ما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (فهذا) خير العالمين وأعلمهم وأعقلهم وأفضلهم عند الله تعالى يحتاج مع ذلك أن يستعيذ بالله من شر الشيطان فكيف بك مع جهلك ونقصك وغفلتك (وأما الخلق) فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم فى أهوائهم أثمت وأفسدت أمر آخرتك وان خالفتهم تعبت بأذياتهم وجفواتهم وكدرت عليك أمر دنياك ثم لا تأمن أن يلجئوك الى معاداتهم ومناوأتهم فتقع فى شرهم ولأنهم ان مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب وان ذموك وحقروك أخاف عليك الحزن تارة والغضب لغير الله تعالى أخرى وكلا الأمرين آفة مهلكة ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت فى القبر بثلاثة أيام كيف يتركونك ويهجرونك وينسونك ولا يكادون يذكرونك كأنك لم ترهم يوما ولم يروك فلا يبقى هنالك الا الله سبحانه أفلا يكون من الغبن العظيم أن تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق مع قلة الوفاء وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى الذى يرجع اليه الأمر وحده فلا يبقى لك الا هو أبد الآبدين والحاجات كلها اليه والتكلان كله عليه والاعتصام كله فى كل حال وعند كل شدة وهول به وحده لا شريك له . فتأمل يامسكين لعلك ترشد ان شاء الله تعالى والله ولى الهداية بفضله (وأما النفس) فحسبك ما تشاهده من حالاتها ورداءة ارادتها وسوء اختيارها فهى فى حال الشهوة بهيمة وفى حال الغضب سبع وفى حال المصيبة تراها طفلا صغيرا وفى حال النعمة تراها فرعونا وفى حال الجوع تراها مجنونا وفى حال الشبع تراها مختالا ان أشبعتها بطرت ومرحت وان جوعتها صاحت وجزعت فهى كما قال القائل :

كحمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

(ولقد صدق) بعض الصالحين حيث قال: ان من رداءة هذه النفس وجهلها بحيث اذا همت بمعصية أو انبعثت لشهوة فثنيتها أو تشفعت اليها بالله سبحانه ثم برسوله عليه السلام وبجميع أنبيائه وبكتابه وبجميع السلف الصالح من عباده وتعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار لا تعطى الانقياد ولا تترك الشهوة ثم ان استقبلتها بمنع رغيف تسكن وتترك شهوتها لتعلم خستها وجهلها، فاياك أيها الرجل أن تغفل عنها فانها كما قال خالقها العالم بها جل جلاله ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فكفى بهذا تنبيها لمن عقل (ولقد بلغنا) عن بعض

بمسبحة يمناك عند قولك الا الله لاعند لااله، وضع اليسرى منشورة الأصابع على الفخذ اليسرى واجلس على رجلك اليسرى فى هذا التشهد كما بين السجدتين وفى التشهد الأخير متوركا واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم واجلس فيه على وركك الأيسر وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك وانصب القدم اليمنى ثم قل بعد الفراغ السلام عليكم ورحمة الله مرتين من الجانبين والتفت بحيث يرى خدك من جانبك وانو الخروج من الصلاة وانو السلام على من على جانبيك من الملائكة والمسلمين وهذه هيئة صلاة المنفرد وعماد الصلاة الخشوع وحضور القلب مع القراءة والذكر بالفهم، وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى الى العقوبة أسرع وقال ﷺ « إِنَّ العبدَ لَيُصَلِّى الصلاةَ فَلَا يُكْتَبُ لَهُ مِنهَا سدُسُهَا ولَا عُشرُها وإِنَمَا يُكْتَبُ لِلعبدِ مِنَ صَلَاتِه بقدْرِ ما عَقَلَ منهَا»

الصالحين يقال له أحمد بن أرقم البلخى رحمه الله أنه قال : نازعتنى نفسى بالخروج الى الغزو فقلت سبحان الله ان الله يقول «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» وهذه تأمرنى بالخير لايكون هذا أبدا ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح اليهم ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم والبر والاكرام فقلت لها لاأنزلك العمران ولا أنزلك على معرفة فأجابت فأسأت الظن بها وقلت الله تعالى أصدق القائلين فقلت لها أقاتل العدو حاسرا فتكونين أول قتيل فأجابت فأسأت الظن بها وعدد أشياء مما أرادها فأجابت الى كل ذلك قال فقلت يارب نبهنى لها فانى متهم لها مصدق لك فكوشفت بها كأنها تقول ياأحمد أنت تقتلنى كل يوم بمنعك اياى من شهواتى مرات وبمخالفتك ولا يشعر بى أحد فان قاتلت قتلت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقولون استشهد أحمد ويكون لى شرف وذكر قال فقعدت ولم أخرج الى الغزو فى ذلك العام. فانظر الى خداع النفس وغرورها ترائى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد ولقد صدق القائل وأحسن فيما قال :

توق نفسك لاتأمن غوائلها * فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

(فتنبه رحمك الله) لهذه الخداعة الأمارة بالسوء ووطن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب وتسلم ان شاء الله تعالى. ثم عليك بالجامها بلجام التقوى لاحيلة لها سواه (واعلم) أن ههنا أصلا أصيلا وهو أن العبادة شطران شطر الاكتساب وشطر الاجتناب فالاكتساب فعل الطاعات والاجتناب الامتناع عن المعاصى والسيئات وهو التقوى وان شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب ولذلك يشتغل المبتدئون من أهل العبادة الذين هم فى أول درجة من الاجتهاد بشطر الاكتساب كل همتهم أن يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم ونحو ذلك ويشتغل المنتهون أولو البصائر من أهل العبادة بشطر الاجتناب انما همتهم أن يحفظوا قلوبهم عن الميل الى غير الله تعالى وبطونهم عن الفضول وألسنتهم عن اللغو وأعينهم عن النظر الى مالا يعنيهم ولهذا المعنى قال العابد الثانى من العباد وكانوا سبعة ليونس يايونس : ان من الناس من حبب اليهم الصلوات فلا يؤثرون عليها شيئا وهى عمود العبادة بالثبات لله والصدق والتضرع والابتهال ومنهم من حبب اليهم الصوم فلا يؤثرون عليه شيئا ومنهم من حبب اليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها شيئا يايونس وأنا مفسر لك هذه الخصال فاجعل طول صلاتك الصبر على البأساء والتسليم لأمر الله عز وجل واجعل صومك الصمت عن كل سوء واجعل صدقتك كف الأذى فانك لاتتصدق بشئ أفضل منه ولا تصوم بشئ أزكى منه فاذا علمت أن جانب الاجتناب أولى بالرعاية والاجتهاد فيه فان حصل لك الشطران جميعا الاكتساب والاجتناب فقد استكمل أمرك وحصل مرادك وقد سلمت وغنمت . وان لم تبلغ الا الى أحدهما فليكن ذلك جانب الاجتناب فتسلم ان لم تغنم والا خسرت الشطرين جميعا وما ينفعك قيام ليل وتعبه ثم تحبطه بارادة واحدة ومايغنيك صيام نهار طويل ثم تفسده بكلمة واحدة (ولقد روينا) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له ماتقول فى رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر والآخر قليل الخير قليل الشر قال لاأعدل بالسلامة شيئا (ومثال ماقلنا) حال المريض وذلك أن معالجة المريض نصفان نصف هو الدواء ونصف هو الاحتماء فان اجتمعا فكأنك بالمريض قد برئ وصح والا فالاحتماء به أولى ولا ينفع دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء (ولقد قال) ﷺ :

﴿آداب الامامة والقدوة﴾ ينبغى للامام أن يخفف الصلاة قال أنس رضى الله عنه ماصليت خلف أحد صلاة أخف ولا أتم من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يكبر مالم يفرغ المؤذن من الاقامة ومالم تسو الصفوف ويرفع الامام صوته بالتكبيرات ولا يرفع المأموم صوته الا بقدر مايسمع نفسه وينوى الامام الامامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاة القوم اذا نووا الاقتداء به ونالوا فضل القدوة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولتى المغرب والعشاء وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين فى الجهرية وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا لا تعقيبا له ويسكت الامام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب اليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الامام ولا يقرأ المأموم السورة فى الجهرية الا اذا لم يسمع صوت الامام ولا يزيد الامام على الثلاث فى تسبيحات الركوع والسجود

ولايزيد فى التشهد الأول بعد قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد دعاؤه فى التشهد الأخير على قدر تشهده وصلاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينوى الامام عند التسليم السلام على القوم وينوى القوم بتسليمهم جوابه ويلبث الامام ساعة بعدما يفرغ من السلام ويقبل على الناس بوجهه ولا يلتفت ان كان خلفه النساء لينصرفن أولا ولا يقوم أحد من القوم حتى يقوم الامام، وينصرف الامام حيث شاء عن يمينه أو شماله واليمين أحب اليه ولا يخص الامام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول اللهم اهدنا ويجهر به ويؤمن القوم ولا يرفعون أيديهم اذ لم يثبت ذلك فى الأخبار ويقرأ المأموم بقية القنوت من قوله انك تقضى ولا يقضى عليك. ولايقف المأموم وحده بل يدخل الصف أو يجر الى نفسه غيره . ولاينبغى للمأموم أن يتقدم على الامام فى أفعاله أو يساويه بل ينبغى أن يتأخر ولا

«أَصْلُ كُلِّ دَاءِ الْحِمْيَةُ» والمعنى بها والله أعلم أنها تغنى عن كل دواء ولذا يقال ان أهل الهند جل معالجتهم الحمية بمنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ ويصح بذلك لاغير، فتبين لك بهذه الجملة أن التقوى ملاك الأمر وجوهره وأهلها هم الطبقة العليا من العباد فعليك ببذل المجهود فى ذلك وصرف كل العناية الى ذلك والله سبحانه ولى التوفيق برحمته

(فصل) ثم راع هذه الأعضاء الأربعة التى هى الأصول (الأول) العين وحسبك فيها أن مدار أمر الدين والدنيا على القلب وأن خطر القلب وشغله وفساده فى الأكثر من العين ولذلك قال على رضى الله عنه : من لم يملك عينه فليس للقلب عنده قيمة (والثانى) اللسان وحسبك أن فيه ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة وأن خطر العبادة واحباطها وافسادها فى الأكثر من قبل اللسان التصنع والتزين والغيبة ونحوها يتلف عليك بلفظة واحدة ما تعبت فيه سنة واحدة بل خمسا وعشرا ولذلك قيل : ماشىء أحق بطول السجن من اللسان (وفيما روى) أن أحد العباد السبعة قال ليونس عليه السلام يايونس ان العباد اذا اجتهدوا فى العبادة لم يتقووا على عبادتهم بشىء أفضل من الصبر عن ترك الكلام فى فصل طويل ثم عاد الى ذلك فقال: ولايكونن عندك شىء آثر من حفظ لسانك ولا تكونن لشىء أعنى به من سلامة صدرك فهذه هذه (ثم اذكر) الأنفاس التى تكلمت فيها بفضول ما كان يضرك لو قلت أستغفر الله فربما يوافق ساعة عزيزة فيغفر الله لك فتربح رأس مالك أو قلت لااله الاالله فيكون لك من الأجر والذخر مالا يحيط به وهمك أو تقول أسأل الله العافية فربما يتفق حسن نظر فيستجيب الله تعالى دعوتك فتنجوت من بلية الدنيا والآخرة ألا يكون من الخسران العظيم والغبن الفظيع أن تفوت على نفسك كل هذه الفوائد الكريمة وتجمل نفسك ووقتك فى فضول أقل ما يلزمك فيه اللوم والحساب والحبس يوم القيامة ولقد أحسن القائل فى قوله

وإذا ماهممت بالنطق فى البا * طل فاجعل مكانه تسبيحا

(الثالث) البطن وحسبك أن مقصودك العبادة وأن الطعام بذر العمل وماؤه منه يبدو وينبت واذا خبث البذر لايطيب الزرع بل فيه خطر أن يفسد عليك أرضك فلا تفلح أبدا. ومن ذلك ما بلغنا عن معروف الكرخى أنه قال: اذا صمت فانظر على أى شىء تفطر وعند من تفطر وطعام من تأكل فكم من يأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه فلا يعود الى حاله أبدا وكم من أكلة حرمت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة وان العبد ليأكل أكلة فيحرم بها قيام سنة فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق والاحتياط البالغ الشديد فى قوتك ان كانت لك عناية بقلبك وهمة فى عبادة ربك هـذا فى أصل القوت حتى يكون من وجهه . ثم عليك بالأدب فيه والا كنت حمالا للطعام مطيعا للأيام اذقد علمنا يقينا بل رأينا عيانا أن العبادة لايجىء منها شىء اذا امتلأ البطن وان أكرهت النفس على ذاك وجاهدت بضروب الحيل فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك قيل : لاتطمع فى حلاوة العبادة مع كثرة الأكل وأى نور فى نفس بلا عبادة وفى عبادة بلا لذة ولا حلاوة ولهذا المعنى قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : صحبت أكثر رجال الله تعالى فى جبل لبنان فكانو يوصوننى اذا رجعت الى أبناء الدنيا فعظهم بأربع خصال: قل لهم من يكثر الأكل لايجد

لذة

لذة العبادة ومن ينم كثيرا لايجد فى عمره بركة ومن طلب رضا الناس فلا ينتظر رضا الرب ومن يكثر الكلام بالفضول والغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين الاسلام. (وعن سهل رحمه الله) أنه قال: جماع الخير كله فى هذه الخصال الأربع وبها صارت الابدال أبدالا: اخماص البطون والصمت والاعتزال عن الخلق وسهر الليل (وقال) بعض العارفين: الجوع رأس مالنا. ومعناه أن مايحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم وعمل نافع بسبب الجوع والصبر عليه لله سبحانه (وأما القلب) فحسبك أنه أصل الكل ان أفسدته فسد الكل وان أصلحته صلح الكل اذ هو الشجرة وسائر الأعضاء أغصان ومن الشجرة تشرب الأغصان وتصلح وتفسد وأنه الملك وسائر الأعضاء تبع وأركان واذا صلح الملك صلحت الرعية واذا فسد فسدت الرعية . فاذا صلاح العين واللسان والبطن وغيرها دليل على صلاح القلب وعمرانه، واذا رأيت فيها خللا وفسادا فاعلم أن ذلك من خلل القلب وفساد وقع، ثم بل الفساد فيه أكثر فاصرف عنايتك اليه فأصلحه يصلح الكل بمرة فتستريح ثم أمره دقيق عسير اذ هو مبنى على الخواطر وهى ليست تحت يدك والامتناع من اتباعها بمجهود طاقتك ففيه أقسى المشقة ولهذا المعنى صار اصلاحه أشد على أهل الاجتهاد والاهتمام بأمره أكثر وأكبر عند ذوى البصائر (وعن أبى يزيد) رحمه الله أنه قال: عالجت قلبى عشرا ولسانى عشرا ونفسى عشرا فكان قلبى أصعب الثلاثة. فهذه هذه (ثم عليك بالاهتمام) بالخصال الأربع التى ذكرناها من الأمل والعجلة فى الأمور والحسد والكبر. وانما خصصنا هذه الأربعة بين سائر الخصال فى هذا الموضع وحضضنا على الاحتراس منها لأنها علل القراء خاصة اذ هى تعترى سائر الناس عموما والقراء خصوصا فتكون أقبح وأشنع. ترى الرجل القارئ يطوّل الأمل ويعده نية خير فيوقعه فى الكسل والتوانى فى العمل وتراه يستعجل فى تحصيل منازل الخير فينقطع عنها أو فى اجابة دعاء صالح فيحرم من ذلك أو فى الدعاء على أحد بسوء فيندم على ذلك كما ذكر عن نوح عليه السلام: وتراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ منه ذلك مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لايقدم عليها فاسق ولا فاجر (ولهذا) المعنى قال سفيان الثورى رحمه الله: ما أخاف على دمى الا القراء والعلماء. فاستنكروا منه ذلك فقال ما أنا قلته انما قاله ابراهيم النخعى رحمه الله تعالى. وعن عطاء قال قال لى الثورى رحمه الله: احذروا القراء واحذرونى معهم فلو خالفت أودهم لى فى رمانة فأقول انها حلوة ويقول انها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمى الى سلطان جائر . وعن مالك بن دينار أنه قال: انى أقبل شهادة القراء على جميع الخلق ولا أقبل شهادة بعضهم على بعض لأنى وجدتهم حسادا. وعن الفضيل أنه قال لابنه: اشتر لى دارا بعيدة من القراء مالى ولقوم ان ظهرت منى زلة هتكونى وان ظهرت علىّ نعمة حسدونى. وكذلك تراه يتكبر على الناس ويستخف بهم مصعرا خده معبسا وجهه كأنما يمن على الناس بما يصلى زيادة ركعتين أو كأنما جاءه من الله تعالى منشور بالجنة أو البراءة من النار أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس . ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين من صوف وغيره ويتماوت وهذا لايليق بالترفع والكبر ولا يلائمه بل يناقضه ولكن الأعمى لايبصر. وذكر أن فرقد السبخى دخل على الحسن وعليه كساء وعلى الحسن حلة فجعل يلمسها فقال الحسن: مالك تنظر الى ثيابى ثيابى ثياب أهل الجنة وثيابك ثياب أهل النار . بلغنى أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية ثم قال الحسن جعلوا الزهد فى ثيابهم

يهوى للركوع الا اذا انتهى الامام الى حد الركوع .ولا يهوى للسجود مالم تصل جبهة الامام الى الأرض

﴿آداب الجمعة﴾

اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين وهو يوم شريف خص الله عز وجل به هذه الأمة وفيه ساعة مبهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة الا أعطاه اياها فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب وبكثرة التسبيح والاستغفار عشية الخميس فانها ساعة توازى فى الفضل ساعة يوم الجمعة وانو صوم يوم الجمعة لكن مع السبت أو الخميس اذ جاء فى افرادها نهى فاذا طلع عليك الصبح فاغتسل فان غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم أى ثابت مؤكد * ثم تزين بالثياب البيض فانها أحب الثياب الى الله تعالى. واستعمل من الطيب أطيب ما عندك. وبالغ فى تنظيف بدنك بالحلق والقص والتقليم والسواك وسائر أنواع النظافة وتطييب الرائحة، ثم بكر الى الجامع واسع اليها على الهيئة والسكينة فقد قال

والكبر فى صدورهم والذى يحلف به لأحدكم بكسائه أعظم كبرا من صاحب المطرف بمطرفه. والى هذا المعنى يشير ذو النون المصرى رحمه الله حيث قال :

تصوف فازدهى بالصوف جهلا * وبعض الناس يلبسه مجانه
يريك مهانة ويريك كبرا * وليس الكبر من شكل المهانه
تصوف كى يقال له أمين * وما معنى تصوفه الأمانه
ولم يرد الاله به ولكن * أراد به الطريق الى الخيانه

(فلتحذر) أيها الرجل من هذه الآفات الأربع التى ذكرناها لاسيما الكبر فان الثلاث الأول مداحض لو زللت فيها لوقعت فى العصيان والكبر مدحض لو زللت فيه لوقعت فى بحار الكفر والطغيان ولاتنس حديث ابليس وفتنته أنه أبى واستكبر وكان من الكافرين والرجوع الى الله عز وجل أن يعصمنا جميعا بحسن نظره انه الجواد الكريم

﴿ فصل ﴾ وجملة الأمر أنك اذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت أن الدنيا لا بقاء لها وأن نفعها لا يفى بضرها وتبعاتها من كد البدن وشغل القلب فى الدنيا والعذاب الأليم والحساب الطويل فى الآخرة الذى لا طاقة لك به، فاذا علمت ذلك جدا زهدت فى فضولها فلا تأخذ منها الا مالا بد لك منه فى عبادة ربك وتدع التنعم والتلذذ الى الجنة دار النعيم المقيم فى جوار رب العالمين الملك القادر الغنى الكريم وعلمت أن الخلق لا وفاء لهم وأن مؤنتهم أكثر من معونتهم فيما يعنيك وتركت مخالطتهم الا فيما لا بد لك منه تنتفع بخيرهم وتجتنب ضرهم وتجعل صحبتك لمن لا تخسر فى صحبته ولا تندم على خدمته وأنسك بكتابه وملازمتك اياه فيكون لك بكل حال وترى منه كل جميل وافضال وتجده عند كل نائبة فى الدنيا والآخرة كما قال عليه السلام « احفظ الله تجده حيث اتجهت » وعلمت أن الشيطان خبيث قد تجرد لمعاداتك فاستعذ بربك القادر القاهر من هذا الكلب اللعين ولا تغفل عن مكايده ومصايده فتطرده بذكر الله سبحانه ولا تعبأن بذلك فانه يسير اذا ظهرت منك عزيمة الرجال وانه كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (ولقد صدق) أبو حازم فيما قال : ما الدنيا وما ابليس أما الدنيا فما مضى منها فحلم وما بقى فأمانى وأما الشيطان فوالله لقد أطيع فما نفع ولقد عصى فما ضر. وعلمت جهالة هذه النفس وجماحها الى ما يضرها ويهلكها فنظرت اليها رحمة لها نظر العقلاء والعلماء الذين ينظرون فى العواقب لا نظر الجهال والصبيان الذين ينظرون فى الحال ولا يفطنون لغائلة الأذى وينفرون من مرارة الدواء فألجمتها بلجام التقوى بأن تمنعها عما لا تحتاج اليه بالحقيقة من فضول كلام ونظر وطعام وتلبس بخصلة فاسدة من طول أمل أو عجلة أو حسد مسلم أو تكبر فى غير موضع أو أكل بمحض شهوة وشره وتعطيها ما ليس لها منه بد ولا تخاف منه ضررا الا لا ضرورة الى الفضول وقد وسع الله تعالى الأمر على عباده برحمته وأغناهم عن جميع ما يضرهم فى أمر دينهم، فأى حاجة الى ذلك فان الأمر كما قال بعض الصالحين ان التقوى أهون شىء اذا رابنى شىء تركته فان النفس تستكين وتتعود ما عودتها، وانها كما قال القائل :

فالنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

الثالثة فكأنما قرب كبشا ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة قال فاذا خرج الامام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون ويقال ان النظر الى وجه الله تعالى على قدر بكورهم الى الجمعة، ثم اذا دخلت الجامع فاطلب الصف الأول فان اجتمع الناس فلا تتخط رقابهم ولا تمر بين أيديهم وهم يصلون واجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتى لا يمروا بين يديك ولا تقعد حتى تصلى التحية والأحسن أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة خمسين مرة سورة الاخلاص ففى الخبر من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ولا تترك التحية وان كان الامام يخطب ومن السنة أن تقرأ فى أربع ركعات سورة الأنعام والكهف وطه ويس فان لم تقدر فسورة يس والدخان والم السجدة

(وقال آخر) هى النفس ماحملتها تتحمل * ويروى * ما عودتها تتعود

(وقال آخر) صبرت عن اللذات حتى تولت * وألزمت نفسى صبرها فاستمرت

وما النفس الاحيث يجعلها الفتى * فان أطمعت تاقت والا تسلت

فاذا علمت الذى وصفناه كنت من الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة (واعلم) أن من سمى باسم الزاهد فلقد سمى بألف اسم ممدوح، وكنت من المنفردين المنقطعين الى الله سبحانه الذين هم أهل الانس وخدم رب العالمين فتكون كما قال القائل :

تشاغل قوم بدنياهم * وقوم تخلوا لمولاهم * فألزمهم باب مرضاته * وعن سائر الخلق أغناهم
يصفون بالليل أقدامهم * وعين المهيمن ترعاهم * فطوبى لهم ثم طوبى لهم * اذا بالتحية حياهم

وكنت من الزاهدين المجاهدين فى الله الخواص من عباد الله تعالى الذين قال فيهم سبحانه «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين وصرت حينئذ أفضل من كثير من الملائكة المقربين اذ ليست لهم شهوة تدعو الى قبيح ولا نفس خبيثة، وكنت قد خلفت هذه العقبة الطويلة الشديدة وراءك وسبقت العوائق كلها الى مقصودك ولا يهولنك فانه مع الاستعانة بالله والاعتصام به لهين، نسأل الله تعالى وهو خير مسئول أن يمدك وايانا بحسن توفيقه وعونه وتيسيره فانه الكافى لكل مهم والاستعانة به فى كل معضل فبيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير . فهذا ما أردنا ذكره فى هذا الباب ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿ الباب الرابع فى العقبة الرابعة وهى عقبة العوارض ﴾

ثم عليك ياطالب العبادة - وفقك الله - بكف العوارض الشاغلة من عبادة الله تعالى وسد سبيلها عنك لئلا تشغلك عن مقصودك وقد ذكرنا أنها أربعة (أحدها) الرزق ومطالبة النفس بذلك وانما كفايته فى التوكل فعليك بالتوكل على الله سبحانه فى موضع الرزق والحاجة بكل حال وذلك لأمرين (أحدهما) التفرغ للعبادة ويتمشى لك من الخير حقه فان من لم يكن متوكلا فلا بد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة اما ظاهرا واما باطنا اما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين واما بذكر وارادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين الملقين، والعبادة تحتاج الى فراغ القلب والبدن ليحصل حقها والفراغ لا يكون الا للمتوكلين، بل أقول كل من هو ضعيف القلب لا يكاد يطمئن قلبه الا بشىء معلوم فلا يكاد يتم له أمر خطير من دنيا وآخرة، وكثيرا ما سمعت من شيخى أبى محمد رحمه الله تعالى يقول انما الأمر يتمشى فى العالم لرجلين متوكل أو متهور (قلت) وهذا كلام جامع فى معناه فان المتهور يقصد الأمور على قوة عادة وجراءة قلب لا يلتفت الى صارف يصرفه أو خاطر يضعفه فتجرى له الأمور والمتوكل يقصد الأمور على قوة وبصيرة وكمال يقين بوعد الله سبحانه وتمام ثقة بضمانه فلا يلتفت الى انسان يخوفه ولا شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده ويظفر بمطالبه (وأما) ذو الخلق الضعيف فهو أبدا يكون بين توكل وتردد وفتور وتحير كالحمار فى معلفه والدجاج فى قفصه يرمق ما تعوده من صاحبه لا يكاد ينفك من ذلك. وقد تقاعدت نفسه عن معالى الأمور وانقطعت همته فلا يكاد يقصد أمرا شريفا وان قصده فلا يكاد يظفر به ولا يتم له ذلك أما ترى أصحاب الهمم من أبناء الدنيا لم ينالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة الا بانقطاع قلوبهم عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم

من قراءة سورة الاخلاص واكثار الصلاة على رسول الله ﷺ فى هذا اليوم خاصة * ومهما خرج الامام فاقطع الصلاة والكلام واشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة والاتعاظ بها ودع الكلام رأسا فى الخطبة ففى الخبر أن من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له أى لان قوله أنصت كلام فينبغى أن ينهى غيره بالاشارة لا باللفظ * ثم اقتد بالامام كما سبق فاذا فرغت وسلمت فاقرأ الفاتحة قبل أن تتكلم سبع مرات والاخلاص سبعا والمعوذتين سبعا فذلك يعصمك من الجمعة الى الجمعة الأخرى ويكون حرزا لك من الشيطان وقل بعد ذلك اللهم ياغنى ياحميد يامبدئ يامعيد يارحيم ياودود أغننى بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك. ثم صل بعد الجمعة ركعتين أو أربعا أو ستا مثنى مثنى فكل ذلك مروى عن رسول الله ﷺ فى أحوال مختلفة. ثم لازم المسجد الى المغرب أو الى العصر وكن حسن المراقبة

(وأما الملوك) فيباشرون الحروب ويكافحون الأعداء اماهلكا واماملكا حتى تحصل لهم مرتبة الملك وعقد الولاية (وقيل) ان معاوية بن أبي سفيان لما نظر الى العسكرين يوم صفين قال: من أراد خطيرا خاطر بعظيمته (وأما التجار) فيركبون المهالك برا وبحرا ويطرحون أنفسهم وأموالهم فى المقاطع شرقا وغربا ويوطنون أنفسهم على أحد الأمرين امافوت الأرواح واماحصول الأرباح حتى يحصل لهم بذلك كل ربح عظيم ومال جسيم وعلق نفيس (وأما السوقى) الذى ضعف قلبه ورق عزمه فلا يكاد يقطع القلب عن علاقته من نفسه وماله فهو من بيته الى دكانه طول عمره، لايصل الى مرتبة شريفة كالملوك ولا الى ربح عظيم كالتجار، المخاطرين فان نال فى سوقه ربح درهم على بضاعته فذاك له كثير، وذلك لتعلق قلبه بشىء معلوم فهذا فى الدنيا وأبنائها. وأما أبناء الآخرة فرأس مالهم هذه الخصلة التى هى التوكل وقطع القلب عن العلائق، لما أحكموها وحصلوها حقا تفرغوا لعبادة الله تعالى وتمكنوا فى التفرد عن الخلق والسياحة فى الأرض واقتحام الفيافى واستيطان الجبال والشعاب فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين وأحرار الناس وملوك الأرض بالحقيقة يسيرون حيث يشاءون وينزلون حيث يشاءون ويقصدون من الأمور العظام علما وعبادة مايشاءون لاعائق لهم ولا حاجز لهم دونهم فكل الأماكن لهم واحد وكل الأزمان عندهم واحد واليه الاشارة بقوله ﷺ « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ » وعن سليمان الخواص لوأن رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية لاحتاج اليه الأمراء ومن دونهم وكيف يحتاج ومولاه الغنى الحميد * وعن ابراهيم الخواص أنه قال: لقيت غلاما فى التيه كأنه سبيكة فضة فقلت له الى أين ياغلام قال الى مكة قلت بلازاد ولا راحلة فقال ياضعيف اليقين الذى يقدر على حفظ السموات والأرض قادر على أن يوصلنى الى مكة بلا زاد ولا راحلة فلما دخلت مكة فاذا هو بالطواف يقول:

يانفس سيحى أبدا * ولا تحبى أحدا * الا الجليل الصمدا * يانفس موتى كمدا

فلما رآنى قال ياشيخ أنت بعد على ذلك الضعف (وقال أبو مطيع) لحاتم الأصم بلغنى أنك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد قال حاتم زادى أربعة أشياء قال ماهى قال أرى الدنيا والآخرة مملكة الله تعالى وأرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله وأرى الأرزاق والأسباب كلها بيد الله عز وجل وأرى قضاء الله نافذا فى جميع أرض الله، ولقد أحسن من قال:

أرى الزهاد فى روح وراحه * قلوبهم عن الدنيا مزاحه
اذا أبصرتهم أبصرت قوما * ملوك الأرض سيمتهم سماحه

(وأما الأمر الثانى) الذى اقتضى التوكل على الله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن فهو مافى تركه من الخطر العظيم والأمر الكبير (قلت) أليس الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال تعالى ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ فدل على أن الرزق من الله سبحانه لاغير كالخلق ثم لم يكتف بالدلالة حتى وعد فقال عزوجل ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ثم لم يكتف بالضمان حتى أقسم فقال ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ثم لم يكتف بذلك كله حتى أمر

للساعة الشريفة فانها مهمة فى جميع اليوم فعساك أن تدركها وأنت خاشع لله متضرع * ولا تحضر فى الجامع مجالس الخلق ولا مجالس القصاص بل مجلس العلم النافع وهو الذى يزيد فى خوفك من الله تعالى وينقص من رغبتك فى الدنيا فكل علم لايدعك من الدنيا الي الآخرة فالجهل أعود عليك منه فاستعذ بالله من علم لاينفع * وأكثر الدعاء عند طلوع الشمس وعند الزوال وعند الغروب وعند الاقامة وعند صعود الخطيب المنبر وعند قيام الناس الى الصلاة فيوشك أن تكون الساعة الشريفة فى بعض هذه الأوقات واجتهد أن تتصدق فى هذا اليوم بما تقدر عليه وان قل فتجمع بين الصلاة والصوم والصدقة والقراءة والذكر والاعتكاف والرباط واجعل هذا اليوم من الاسبوع خاصة لآخرتك فعساه أن يكون كفارة لبقية الأسبوع

﴿آداب الصيام﴾ لاينبغى أن تقتصر على صوم رمضان فتترك التجارة بالنوافل

بالتوكل وأبلغ وأنذر فقال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وقال سبحانه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فمن لم يعتبر قوله ولم يكتف بوعده ولم يطمئن الى ضمانه ولم يقنع بقسمه ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده فانظر ماذا يكون حاله وأية محنة تجيء من هذا . وهذه والله مصيبة شديدة ونحن منها فى غفلة عظيمة ولقد قال الصادق الأمين ﷺ لابن عمر « كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقِيتَ بَيْنَ قَوْمٍ يُخَبِّئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ لِضَعْفِ الْيَقِينِ » وعن الحسن رحمه الله تعالى : لعن الله أقواما أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه (وقالت) الملائكة عند نزول هذه الآية فورب السماء والأرض : هلك بنو آدم أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم . وعن أويس القرنى رضى الله عنه أنه قال : لو عبدت الله عبادة أهل السموات والأرض لا يقبل منك حتى تصدقه قيل وكيف تصدقه قال : تكون آمنا بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جسدك فارغا لعبادته . ولقد قال له هرم بن حيان : أين تأمرنى أن أقيم فأومأ بيده الى الشام قال هرم كيف المعيشة بها قال : أف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها المواعظ (وبلغنا) أن نباشا تاب على يد أبى يزيد البسطامى رحمه الله تعالى فسأله أبو يزيد عن حاله فقال : نبشت عن ألف قبر فلم أر وجوههم الى القبلة الا رجلين فقال أبو يزيد مساكين ، أولئك تهمة الرزق حولت وجوههم عن القبلة (وذكر) لى بعض أصحابنا رحمه الله تعالى أنه رأى رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله فقال هل سلمت بايمانك فقال : انما يسلم الايمان للمتوكلين . نسأل الله تعالى أن يصلحنا بفضله وأن لا يؤاخذنا بما نحن أهله انه أرحم الراحمين فهذه هذه (فان قلت) فأخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه فى أمر الرزق (فاعلم) أنه انما يتبين لك هذا فى أربعة فصول بيان لفظ التوكل وموضعه وحده وحصنه (فأما اللفظ) فانما هو توكل تفعل من الوكالة فالمتوكل على أحد هو الذى يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لاصلاحه الكافى له من غير تكلف واهتمام فهذه جملته (وأما الموضع) فاعلم أن التوكل اسم مطلق فى ثلاثة مواضع أحدها فى موضع القسمة وهو الثقة بالله لأنه لا يفوتك ما قسم لك فان حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع . والثانى فى موضع النصرة وهو الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك اذا انصرته وجاهدت قال تعالى « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » وقال ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا واجب بالوعد . والثالث فى موضع الرزق والحاجة فان الله تعالى متكفل بما يقيم بنيتك لخدمته وتتمكن به من عبادته وذلك قوله تعالى « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » وقال الصادق الأمين ﷺ « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » وهذا فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعا وهذا هو الأشهر والأبلغ منه أعنى التوكل فى موضع الرزق وهو المقصود من هذا الفصل فموضع التوكل اذن هو الرزق وهو الرزق المضمون فيما قاله العلماء بالله تعالى وانما يتضح لك هذا ببيان أقسام الرزق (فاعلم) أن الرزق أربعة أقسام مضمون ومقسوم ومملوك وموعود (فالمضمون) هو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الأسباب فالضمان من الله تعالى لهذا النوع والتوكل يجب بازائه بدليل العقل والشرع لأن الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا . وقال بعض مشايخ الكرامية كلاما حسنا على أصله ضمان أرزاق العباد واجب فى حكمة الله تعالى لثلاثة أشياء أحدها أنه السيد ونحن العبيد وعلى السيد كفاية مؤنة العبيد كما أن العبيد عليهم

وكسب الدرجات العالية فى الفراديس فتتحسر اذا نظرت الى الصائمين كما تنظر الى الكوكب الدرى وهم فى أعلى عليين . والأيام الفاضلة التى شهدت الأخبار بفضلها وبشرفها وبجزالة الثواب فى صيامها يوم عرفة لغير الحاج ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الاول من المحرم ورجب وشعبان ، وصوم الأشهر الحرم من الفضائل وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد . وهذه فى السنة . وأما فى الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره والأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما فى الأسبوع فيوم الاثنين والخميس والجمعة فتكفر ذنوب الاسبوع بصوم الاثنين والخميس وذنوب الشهر تكفر باليوم الأول من الشهر واليوم الأوسط واليوم الآخر والايام البيض ، وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الأيام والاشهر المذكورة ولا تظن اذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط فقد قال صلى الله عليه وسلم

خدمة السيد . والثانى أنه خلقهم محتاجين الى الرزق ولم يجعل لهم سبيلا الى طلبه اذلا يدرون ماهورزقهم وأين هوومتى هو ليطلبوه بعينه من مكانه وفى وقته ليصلوا اليه فوجب أن يكفيهم أمر ذلك ويوصلهم اليه. والثالث أنه كلفهم الخدمة وطلب الرزق شاغل عنها فوجب أن يكفيهم المؤنة ليتفرغوا للخدمة . وهذا كلام من لم يحط بأسرار الربوبية. والقائل بأن الرزق على الله واجب تافه . وقد أوضحنا فى فن الكلام فساده. ولنرجع الى المقصود من غرضنا (وأما الرزق المقسوم) فهو ماقسمه الله سبحانه وكتبه فى اللوح المحفوظ مما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدر ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عما كتب بعينه كما قال النبى ﷺ «الرِّزْقُ مَقْسُومٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ لَيْسَ تَقْوَى تَقِيٍّ بِزَائِدِهِ وَلَا فُجُورُ فَاجِرٍ بِنَاقِصِهِ » (وأما المملوك) فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ماقدر الله تعالى وقسم له أن يملكه وهو من رزق الله تعالى قال تعالى ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أى مما ملكناكم (وأما الموعود) فهو ماوعدالله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالا من غير كد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فهذه أقسام الرزق والتوكل انما يجب بازاء المضمون منها فاعلم ذلك (وأما حد التوكل) فقد قال شيوخنا انه اتكال القلب الى الله بالانقطاع اليه والاياس عما دونه. وقال بعضهم : حفظ القلب الى الله بموضع المصلحة بترك تعليقه على شىء دونه (وقال) الشيخ الامام أبو عمرو رحمه الله تعالى: التوكل ترك التعلق والتعلق ذكر قوام بنيتك عن شىء دون الله تعالى (قال) شيخى الامام رحمه الله التوكل والتعلق ذكران فالتوكل هو ذكر قوام بنيتك من قبل الله تعالى والتعلق ذكر قوامها عمن دون الله . والأقاويل عندى ترجع الى أصل واحد وهو أن توطن قلبك على أن قوام بنيتك وسد خلتك وكفايتك انما هو من الله عز وجل لا بأحد دون الله ولا بحطام من الدنيا ولا بسبب من الأسباب. ثم الله سبحانه ان شاء سبب له مخلوقا أو حطاما وان شاء كفاه بقدرته دون الأسباب والوسائط واذا ذكرت ذلك بقلبك وتوطنت عليه وانقطع القلب عن المخلوقين والأسباب بمرة الى الله سبحانه وحده فقد حصل التوكل حقه فهذا حده (وأما حصن التوكل) الباعث عليه فهو ذكر ضمان الله وحصن حصنه ذكر جلال الله وكماله فى علمه وقدرته ونزاهته عن الخلف والسهو والعجز والنقص. فاذا واظب العبد على هذه الأذكار بعثته على التوكل على الله سبحانه فى أمر الرزق (فان قيل) هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما (فاعلم) أن الرزق المضمون الذى هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه اذ هو شىء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه (وأما المقسوم) من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه اذ لا حاجة للعبد الى ذلك وانما حاجته الى المضمون وهو من الله تعالى وفى ضمان الله تعالى (وأما قوله تعالى) ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ فالمراد به العلم والثواب وقيل بل هو رخصة اذ هو أمر وارد بعد الحظر فيكون بمعنى الاباحة لا بمعنى الايجاب والالزام (فان قيل) لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلب الأسباب (قيل له) لا يلزمك ذلك اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب فمن أين يلزمنا طلب السبب. ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب قال الله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب مالا يعرف مكانه فيطلبه اذ لا يعرف أى سبب منها رزقه الذى يتناوله لا غير والذى يصير سبب غذائه وتربيته

كلها عما يكره الله تعالى بل ينبغى أن تحفظ العين عن النظر الى المكاره واللسان عن النطق بما لا يعنيك والأذن عن الاستماع الى ماحرم الله فان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين. وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج ففى الخبر «خمسٌ يُفطِّرْنَ الصائمَ: الكذبُ والغيبةُ والنميمةُ والنظرُ بشهوةٍ واليمينُ الكاذبةُ» وقال ﷺ « إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَفسُقْ وَلاَ يَجْهَلْ فَإِنِ امرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صائمٌ » ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال ولا تستكثر فتزيد على ماتأكله كل ليلة لأجل صيامك فلا فرق اذا استوفيت ماتعتاد أن تأكله دفعة أو دفعتين وانما المقصود كسر شهوتك وتضعيف قوتك لتقوى بها على التقوى ، فاذا أكلت عيش مافاتك فقد تداركت به مافاتك فلا فائدة لوصولك وقد ثقلت عليك معدتك ومامن وعاء أبغض الى الله من بطن لا غير

لاغير، فالواحد منا لايعرف ذلك السبب بعينه من أين يحصل له فلا يصح تكليفه فتأمل راشدا فانه بين (ثم حسبك) أن الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء المتوكلين لم يطلبوا ارزاقا فى الأكثر والاعم وتجردوا للعبادة، وبالاجماع انهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ولا عاصين له تعالى فى ذلك، فتبين لك أن طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد (فان قلت) هل يزيد الرزق بالطلب وهل ينقص بترك الطلب فاعلم أنه مكتوب فى اللوح المحفوظ مقدر ومؤقت ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته وكتابته هذا هو الصحيح عند علمائنا رضى الله عنهم خلاف ماذهب اليه بعض أصحاب حاتم وشقيق قالوا : ان الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد لكن المال يزيد وينقص وهذا فاسد لأن الدليل فى الموضعين واحد وهو الكتابة والقسمة واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ولو كان بالطلب يزيد وبالترك ينقص لكان للأسى والفرح موضع اذ هو قصر وتوانى حتى فاته، وجد وشمر حتى حصله وقال ﷺ للسائل «هاكَ لو لم تأتها لأتتك» (فان قيل) فالثواب والعقاب أيضا مكتوب فى اللوح المحفوظ ثم يلزمنا طلب الثواب وترك موجب العقاب فهل يزيد بالطلب أو ينقص بالترك (فاعلم) أن طلب الثواب انما وجب لأن الله أمر به أمرا حتما وأوعد على تركه ولم يضمن الثواب على غير فعل منا، وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد. والفرق بينهما فى نكتة وهى ماقاله بعض علمائنا : أن المكتوب فى اللوح المحفوظ قسمان قسم مكتوب مطلقا من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو الأرزاق والآجال أما ترى كيف ذكرهما الله تعالى مطلقا غير مشروط قال الله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وقال تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ وقال صاحب الشرع عليه السلام : «أربعة قد فرغ منهن الخَلْقُ والخُلُقُ والرزق والأجل» وقسم مكتوب بشرط معلق مشروط بفعل العبد وهو الثواب والعقاب أما ترى كيف ذكرهما الله تعالى فى كتابه معلقين بفعل العبد قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ وهذا بين فاعلمه (فان قيل) فنحن نجد الطالبين يجدون الأرزاق والأموال والتاركين يعدمون ويفتقرون (قيل له) كأنك لاتجد مع ذلك طالبا محروما فقيرا وتاركا فارغا مرزوقا غنيا بلى ان هذا هو الأكثر لتعلم أن ذلك هو تقدير العزيز العليم وتدبير الملك الحكيم . وأنشد أبو بكر محمد بن سابق الواعظ الصقلى بالشام رحمه الله:

كم من قوىٍّ قوىٍّ فى تقلبه * مهذب الرأى عنه الرزق منحرف
وكم ضعيف ضعيف فى تقلبه * كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الاله له * فى الخلق سر خفى ليس ينكشف

(فان قلت) هل تدخل البادية بلازاد (فاعلم) أنه ان كان لك قوة قلب بالله تعالى والثقة البالغة بوعد الله فادخل والا فكن كالعوام بعلائقهم (ولقد سمعت) الامام أبا المعالى رحمه الله يقول : ان من جرى مع الله تعالى على عادة الناس جرى الله معه على ماهو عادة الناس فى كفاية المؤنة . وهذا كلام حسن جدا وفيه فوائد جمة لمن تأملها (فان قلت) أليس الله تعالى يقول «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (فاعلم) أن فيه قولين : أحدهما أنه زاد الآخرة ولذلك قال خير الزاد التقوى ولم يقل حطام الدنيا وأسبابها. والثانى أنه كان قوم لا يأخذون زادا فى طريق الحج لأنفسهم اتكالا على الناس ويسألون الناس ويشكون ويلحون على

ملء من حلال فكيف اذا كان من حرام .فاذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه مااستطعت فانه أساس العبادات ومفتاح القربات قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى «كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا الى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ» وقال ﷺ «وَالذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا يَدَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِى فَالصَّوْمُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ» وقال ﷺ «لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ» فهذا القدر يكفيك من شرح الطاعات من بداية الهداية فاذا احتجت الى الزكاة والى الحج أو الى مزيد شرح الصلاة والصيام فاطلبه مما أوردناه فى كتاب احياء علوم الدين

﴿ القسم الثانى القول فى اجتناب المعاصى ﴾

اعلم أن الدين شطران أحدهما ترك المناهى والآخر فعل الطاعات وترك المناهى هو الأشد فان الطاعات يقدر عليها كل أحد وترك الشهوات لا يقدر عليه الا الصديقون ولذلك قال صلى

ويؤذون الناس فأمروا بالزاد أمر تنبيه على أن أخذ الزاد من مالك خير من أخذ مال الناس والاتكال عليهم وكذلك نقول (فان قلت) فالتوكل هل يحمل الزاد معه في الأسفار (فاعلم) أنه ربما يحمل الزاد ولا يعلق القلب بأنه لامحالة رزقه وفيه قوامه وانما يعلق القلب بالله تعالى ويتوكل عليه ويقول ان الرزق مقسوم مفروغ منه والله تعالى ان شاء أقام بنيتي بهذا أو بغيره وربما يحمل بنية أخرى بأن يعين مسلما أو نحو ذلك وليس الشأن في أخذ الزاد وتركه وانما الشأن في القلب. لا تعلق قلبك الا بوعد الله تعالى وحسن كفايته وضمانه فكم من حامل للزاد وقلبه مع الله دون الزاد وكم من تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى، فالشأن اذا في القلب فافهم هذه الأصول تكف المؤنة ان شاء الله تعالى (فان قيل) فالنبي ﷺ كان يحمل الزاد وكذلك الصحابة والسلف الصالح (يقال له) لاجرم ان ذلك مباح غير حرام وانما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه فافهم ذلك. ثم ماظنك برسول الله ﷺ حيث قال الله تعالى له ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أعصاه في ذلك وعلق قلبه بطعام أو شراب أو درهم أو دينار كلا وحاشا أن يكون ذلك، بل كان قلبه مع الله تعالى وتوكله على الله تعالى كما أمره. فانه الذي لم يلتفت الى الدنيا بأسرها ولم يمد يده الى مفاتيح خزائن الأرض كلها وانما كان أخذ الزاد منه ومن السلف الصالح لنيات الخير لا لميل قلوبهم عن الله تعالى الى الزاد. والمعتبر القصد على ماعلمناك فافهم وانتبه من رقدتك وأفق من غفلتك وتفهم يرشدك الله (فان قلت) أيهما أفضل أخذ الزاد أم تركه (فاعلم) أن هذا يختلف باختلاف الحال ان كان مقتدى به يريد أن يبين أن أخذ الزاد مباح أو ينوي به عون مسلم أو اغاثة ملهوف ونحو ذلك فالأخذ أفضل، وان كان منفردا قوي القلب بالله سبحانه يشغله الزاد عن عبادة الله سبحانه وتعالى فالترك أفضل فتفهم هذه الجملة واحتفظ بها راشدا وبالله التوفيق (العارض الثاني الاخطار وارادتها وقصودها) وانما كفايتها في التفويض فعليك بتفويض الأمر كله الى الله سبحانه وذلك لأمرين: أحدهما طمأنينة القلب في الحال فان الأمور اذا كانت خطيرة مبهمة لايدرى صلاحها من فسادها تكون بها مضطرب القلب هائم النفس لاتدري أتقع في صلاح أو فساد فاذا فوضت الأمر كله الى الله تعالى علمت أنك لاتقع الا في صلاح وخير فتكون آمنا من الخطر والآفة والمخالفة مطمئن القلب في الحال. وهذه الطمأنينة والأمن والراحة في القلب غنيمة عظيمة (وكان شيخنا رحمه الله) يقول في مجلسه كثيرا: دع التدبير الى من خلقك تسترح. وقد أنشد في ذلك:

ان من كان ليس يدري أفي المحـ * ـبوب نفع له أو المكروه
لحري بأن يفوض مايعـ * ـجز عنه الى الذي يكفيه
الاله البر الذي هو بالرأ * فة أحنى من أمه وأبيه

والثاني من الأمرين حصول الصلاح والخير في الاستقبال وذلك لأن الأمور بالعواقب مبهمة فكم من شر في صورة خير وكم من ضر في حلية نفع وكم من سم في هيئة شهد وأنت الجاهل بالعواقب والأسرار، فاذا أردت الأمور قطعا وأخذت فيها باختيارك متحكما فما أسرع ماتقع في هلاك وأنت لاتشعر (ولقد حكي) أن بعض العباد كان يسأل الله أن يريه ابليس فقيل له سل الله العافية فأبى الا ذلك فأظهره الله تعالى له فلما رآه العابد قصده بالضرب فقال له ابليس لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك وعاقبتك

الله عليه وسلم «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه» واعلم أنك انما تعصى الله بجوارحك وانما هي نعمة من الله عليك وأمانة لديك فاستعمالك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران وخيانتك في أمانة أودعكها الله غاية الطغيان فأعضاؤك رعاؤك فانظر كيف ترعاها فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك في عرصات القيامة بلسان طلق ذلق أي فصيح تفضحك به على رؤوس الخلائق قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فاحفظ جميع بدنك وخصوصا أعضاءك السبعة فان جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ولا يتعين لتلك الأبواب الا من عصى الله بهذه الأعضاء السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد

فاغتر

فاغتر بقوله وقال فى نفسه ان عمرى بعيد طويل فأفعل ما أريد ثم أتوب فوقع فى الفسق وترك العبادة فهلك . ففى هذه ماينبهك على ترك الحكم فى ارادتك واللجاج فى مطلوبك ويحذرك طول الامل أيضا فانه الآفة العظيمة ولقدصدق القائل:

وإياك المطامع والأمانى * فكم أمنية جلبت منيه

(وأما) اذا فوضت أمرك الى الله سبحانه وسألته أن يختارلك ماهو صلاحك لم تلق الا الخير والسداد ولا تقع الا على الصلاح قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أماترى كيف أعقب تفويضه الوقاية من الأسواء والنصر على الأعداء وبلوغ المراد . فتأمل موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) بين لنا معنى التفويض وحكمه (فاعلم) أن ههنا فصلين بهما يتضح الكلام: أحدهما موضع التفويض وحكمه والثانى معناه وحده وضده. أما موضعه فاعلم أن المرادات ثلاثة : مراد تعلم يقينا أنه فساد وشر لاشك فيه ألبتة كالنار والعذاب وفى الأفعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل الى ارادة ذلك. والثانى مراد تعلم قطعا أنه صلاح كالجنة والايمان والسنة ونحو ذلك فلك ارادتها بالحكم لاموضع للتفويض فيه اذلا خطر فيه ولاشك أنه خير وصلاح. والثالث مراد لاتعلم يقينا أن لك فيه صلاحا أو فسادا وذلك نحو النوافل والمباحات فهذا موضع التفويض فليس لك أن تريدها قطعا بل بالاستثناء وشرط الخير والصلاح فان قيدت ارادتك بالاستثناء فهو تفويض وان أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم منهى عنه، فموضع التفويض اذا كل مراد فيه الخطر وهو أن لاتستيقن صلاحك فيه. وأما معنى التفويض فقد قال بعض شيوخنا رحمهم الله هو ترك أختيار مافيه مخاطرة الى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لا إله الا هو وعبارة الشيخ أبى محمد السجزى رحمه الله هو ترك اختيارك المخاطرة الى المختار ليختار لك ماهو خير لك . وقال الشيخ أبو عمر رحمه الله هو ترك الطمع والطمع هو ارادة الشىء المخاطر بالحكم فهذه عبارات المشايخ (والذى نقول لك) ان التفويض ارادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لاتأمن فيه الخطر وضد التفويض الطمع . والطمع فى الجملة يجرى على وجهين: أحدهما فى معنى الرجاء تريد شيئا لاخطر فيه أوفيه مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم كما قال الله تعالى ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقال ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ وهذا القسم ليس مما نحن فيه بسبيل ههنا. والثانى طمع مذموم قال النبى ﷺ : «إِيَّاكُمْ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ» (وقيل) هلاك الدين وفساده الطمع وملاكه الورع (قال) شيخنا رحمه الله: الطمع المذموم شيئان سكون القلب الى منفعة مشكوكة والثانى ارادة الشىء المخاطر بالحكم وهذه الارادة تقابل التفويض لاغير فاعلم ذلك (وأما) حصن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وامكان الهلاك والفساد فيها. وحصن حصنه ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر والامتناع عن الوقوع فيها بجهلك وغفلتك وضعفك. والمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الأمور كلها الى الله سبحانه والتحفظ عن الحكم فيها والامتناع عن ارادتها الا بشرط الخير والصلاح فهذه هذه وبالله التوفيق (فان قيل لك) ماهذا الخطر الذى يوجبون التفويض لأجله فى الأمور (فاعلم) أن الخطر فى الجملة خطران: خطر الشك بأنه يكون أولا يكون وأنك تصل اليه أولا

والرجل (أما العين) فانما خلقت لك لتهتدى بها فى الظلمات وتستعين بها فى الحاجات وتنظر بها الى عجائب ملكوت الأرض والسموات وتعتبر بما فيهما من الآيات فاحفظها عن ثلاث أو أربع أن تنظر بها الى غير محرم أو الى صورة مليحة بشهوة نفس أو تنظر بها الى مسلم بعين الاحتقار أو تطلع بها على عيب مسلم (وأما الأذن) فاحفظها عن أن تصغى بها الى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض فى الباطل أو ذكر مساوى الناس فانما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وحكمة أوليائه وتتوصل باستفادة العلم بها الى الملك المقيم والنعيم الدائم . فاذا أصغيت بها الى شىء من المكاره صار ما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك فهذه غاية الخسران . ولا تظنن أن الاثم يختص به القائل دون المستمع ففى الخبر: ان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين (وأما اللسان) فانما خلق لك لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه

تصل اليه. وهذا يحتاج الى الاستثناء ويقع فى باب النية والأمل. والثانى خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك. وهذا الذى يحتاج فيه الى التفويض (ثم) اختلفت عبارات الأئمة فى الخطر فمن بعضهم أن الخطر فى الفعل هو أن تكون دونه نجاة ويمكن أن يجامعه ذنب فالايمان والاستقامة والسنة لا خطر فيها اذ لا يمكن دون الايمان نجاة البتة والاستقامة لا يجامعها ذنب فاذا تصح ارادة الايمان والاستقامة بالحكم (وقال) الأستاذ رحمه الله: الخطر فى الفعل ما يمكن أن يعترض فيه ما يكون الاشتغال بالعارض أولى من الاقدام على ذلك الفعل وذلك يقع فى المباحات والسنن والفرائض. ألا ترى أن من تضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها فعرض له حريق أو غريق يمكنه انقاذه فالاشتغال بانقاذه أولى من الاقبال على صلاته فلا تصح اذا ارادة المباحات والنوافل والكثير من الفرائض بالحكم (فان قيل) كيف يصح أن يفترض الله على عبده شيئا ويوعده على تركه ثم لا يكون له صلاح فى فعله (فاعلم) أن شيخنا رحمه الله قال: ان الله تعالى لا يأمر العبد بشىء الا وفيه صلاحه اذا تجرد عن العوارض ولا يضيق عليه فعلا فرضا بحيث لا معدل له عن ذلك الا وله فيه صلاح. وانما ربما يسبب الله تعالى له عذرا لأجله يكون العدول عن أحد المأمورين أولى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا فيكون العبد فى ذلك معذورا بل مأجورا لا بترك هذا الفرض بل بفعل الفرض الثانى الذى هو أولى (ولقد سمعت) الامام رحمه الله فى هذه المسألة يقول: ان كل ما افترض الله على عباده من الصلاة والصوم والحج ونحوه ففيها صلاح لا محالة للعبد وصحت ارادتها بالحكم. قال فاتفق رأينا على ذلك فبقى المباحات والنوافل اذا فى هذا الحكم فاعلم ذلك فانه من غوامض الباب وبالله التوفيق (فان قيل) هل يأمن المفوض الهلاك والفساد والدار دار محنة (فاعلم) أن فى الأغلب لا يفعل بالمفوض الا الصلاح وقد يفعل به فى النادر غير الصلاح ولذلك ربما يخذله فيقع عن منزلة التفويض ولا صلاح للعبد فى الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض وبه قال الشيخ أبو عمر رحمه الله (وقيل) لا يفعل بالمفوض الا ما فيه صلاحه فيما فوض الى الله سبحانه والخذلان والقصور عن منزلة التفويض، مما لا يقع فيه التفويض اذ لا شك فى فساد ذلك والتفويض انما يقع فى ما يشك فى فساده وصلاحه وهذا أولى القولين عند شيخنا رحمه الله اذ لولا ذلك لما قويت الباعثة على التفويض (فان قيل) هل يجب أن يفعل بالمفوض ما هو الأفضل (فاعلم) أن الايجاب مستحيل فى حق الله تعالى فلا يجب لعباده عليه شىء وقد يفعل بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله، ألا ترى أنه قدر للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن ناموا طول الليل الى طلوع الشمس فى بعض الأسفار حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر والصلاة أفضل من النوم وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وان كان الفقر أفضل وربما يقدر له الاشتغال بالأزواج والأولاد وان كان التجرد لعبادة الله عز وجل أفضل فانه بعباده خبير بصير وهذا كما أن الطبيب الحاذق الناصح يختار للمريض ماء الشعير وان كان ماء السكر أفضل وأنفس لما علم أن صلاح علته فى ماء الشعير والمقصود للعبد النجاة من الهلاك لا الفضل والشرف مع الفساد والهلاك (فان قيل) فهل يكون المفوض مختارا (فاعلم) أن الصحيح عند علمائنا أنه يكون مختارا ولا يقدح فى تفويضه. وذلك أن المعنى فيه اذا كان له صلاح فى المفضول والأفضل فهو يريد من الله تعالى أن يسبب له الأفضل كما أن المريض يقول للطبيب

استعملته فى غير ما خلق له فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك فى قعر جهنم ففى الخبر «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لِيُضْحِكَ بِهَا أَصْحَابَهُ فَيَهْوِي بِهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا» وقتل شهيد فى المعركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل هنيئا له الجنة فقال ﷺ «مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لَا يُغْنِيهِ» فاحفظ لسانك من ثمانية (الأولى) الكذب فاحفظ منه لسانك فى الجد والهزل ولا تعود نفسك الكذب هزلا فيدعوك الى الكذب فى الجد، والكذب من أمهات الكبائر. ثم انك اذا عرفت بذلك سقطت عدالتك وانتفى قولك وتزدريك الأعين وتحتقرك. واذا أردت أن تعرف

اجعل دوائى ماء السكر دون ماء الشعير اذا كان لى صلاح فى كليهما ليحصل لى الفضل والصلاح جميعا، فكذلك العبد اذا سأل الله تعالى أن يجعل صلاحه فيما هو الأفضل ويسبب له ذلك ليجمع له الفضل والصلاح جميعا ولكن بشرط أنه ان اختار الله له الصلاح فى غير الأفضل أن يكون راضيا بذلك (فان قيل) فلماذا كان للعبد أن يختار الأفضل وليس له أن يختار الأصلح (فاعلم) أن الفرق بينهما أن العبد يعرف الأفضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد ليريده بالحكم. ثم ان معنى اختياره الأفضل أن يريد من الله تعالى أن يجعل صلاحه فيما هو الأفضل ويختار له ذلك ويقدره لا أن للعبد تحكما فى شىء من ذلك فاعلمه (فهذه) جملة من دقيق هذا العلم وأسراره، ولولا أن الحاجة مست اليه لما تعرضنا لايراده لأنه تلاطم بحار علوم المكاشفة مع أنى اقتصرت على النكتة المقنعة فى هذا الكتاب وقصدت الايضاح لينتفع به فحول العلماء والمبتدئون ان شاء الله تعالى وبالله التوفيق (العارض الثالث القضاء وورود أنواعه) وانما كفايته فى الرضا به فعليك أن ترضى بقضاء الله عزوجل وذلك لأمرين (أحدهما) للتفرغ للعبادة لأنك اذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بأنه لم كان كذا ولم لا يكون كذا فاذا اشتغل القلب بشىء من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة اذ ليس لك الا قلب واحد وقد ملأته من الهموم وما كان وما يكون من أمر الدنيا فأى موضع بقى فيه لذكر الله ولعبادته وفكر الآخرة (ولقد صدق) شقيق رحمه الله حيث قال: ان حسرة الأمور الماضية وتدبير الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك هذه. (والثانى) من الأمرين خطر مافى السخط من غضب الله تعالى. ولقد روينا فى الأخبار: أن نبيا من الأنبياء شكا بعض مانا له من المكروه الى الله تعالى فأوحى الله تعالى اليه أتشكونى ولست بأهل ذم ولا شكوى هكذا بدا شأنك فى علم الغيب فلم تسخط قضائى عليك أتريد أن أغير الدنيا لأجلك أم أبدل اللوح المحفوظ بسببك فأقضى ماتريد دون ماأريد ويكون ماتحب دون ماأحب، فبعزتى حلفت لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة ولأوردنك النار ولا أبالى. (قلت) فليستمع العاقل هذه السياسة العظيمة والوعيد الهائل مع أنبيائه وأصفيائه فكيف مع غيرهم، ثم استمع قوله عزوجل لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى فهذا فى حديث النفس وتردد القلب فكيف بمن يصرخ ويستغيث ويشكو وينادى بالويل والصراخ من ربه الكريم المحسن على رءوس الملأ ويتخذله أعوانا وأصحابا، وهذا لمن سخط مرة فكيف بمن هو فى السخط على الله تعالى جميع عمره وهذا لمن شكا اليه فكيف بمن شكا الى غيره نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونسأله أن يعفو عنا ويغفر لنا سوء آدابنا ويصلحنا بحسن نظره انه أرحم الراحمين (فان قيل) فما معنى الرضا بالقضاء وحقيقة ذلك وحكمه (فاعلم) أن علماءنا قالوا ان الرضا ترك السخط والسخط ذكر غير ماقضى الله تعالى بأنه أولى به وأصلح له فيما لا يستيقن فساده وصلاحه فهذا شرط فيه فاعلم ذلك (فان قلت) أليس الشرور والمعاصى بقضاء الله تعالى وقدره فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه ذلك (فاعلم) أن الرضا انما يلزم بالقضاء وقضاء الشر ليس بشر وانما الشر هو المقضى فلا يكون رضا بالشر (وقد قال) شيوخنا رحمهم الله تعالى ان المقضيات أربعة نعمة وشدة وخير وشر (فالنعمة) يجب الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه الشكر من حيث انها نعمة واظهار النعمة عليه بابداء أثر النعمة (والشدة) يجب

واستقباحاك لما جاء به، وكذلك فافعل فى جميع عيوب نفسك فانك لاتدرى قبح عيوبك من نفسك بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لامحالة فلا ترض لنفسك ذلك (الثانية) الخلف فى الوعد فاياك أن تعد بشىء ولا تفى به بل ينبغى أن يكون احسانك الى الناس فعلا بلا قول فان اضطررت الى الوعد فاياك أن تخلف لالعجز أو ضرورة فان ذلك من أمارات النفاق وخبائث الأخلاق قال عليه السلام «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهوَ مُنافقٌ وإِنْ صامَ وإِنْ صلَّى: مَنْ اذَا حَدَّثَ كَذَبَ واذَا وَعَدَ أَخْلَفَ واذَا أُئْتُمِنَ خَانَ» (الثالثة) حفظ اللسان من الغيبة والغيبة أشد من ثلاثين زنية فى الاسلام كذلك ورد فى الخبر. ومعنى الغيبة أن تذكر انسانا بما يكرهه لو سمعه، فأنت مغتاب ظالم وان كنت صادقا وأياك وغيبة القراء المرائين وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح فتقول أصلحه الله فقد أساءنى وغمنى ماجرى عليه فنسأل الله أن

أيضا الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضى ويجب عليه الصبر من حيث انها شدة (والخير) يجب فيه الرضا بالقاضي والقضاء والمقضى ويجب عليه ذكر المنة من حيث انه خير وفق له (والشر) يجب عليه فيه الرضا بالقاضي والقضاء والمقضى من حيث انه مقضى لا من حيث انه شر، وكونه مقضيا يرجع الى القضاء والقاضي بالحقيقة، وهذا كما أنك ترضى مذهب المخالف أن يكون معلوما لك لا أن يكون مذهبا لك. ثم كونه معلوما يرجع الى العلم فالرضا والمحبة انما يكونان بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه فكذلك الرضا بالمقضى.

فان قيل فالراضي هل يكون مستزيدا قيل له نعم بشرط الخير والصلاح دون الحكم فلا يخرجه ذلك عن الرضا بل يدل على الرضا فهو أولى لأن من أعجبه شيء ورضي ذلك استزاد منه (وكان النبي) صلى الله عليه وسلم اذا حضر اللبن يقول «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ» وفي غيره يقول «وَزِدْنَا خَيْرًا مِنْهُ» وفي موضع من الموضعين لم يدل على أنه غير راض بما قدر الله تعالى له من ذلك (فان قلت) فلم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم الاستثناء وشرط الخير والصلاح (فاعلم) أن هذه الأمور انما تكون بالقلب وانما يقال باللسان عبارة عن ذلك فلا معتبر بترك عبارته مع حصوله بالقلب فاعلم ذلك موفقا (العارض الرابع الشدائد والمصائب) وانما كفايتها بالصبر (فعليك) بالصبر في المواطن كلها. وانما ذلك لأمرين أحدهما الوصول الى العبادة وحصول المقصود منها فان مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات فمن لم يكن صبورا لم يصل الى شيء منها بالحقيقة وذلك أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها محققا استقبلته شدائد ومحن ومصائب من وجوه (أحدها) أنه لا عبادة الا وفي نفسها مشقة ولذلك كان كل هذا الترغيب فيه ووعد الثواب عليه اذ لا يتأتى فعل العبادة الا بقمع الهوى وقهر النفس اذ هي زاجرة عن الخير، ومخالفة الهوى وقهر النفس من أشد الأمور على الانسان (وثانيها) أن العبد اذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط له حتى لا يفسد عليه والاتقاء على العمل أشد من العمل (وثالثها) أن الدار دار محنة فمن كان فيها فلا بد من الابتلاء بشدائدها ومصائبها وذلك أقسام فمنها المصيبة في الأهل والقرابات والاخوان والأصحاب بالموت والفقد والفراق وفي النفس بأنواع الأمراض والأوجاع، وفي العرض بقتل الناس اياه والطمع فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه، وفي المال بالذهاب والزوال ولكل واحد من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع غير نوع الآخر فيحتاج الى الصبر عليها كلها والا فيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة (ورابعها) أن طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبدا ومن كان الى الله أقرب فالمصائب في الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل .

فاذا من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن فان لم يصبر عليها ولا يكون بحيث لا يلتفت اليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة فلا يصل الى شيء من ذلك (ولقد) أعلمنا الله سبحانه وتعالى باتقاء المحن والمصائب وابتلائنا بها وحقق ذلك وأكده فقال تعالى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ ثم قال ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فكأنه يقول وطنوا أنفسكم على أنه لا بد لكم من أنواع البلايا فان تصبروا فأنتم الرجال وعزائمكم عزائم الرجال فاذا من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولا أن يعزم على الصبر الطويل ويوطن

نفسه

يصلحنا واياه فان هذا النفس والثناء عليها بالتحرج والصلاح ولكن ان كان مقصودك من قولك أصلحه الله الدعاء فادع له في السر. وان اغتممت بسببه فعلامته أنك لا تريد فضيحته واظهار غيبته وفي اظهارك الغم بعيبه اظهار تعييبه ويكفيك زاجرا عن الغيبة قوله تعالى « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة فما أجدر أن تحترز منها. ويمنعك عن غيبة المسلمين أمر لو تفكرت فيه وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن وهل أنت مقارف معصية سرا أو جهرا فاذا عرفت ذلك في نفسك فاعلم أن عجزه عن التنزه عما نسبته اليه كعجزك وعذره كعذرك، كما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضا يكرهه فان سترته ستر الله عيبك وان فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادا يمزقون عرضك في

نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية الى الموت والا فقد قصد الأمر بغير آلته وأتاه من غير وجهه (ولقد ذكر) عن الفضيل رحمه الله أنه قال: من عزم على قطع الطريق للآخرة فليجعل فى نفسه أربعة ألوان من الموت الأبيض والأحمر والأسود والأخضر، فالموت الأبيض الجوع والأسود ذم الناس والأحمر مخالفة الشيطان والأخضر الوقائع بعضها على بعض. (والثانى) من الأمرين مافى الصبر من خير الدنيا والآخرة فمن ذلك النجاة والنجاح قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ معناه من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجا من الشدائد (ومنها) الظفر بالأعداء قال الله تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (ومنها) الظفر بالمراد قال الله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (وقيل) كتب يوسف فى جواب يعقوب عليهما السلام. ان آباءك صبروا فظفروا فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. وفى هذا المعنى قيل:

لاتيأسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

(ومنها) التقدم على الناس والامامة قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ (ومنها) الثناء من الله سبحانه وتعالى قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ومنها) البشارة والصلاة والرحمة قال الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الآية (ومنها) المحبة من الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (ومنها) الدرجات العلا فى الجنة قال الله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (ومنها) الكرامة العظيمة قال تعالى ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ (ومنها) ثواب بلا غاية ولا نهاية خارجا عن أوهام الخلق وأعدادهم وتحصيلهم قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (فسبحانه) من اله سيد ماجد ما أكرمه وكل هذه الكرامات فى الدنيا والآخرة يعطيها عبده على صبر ساعة، فبان لك أن خير الدنيا والآخرة فى الصبر قال ﷺ «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٍ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: جميع خير المؤمنين فى صبر ساعة واحدة. ولقد أحسن القائل

الصبر مفتاح مايرجى * وكل خير به يكون * فاصبر وان طالت الليالى

فربما أمكن الحرون * وربما نيل باصطبار * ماقيل هيهات لا يكون

(ولقائل آخر) صبرت وكان الصبر منى سجية * وحسبك أن الله أثنى على الصبر

سأصبر حتى يحكم الله بيننا * فاما الى يسر واما الى عسر

(فعليك) باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة وبذل المجهود فيها تكن من الفائزين والله تعالى ولى التوفيق (فان قلت) فامعنى حقيقة الصبر وحكمه (فاعلم) أن لفظة الصبر من طريق اللغة الحبس قال الله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية أى احبس نفسك معهم. وانما وصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه العذاب عن المجرمين فلا يعاجلهم به. ثم المعنى الذى هو من مساعى القلب سمى صبرا لأنه حبس النفس عن الجزع. والجزع فيما قاله العلماء ذكر اضطرابك فى الشدة. وقيل بل ارادة الخروج عن الشدة بالحكم والصبر تركه. وحصن الصبر ذكر مقدار الشدة ووقتها وأنها لا تزيد ولا تنقص ولا تتقدم ولا تتأخر ولا فائدة

الدنيا ثم يفضحك الله فى الآخرة على رءوس الخلائق يوم القيامة. وان نظرت الى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيهما على عيب ونقص فى دين ولا دنيا فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة ولا عيب أعظم من الحمق ولو أراد الله بك خيرا لبصرك بعيوب نفسك فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك. ثم ان كنت صادقا فى ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بسب الناس والتمضمض بأعراضهم فان ذلك من أعظم العيوب (الرابعة) المراء والجدال ومناقشة الناس فى الكلام فذلك فيه ايذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم ثم هو مشوش للعيش فانك لا تمارى سفيها الا ويؤذيك ولا تمارى حليما الا ويقليك ويحقد عليك وقد قال ﷺ «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ» ولا ينبغى أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تداهن فيه فان الشيطان أبدا

فى الجزع بل فيه الضرر والخطر. وحصن هذا الحصن ذكر حسن عوض الله تعالى عليه وكريم الذخر فى ذلك لديه فهذه هذه وبالله التوفيق

﴿فصل﴾ (فعليك) بقطع هذه العقبة الشديدة المنيعة بدفع هذه العوارض الأربعة وازاحة عللها والا فلا تدعك تذكر مقصودك من العبادة وتتفكر فيها فضلا على أن تدركها فتحصلها وان لكل واحد منها شغلا شاغلا عاجلا وآجلا (ثم) ان أعظمها وأعضلها أمر الرزق وتدبيره فانه البلية الكبرى لعامة الخلق أتعبت نفوسهم وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم وضيعت أعمارهم وأعظمت سيئاتهم وأوزارهم وعدلت بهم عن باب الله تعالى وخدمته الى خدمة الدنيا وخدمة المخلوقين فعاشوا فى الدنيا فى غفلة وظلمة وتعب ونصب ومهانة وذل وقدموا الى الآخرة مفاليس بين أيديهم الحساب والعذاب ان لم يرحم الله تعالى بفضله وانظر كم آية أنزل الله تعالى فى ذلك وكم ذكر من وعده وضمانه وقسمه على ذلك ولم تزل الأنبياء والعلماء يعظون الناس ويبينون لهم الطريق ويصنفون لهم الكتب ويضربون لهم الأمثال ويخوفونهم بالله تعالى وهم مع ذلك لا يهتدون ولا يتقون ولا يطمئنون بل هم فى غمرة من ذلك لا يزالون يخافون أن يفوتهم غداء أو عشاء. وأصل ذلك كله قلة التدبر لآيات الله سبحانه وقلة التفكر فى صنائع الله وترك التذكر لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك التأمل لأقوال الصالحين مع الاسترسال لوساوس الشيطان والاصغاء الى كلام الجاهلين والاغترار بعادات الغافلين حتى تمكن الشيطان منهم ورسخت العادات فى قلوبهم فأدى بهم ذلك الى ضعف القلب ورقة اليقين (وأما الأخيار) الذين هم أولو الأبصار وأرباب الجد والاجتهاد فأبصروا طريق السماء فلم يعبأوا بأسباب الأرض واعتصموا بحبل الله فلم يكترثوا بعلائق الخلق وتيقنوا بآيات الله تعالى وأبصروا طريقه فلم يلتفتوا الى وساوس الشيطان والخلق والنفس، فاذا وسوس لهم شيطان أو نفس أو انسان بشىء قاموا معه بالمناقشة والمدافعة والمخالفة حتى ولى الخلق عنهم واعتزل عنهم الشيطان وانقادت لهم النفس واستقام لهم الطريق المستقيم على ماذكر عن ابراهيم بن أدهم رحمه الله أنه لما أراد أن يدخل البادية أتاه الشيطان تخوفه بأن هذه بادية مهلكة ولا زاد معك ولا سبب فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية على تجرده ذلك وأن لا يقطعها حتى يصلى تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة وقام بما عزم عليه وبقى فى البادية اثنتى عشرة سنة حتى ان الرشيد حج فى بعض تلك السنين فرآه تحت ميل يصلى فقيل له هذا ابراهيم بن أدهم يصلى فأتاه فقال كيف تجدك ياأبا اسحق فأنشأ ابراهيم يقول:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا مانرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وعن بعض الصالحين رحمه الله أنه كان فى بعض البوادى فوسوس له الشيطان بأنك متجرد وهذه بادية مهلكة لا عمران فيها ولا ناس فعزم على نفسه بأن يمضى على تجرده وأن يترك الطريق حتى لا يأخذ من الناس ولا يأكل شيئا حتى يجعل فى فمه السمن والعسل ثم عدل عن الشارع ومر على وجهه سائحا قال رحمه الله فسرت ماشاء الله فاذا بقافلة قد أضلت الطريق وهم يسيرون فلما أبصرتهم رميت بنفسى الى الأرض لعلهم لا يبصروننى فسيرهم الله عز وجل حتى وقفوا على فغمضت عينى فدنوا منى وقالوا هذا

حسن مع من يقبله منك وذلك بطريق النصيحة فى الخفية لا بطريق المماراة وللنصيحة صيغة وهيئة ويحتاج فيها الى تلطف والا صارت فضيحة وصار فسادها أكثر من صلاحها* ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال وعسر عليه الصمت اذ ألقى عليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل والقدرة على المحاجة والمناقشة وهو الذى يتمدح به ففر منهم فرارك من الأسد واعلم أن المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق (الخامسة) تزكية النفس قال الله تعالى «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» وقيل لبعض الحكماء ماالصدق القبيح فقال ثناء المرء على نفسه. فاياك أن تتعود ذلك. واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله فاذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد فى قدرك عند غيرك فانظر الى أقرانك اذا أثنوا على

منقطع غشى عليه من الجوع والعطش فهاتوا سمنا وعسلا يجعله فى فمه لعله يفيق فأتوا بسمن وعسل فسددت فمى وأسنانى فأتوا بسكين يعالجون فى حتى يفتحوه فضحكت ففتحت فاى فلما رأوا ذلك منى قالوا مجنون أنت قلت لا والحمد لله تعالى وأخبرتهم ببعض ما جرى لى مع الشيطان فتعجبوا من ذلك (وعن بعض مشايخنا) رحمهم الله قال نزلت فى بعض أسفارى فى أيام التعليم مسجدا بعيدا عن الناس وكنت متجردا على عادة أوليائنا فوسوس الى الشيطان بأن هذا مسجد بعيد عن الناس لو سرت الى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا بكفايتك فقلت لا أبيت الا ههنا وعلى عهد الله أن لا آكل شيئا الا الحلواء ولا آكل حتى يوضع فى فمى لقمة لقمة فصليت العتمة وأغلقت الباب فلما مضى صدر من الليل اذا أنا بانسان يدق الباب ومعه سراج فلما أكثر الدق فتحت الباب فاذا أنا بعجوز معها شاب وقد دخلت فوضعت بين يدى طبقا من الخبيص وقالت هذا الشاب ولدى صنعت له هذا الخبيص وجرى بيننا كلام لخلف أن لا يأكل حتى يأكل معه رجل غريب أو قالت هذا الغريب الذى فى المسجد فكل رحمك الله فأخذت تضع فى فمى لقمة وفى فم ولدها لقمة حتى اكتفينا ثم انصرفا وأغلقت الباب على متعجبا مما جرى. فهذه وأمثالها من مجاهدات الصالحين ومناقضتهم للشيطان، فان لك فى ذلك فوائد ثلاثا احداها أن تعلم أن الرزق لا يفوت من قدر له بحال والثانية أن تعلم ان أمر الرزق والتوكل لمهم جدا وأن للشيطان فيه غوائل ووساوس عظيمة حتى ان مثل أولئك الأئمة الزهاد لم يتخالصوا من ذلك ولم ييأس منهم الشيطان بعد طول تلك الرياضات وكثرة المجاهدات التى سبقت لهم حتى يحتاجوا الى دفعه بهذه المناقضات، ولعمرى ان من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة لا يأمن أن يوسوساله كما يوسوسان للمبتدى فى العبادة بل العاقل لم يجتهد ساعة فى الرياضة ولو ظفرا به لفضحاه وأهلكاه هلاك الغافلين المغترين، وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار. والثالثة أن تعلم أن الأمر لا يتم الا بالجد المحض والمجاهدة البالغة فانهم كانوا لحما ودما وبدنا وروحا مثلك بل كانوا أنحف أبدانا وأضعف أركانا وأدق عظاما منك ولكن كانت لهم قوة العلم ونور اليقين وهمة أمر الدين حتى قووا على مثل تلك المجاهدات والقيام بحق تلك المقامات فانظر لنفسك رحمنا الله واياك وداوها من هذا الداء المعضل لعلك تفلح ان شاء الله تعالى

{فصل} ثم اعلم بعد هذه الجملة أنى مجرد لك نكتا وجدتها بحيث تمكث فى القلب اذا تذكرتها وتكفيك مؤنة هذا الباب وتدعك على واضحة من الحق ان تأملتها وعملت بها والله سبحانه الموفق * الأولى أن تعلم أن الله تعالى ضمن الرزق لعباده فى كتابه فقد ضمن رزقك وتكفل لك به فما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا أنه يضيفك الليلة ويعشيك وأنت حسن الظن به أنه صادق ولا يكذب ولا يخلف الوعد بل لو وعدك بذلك سوقى أو يهودى أو نصرانى أو مجوسى مستور عندك بظاهره عفيف فى مقالته ألست تثق به وبوعده وتطمئن بقوله ولا تهتم لعشائك تلك الليلة اتكالا عليه فما بالك وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به بل أقسم عليه فى غير موضع وأنت لا تطمئن بوعده ولا تسكن الى قوله وضمانه ولا تنظر الى قسمه بل يضطرب قلبك ويهتم فيا لها من فضيحة لو رأيت وبالها من مصيبة لو علمت حالها. وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال:

أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك وكيف تذمهم عليه اذا فارقتهم فاعلم أنهم أيضا فى حال تزكيتك لنفسك يذمونك فى قلوبهم ناجزا وسيظهرونه بألسنتهم اذا فارقتهم (السادسة) اللعن فاياك أن تلعن شيئا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو انسان بعينه ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق فان المطلع على السرائر هو الله تعالى فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى واعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك لم لم تلعن فلانا ولم سكت عنه بل لو لم تلعن ابليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره لم تسئل عنه ولم تطالب به يوم القيامة واذا لعنت أحدا من خلق الله تعالى طولبت. ولا تذمن شيئا مما خلق الله تعالى فقد كان النبى ﷺ لا يذم الطعام الردىء قط بل كان اذا اشتهى شيئا أكله والا تركه (السابعة) الدعاء على الخلق احفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى وان ظلمك فكل أمره الى الله تعالى فى الحديث « إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى ظَالِمِهِ حَتَّى

أتطلب رزق الله من عند غيره * وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وان كان مشركا * ضمينا ولا ترضى بربك ضامنا
كأنك لم تقرأ بما فى كتابه * فأصبحت منحول اليقين مباينا

ولهذا المعنى ينجر هذا الأمر الى الشك والشبهة ويخاف على صاحبه والعياذ بالله سلب المعرفة والدين ولهذا المعنى قال سبحانه «وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ» فحسب المؤمن المهتم لأمر دينه هذه النكتة الواحدة ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم. والثانية أن تعلم أن الرزق مقسوم صح ذلك فى كتاب الله تعالى وأخبار رسول الله ﷺ، وتعلم أن قسمته لاتتبدل ولاتتغير فان أنكرت القسمة أوجوزت نقضها فذلك باب الكفر تقرعه نعوذ بالله وان علمت أنه حق لايتغير فأى فائدة فى الاهتمام والطلب الاالذل والهوان فى الدنيا والشدة والخسران فى الآخرة ولذلك قال ﷺ « مَكْتُوبٌ عَلَى ظَهْرِ ٱلْحُوتِ وَٱلثَّوْرِ رِزْقُ فُلَانٍ فَلَا يَزْدَادُ ٱلْحَرِيصُ إِلَّا جَهْدًا » وفى ذلك يقول شيخنا رحمه الله : ان ماقدر لماضغيك أن يمضغاه فلايمضغه غيرك فكل رزقك ويحك بالعز ولاتأكله بالذل وهذه نكتة مقنعة للرجال . والثالثة ماسمعت من شيخى الامام رحمه الله يحكى عن الأستاذ رحمه الله أنه كان يقول ان مما يقنعنى فى أمر الرزق انى تذكرت وقلت فى نفسى أليس هذا الرزق للحياة والعيش والميت مايصنع بالرزق فاذا كان حياة العبد فى خزانة الله تعالى وبيده فكذلك الرزق ان شاء يعطينى وان شاء يمنعنى وهو غيب عنى موكول الى الله تعالى يدبره كيف يشاء وأناساكن النفس بذلك وهذه نكتة لطيفة مقنعة لأهل التحقيق. والرابعة مماذكرنا فى هذا الفصل أن الله تعالى ضمن رزق العباد ولم يضمن الاالرزق المضمون الذى هو الغذاء والتربية وفيه القوام والعدة (وأما الأسباب) من الطعام والشراب فالعبد اذا تجرد لعبادة الله تعالى وتوكل على الله فربما يحبس عنه الأسباب فلايعبأ بذلك ولايضجر لماعلم من حقيقة الأمر أن الضمان لقوام البنية والتوكل على الله سبحانه انما هو فى هذا المعنى لاغير، والمنتظر من الله تعالى هذا المعنى وأن الله تعالى لامحالة يمده بالقوة ليقوم بحق العبادة والخدمة مادام له أجل وتكليف بالعبادة وهذا هو المقصود والله سبحانه قادر على مايشاء ان شاء أن يقيم بنية عبده بطعام وشراب أو بطين وتراب أو بتسبيح وتهليل كالملائكة وان شاء بغير هذا كله فليس مطلوب العبد الاالقوام والقوة للعبادة ليس الأكل والشرب وشدة الشهوة ونيل اللذة فلااعتبار اذا بالأسباب ولهذا المعنى قويت العباد والزهاد على الأسفار وطى الليالى والأيام فمنهم من لم يأكل عشرة أيام ومنهم من لم يأكل شهرا وشهرين وهو على قوته ومنهم من كان يستف الرمل فيجعله الله تعالى له غذاء نحو ماذكر عن سفيان الثورى رحمه الله : أنه نفدت نفقته بمكة فمكث خمسة عشر يوما يستف الرمل. وقال أبو معاوية الأسود : رأيت ابراهيم بن أدهم يأكل الطين عشرين يوما. وعن الأعمش قال قال لى ابراهيم التيمى رحمه الله تعالى : ماأكلت منذ شهر قلت منذ شهر قال ولاشهرين الاأن انسانا ناشدنى الله على عنقود عنب فأكلته فأنا أشتكى بطنى (قلت) أنا ولاتعجبن من ذلك فان لله تعالى القدرة على مايشاء مثل هذا المريض تراه لايأكل شهرا وهو حى يعيش والمريض على كل حال أضعف نفسا وأرق طبعا من القوى (وأما) الذى يموت جوعا فذلك أجل حضره كالذى يموت شبعا وتخمة . ولقد بلغنى

يكافئه ثم يكون للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة » وطول بعض الناس لسانه على الحجاج فقال بعض السلف: ان الله لينتقم للحجاج ممن يتعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه . (الثامنة) المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس فاحفظ لسانك منه فى الجد والهزل فانه يريق ماء الوجه ويسقط المهابة ويستجر الوحشة ويؤذى القلوب وهو مبدأ اللجاج والغضب والتصارم ويغرس الحقد فى القلوب فلا تمازح أحدا وان مازحوك فلا تجبهم وأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وكن من الذين اذا مروا باللغو مروا كراما. فهذه فى مجامع آفات اللسان ولا يعينك عليه الا العزلة وملازمة الصمت الا بقدر الضرورة فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حجرا فى فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة ويشير الى لسانه ويقول هذا الذى أوردنى الموارد كلها. فاحترز منه فانه أقوى أسباب هلاك فى الدنيا والآخرة

عن

(وأما البطن) فاحفظه من تناول الحرام والشبهة واحرص على طلب الحلال فاذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على مادون الشبع فان الشبع يقسى القلب ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء عن العبادة والعلم ويقوى الشهوات وينصر جنود الشيطان والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف من الحرام وطلب الحلال فريضة على كل مسلم والعبادة والعلم مع أكل الحرام كالبناء على السرجين فاذا قنعت فى السنة بقميص خشن وفى اليوم والليلة برغيفين من الخشكار وتركت التلذذ بأطيب الادم لم يعوزك من الحلال ما يكفيك والحلال كثير وليس عليك أن تتيقن بواطن الأمور بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام أو تظن أنه حرام ظنا حصل من علامة ناجزة مقرونة بالمال . أما المعلوم فظاهر وأما المظنون بعلامة فهو مال السلطان وعماله ومال من لا كسب له الا من النياحة أو بيع الخمر أو الربا أو المزامير بما

عن أبى سعيد الخراز رحمه الله أنه قال: كان حالى مع الله سبحانه أن يطعمنى فى كل ثلاثة أيام فدخلت البادية فمضت على ثلاثة أيام ماطعمت فلما كان فى اليوم الرابع وجدت ضعفا فجلست مكانى فاذا بهاتف يقول ياأباسعيد أيما أحب اليك سبب أو قوى فقلت لا الا القوى فقمت من وقتى وقد استقللت فأقمت اثنى عشر يوما ماطعمت ولا وجدت ألما. لذلك (فأما) اذا رأى العبد احتباس الأسباب عنه وعلم من نفسه التوكل على الله فليستيقن أن يمده الله تعالى بالقوة فلا يضجرن لذلك بل حقه أن يشكر الله تعالى على ذلك شكرا كثيرا فان له المنة والصنع اللطيف اذ رفع عنه المئونة وأعطاه المعونة وحصل له الأصل والمقصود ودفع عنه الثقل والواسطة وخرق له علائق العادة وأراه طريق القدرة وشبه حاله بحال الملائكة ورفعه عن حالة البهائم والعامة فى تلك الكرامة. فتأمل هذا الأصل الكبير تغنم الربح الكثير العظيم ان شاء الله تعالى (قلت أيضا) ولعلك تقول انك أطنبت فى هذا الفصل خلاف شرط الكتاب (فأقول) لعمر الله انه لقليل فى حنب مايحتاج اليه فى هذا المعنى اذ هو أهم شأنا فى العبادة بل عليه مدار أمر الدنيا والعبودية فمن له همة فى هذا الشأن فليستمسك بذلك وليراعه حقه والا فهو عن المقصود بمعزل. والذى يدلك على بصيرة علماء الآخرة العارفين بالله أنهم بنوا أمرهم على التوكل على الله والتفرغ لعبادة الله وقطع العلائق كلها فكم صنفوا من كتاب وكم أوصوا بوصية وقيض الله لهم أعوانا من السادة وأصحابا حتى يتمشى لهم من الخير المحض مالم يتمش لطائفة من طوائف الأئمة الازهاد الكرامية فانهم بنوا مذهبهم على أصول غير مستقيمة . ومازلنا أعزة مادمنا على منهاج أئمتنا يخرج من معابدنا ومدارسنا كل حين اما امام فى العلم كالأستاذ أبى اسحق وأبى حامد وأبى الطيب وابن فورك وشيخنا الامام وأمثالهم من السادة واما صديق فى العبادة كأبى اسحق الشيرازى وأبى سعيد الصوفى ونصر المقدسى وغيرهم ممن فاق الأمة علما وزهدا حتى ضعفت القلوب من بعضنا وتلطخنا بشىء من العلائق التى ضررها أكثر من نفعها فتراجعت الأمور وتقاعدت الهمم وطارت البركات وزالت اللذات والحلاوات فلا يكاد يصفو لأحد عبادة أو يحصل له علم وحقيقة وان اللمعة التى تظهر منا الآن ليست الا ممن بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبى ومحمد بن ادريس الشافعى والمزنى وحرملة وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيامَ الا تعففًا * وماوَجدوا من حُب سيدهم بُدا
أفاضلُ صِدّيقون أهلُ ولاية * الى سيد السادات قد جعلوا القصدا
تحلل عقدُ الصبر من كان صابر * وما حلت الأيامُ من عقدهم عقدا

وكنا فى الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة وكنا فرسانا فصرنا رجالة وليتنا لاننقطع عن الطريق بمرة والله المستعان على المصائب وهو المسئول أن لايسلبنا هذا الرمق انه جواد كريم منان رحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (وأما التفويض) فتأمل فيه أصلين أحدهما أنك تعلم أن الاختيار لا يصلح الا لمن كان عالما بالأمور بجميع جهاتها وظاهرها وباطنها وحالها وعاقبتها والا فلا يأمل أن يختار الفساد والهلاك على مافيه الخير والصلاح. ألا ترى أنك لو قلت لبدوى أو قروى أو راعى غنم انقد لى هذه الدراهم وميز لى بين جيدها ورديئها فانه لايهتدى لذلك. ولو قلت لسوقى غير صيرفى فربما يعسر أيضا فلا تأمن اذا الا بأن تعرضها على

الصيرفى الخبير بالذهب والفضة ومافيهما من الخواص والأسرار. وهذا العلم المحيط بالأمور من جميع الوجوه لايصلح الالله رب العالمين فلايستحق اذا أحد أن يكون له الاختيار والتدبير الا الله وحده لاشريك له ولذلك يقول عز من قائل «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» ثم قال تعالى «وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» (وحكى) أن بعض الصالحين قيل له من قبل الله تعالى سل تعط وكان موفقا فقال ان عالما بجميع الوجوه يقول لجاهل من جميع الوجوه سل تعط ايش أعلم ماذا يصلح فأسأله ولكن اختر أنت لى فهذه هذه (الأصل الثانى) ماتقول لو أن رجلا قال لك أنا أقوم بجميع أمورك وأدبر جميع ماتحتاج اليه من مصالحك ففوض الأمر كله الىّ واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك وهو عندك أعلم أهل زمانك وأحكمهم وأقواهم وأرحمهم وأتقاهم وأصدقهم وأوفاهم، ألست تغتنم ذلك وتعده أعظم نعمة وتمتن منه أكبر منة وتقدم له أوفر شكر وأجل ثناء. ثم اذا اختار لك شيئا لا تعرف وجه الصلاح فيه لا تضجر لذلك بل تثق وتطمئن الى تدبيره وتعلم أنه لايختار لك الا ماهو الخير وماينظر لك الا الصلاح كيفما كان الأمر بعدما وكلت الأمر اليه وضمن ذلك، فمالك اذا لا تفوض الأمر الى الله رب العالمين سبحانه فهو الذى يدبر الأمر كله من السماء الى الأرض فهو أعلم كل عالم وأقدر كل قادر وأرحم كل راحم وأغنى كل غنى ليختار لك بلطيف علمه وحسن تدبيره مالا يبلغه علمك ولا يدركه فهمك، واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك فى عاقبتك واذا اختار لك أمرا لا تعلم وجه سره رضيت بذلك واطمأننت اليه كيفما كان فهو الصلاح والخير فتأمل راشدا ان شاء الله وبالله التوفيق (وأما) الرضا بالقضاء فتأمل فيه أصلين مقنعين لامزيد عليهما أحدهما مافى الرضا من الفائدة فى الحال والمآل (أما) الفائدة فى الحال ففراغ القلب وقلة الهم من غير فائدة، ولذلك قال بعض الزهاد رحمه الله: اذا كان القدر حقا فالهم فضلة. وأصله الخبر المأثور عن النبى ﷺ أنه قال لابن مسعود رضى الله عنه: ليقل همك وماقدر يكن ومالم يقدر لم يأتك. هذا هو الكلام الجامع النبوى البالغ فى قلة لفظه وكثرة فائدة معناه (وأما) الفائدة فى المآل فثواب الله تعالى ورضوانه قال الله تعالى «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» ومافى السخط من الهم والحزن والضجر فى الحال والوزر والعقوبة فى المآل بلا فائدة اذ القضاء نافذ فلا ينصرف بهمك وسخطك كما قيل:

ماقد قضى يانفس فاصطبرى له * ولك الأمان من الذى لم يقدر
وتحقق أن المقدر كائن * حتما عليك صبرت أم لم تصبرى

(والعاقل) لايختار الهم بلافائدة مع الوزر والعقوبة على راحة القلب وثواب الجنة (والأصل الثانى) مافى السخط من عظم الخطر والضرر والكفر والنفاق الا أن يتداركه الله تعالى، وتأمل قوله تعالى «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» فنفى الايمان وأقسم على فقد الايمان عمن سخط ووجد فى نفسه حرجا من قضاء رسول الله ﷺ فكيف حال من سخط قضاءه تعالى، وقد روينا أن الله تعالى يقول: من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر على نعمائى فليتخذ إلها سوائى. قيل كأنه يقول هذا لا يرضانى ربا حين يسخط فليتخذ ربا آخر يرضاه. وهذا غاية الوعيد والتهديد لمن عقل. ولقد صدق بعض السلف اذ قيل له ما العبودية وما الربوبية فقال: للرب أن

وغير ذلك من آلات اللهو الحرام حتى من علمت أن أكثر ماله حرام قطعا فما تأخذه من يده وان أمكن أن يكون حلالا نادرا فهو حرام لأنه الغالب على الظن. ومن الحرام المحض مايؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقف فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام ومن ارتكب معصية ترد بها شهادته فما يأخذه باسم الصوفية من وقف أو غيره حرام وقد ذكرنا مداخل الشبهات والحلال والحرام فى كتاب مفرد من كتب احياء علوم الدين فعليك بطلبه فان معرفة الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم كالصلوات الخمس (وأما الفرج) فاحفظه عن كل ما حرّم الله تعالى وكن كما قال الله تعالى «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» ولا تصل الى حفظ الفرج الا بحفظ العين عن النظر وحفظ القلب عن الفكر وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع فان هذه محركات للشهوة ومغارسها (وأما اليدان) فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلما أو تتناول بهما

يقضى وللعبد أن يرضى فاذا قضى الرب ولم يرض العبد فما هناك عبودية ولا ربوبية . فتأمل هذا الأصل وانظر لنفسك لعلك تسلم بعون الله وتوفيقه (وأما الصبر) فانه دواء مر وشربة كريهة مباركة تجلب كل منفعة وتدفع عنك كل مضرة فاذا كان الدواء بهذه الصفة فالانسان العاقل يكره النفس على شربه وتجرعه ويغض على مرارته وحدته ويقول: مرارة ساعة راحة سنة (وأما) النافع التى يجلبها الصبر فاعلم أن الصبر أربعة أقسام: صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر عن فضول الدنيا وصبر على المحن والمصائب . فاذا احتمل مرارة الصبر وصبر فى هذه المواطن الأربعة تحصل له الطاعات ومنازلها من الاستقامة وثوابها الجزيل فى العاقبة ثم لا يقع فى المعاصى وبلياتها فى الدنيا وتبعاتها فى الآخرة ثم لا يبتلى بطلب الدنيا ومالها من الشغل فى الحال والتبعة فى المآب ثم لا يحبط أجره على ما ابتلى به وذهب عنه . فحصل اذا بسبب الصبر الطاعة ومنازلها الشريفة وثوابها والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل من الله سبحانه وتفصيل ذلك أمر لا يعلمه الا الله عز وجل (وأما) دفع المضار فيريحه أولا من مؤنة الجزع ومقاساته فى الدنيا ثم وزره وعقوبته فى العقبى (وأما) ان هو ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فاته كل منفعة ولحقه كل مضرة اذ لا يصبر على مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ولا يصبر على حفظها فيحبطها أو لا يصبر على المواظبة عليها فلا يصل الى منزلة شريفة فيها من درجات الاستقامة أو لا يصبر عن معصية فيقع فيها أو عن فضول فيشتغل به أو لا يصبر على مصيبة فيحرم ثواب الصبور بما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك فتكون له مصيبتان احداهما فوت الشىء والأخرى فوت الأجر والعوض وحلول المكروه وحرمان الصبر . ولقد قيل: حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة فأى فائدة فى شىء يذهب بالحاصل الموجود ولا يرد عليك الذاهب المفقود فاجتهد اذا فاتك أحدهما أن لا يفوتك الآخر (ومن الكلام الجامع) ما ذكر أن عليا رضى الله عنه عزى رجلا فقال: ان صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور (ثم أقول) فجملة الأمر أن قطع القلب عن العلائق المألوفة ومنع النفس عن العادات الراسخة بالتوكل المحض على الله جل اسمه وترك التدبير فى الأمور وتفويضها الى الله سبحانه من غير علم بما هو السر فيها وكبح النفس عن السخط والجزع مع تسارع النفس اليه واكراهها على لجام الرضا وتجرع شربة الصبر مع نفرها عن ذلك الأمر مر وعلاج شديد وحمل ثقيل ولكنه تدبير سديد وطريق مستقيم وله عاقبة محمودة وأحوال سعيدة مسعودة . وما تقول فى الوالد المشفق الغنى اذا منع ولده العزيز رطبة أو تفاحة يأكلها وهو أرمد وسلمه الى المعلم الغليظ السائس يحبسه طول النهار عنده ويضجره ويحمله الى الحجام ليحجمه فيوجعه ويقلقه، أترى أنه منع ذلك من بخل فيه فكيف وهو يعطى الأجانب ويوسع عليهم أو هوان لهذا الولد عنده، كيف وهو يكنز له جميع ما فى يده أو قصد بذلك اتعابه وايذاءه لبغض له كيف وهو قرة عينه وثمرة فؤاده ولو هبت عليه ريح لعز عليه ذلك، كلا ولكن لما علم أن صلاحه فى ذلك وأن بهذا التعب القليل يصل الى خير كثير ونفع عظيم (وما تقول) فى الطبيب الحاذق الناصح المحب اذا منع المريض الدنف شربة ماء وهو ظمآن يتقلى كبده وسقاه شربة اهليلج كريهة تجزع عن ذلك نفسه وطبعه، أترى أن ذلك منه معاداة وايذاء، كلا بل هو نصح واحسان لما علم يقينا أن فى اعطائه شهوته ساعة هلاكه وعطبه رأسا وفى منع ذلك شفاؤه وبقاؤه . فتأمل أيها الرجل اذا حبس الله عنك

مالا حراما أو تؤذى بهما أحدا من الخلق أو تخون بهما فى أمانة أو وديعة أو تكتب بهما مالا يجوز النطق به فان القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه (وأما الرجلان) فاحفظهما عن أن تمشى بهما الى حرام أو تسعى بهما الى باب سلطان ظالم فالمشى الى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وارهاق معصية كبيرة فانه تواضع لهم واكرام لهم على ظلمهم وقد أمر الله تعالى بالاعراض عنهم فى قوله تعالى «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» الآية وان كان ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعى الى الحرام وقد قال ﷺ «مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ صَالِحٍ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ» هذا فى غنى صالح فما ظنك بالغنى الظالم وعلى الجملة فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك فلا تحرك شيئا منها فى معصية الله تعالى أصلا واستعملها فى طاعة الله تعالى (واعلم) أنك ان قصرت فعليك رجع وباله وان شمرت فاليك ترجع ثمرته والله غنى عنك وعن عملك وانما كل نفس بما

رغيفا أودرهما فتعلم يقينا أنه يملك ماتريدو يقدر على ايصاله اليك وله الجود والفضل ويعلم حالك فلا يخفى عليه شيء فلا عدم ولا عجز ولا خفاء ولا بخل تعالى عن ذلك وتقدس فانه أغنى الأغنياء وأقدر القادرين وأعلم العلماء وأجود الأجودين فتعلم اذن بالحقيقة أنه لم يمنعك الا الاصلاح واختيار كيف وهو الذى يقول ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ كيف وهو الذى جاد عليك بمعرفته وهى التى تتلاشى فى جنبها الدنيا بأسرارها وفى الخبر المشهور «ان الله تعالى يقول انى لأذودُ أوليائى عن نعيم الدنيا كما يذودُ الراعى الشفيقُ إبلَه من مَبارك العرّة» واذا ابتلاك بشدة فاعلم يقينا أنه غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك وهو بك رءوف رحيم أماتسمع قوله ﷺ «للهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤمِنِ مِنَ الْوالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا» فاذا علمت هذا علمت أنه لم ينزل بك هذا المكروه الا الصلاح لكن جهلته أنت وهو عليم بذلك ولهذا المعنى تراه يكثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده حتى يقول ﷺ «إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ» ويقول النبى «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ» فاذا رأيت الله يحبس عنك الدنيا أو يكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عنده عزيز وأنك عنده بمكان على وأنه يسلك بك طريق أوليائه فانه يراك ولا يحتاج الى ذلك أماتسمع قوله تعالى «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» اعرف منته عليك فيما يحفظه عليك من صلاحك ويكثر من أجرك وثوابك وينزلك منازل الأبرار والأعزة عنده فكم ترى من عواقب حميدة ومواهب كريمة. والله ولى التوفيق بمنه وفضله

﴿فصل﴾ وبالجملة اذا علمت يقينا أن الله تعالى هو الملىء بضمان رزقك الذى لا بدلك منه فى بقائك وقيامك بعبادته وأنه القادر على مايشاء كيف شاء، وهو البصير بحاجتك حالا فحالا ساعة فساعة اتكلت على ضمانه الحق ووعده الصدق وسكن قلبك بذلك وانصرفت عن ذكر العلائق والأسباب وتعلق قلبك بها اذ العلائق لاتغنيك ولا تكفيك دون الله عزوجل فانه تعالى ييسرأكلها وشربها ثم هو الذى يمرئها ويهنئها ثم هو الذى يلحقك قوتها ونفعها ويدفع عنك ثقلها وضرها وهو تعالى يغنيك ويكفيك دونها اذا شاء فالأمر كله اليه وحده لاشريك له فتوكل عليه لاغير. وكذلك تترك التدبير فى أمورك الى من يدبر السماء والأرض وتريح نفسك عن شىء لايبلغه علمك وفكرك من أمر غد ونظرك فى أمر يكون غدا أو لا يكون وأنه كيف يكون وتكف عن لعل ولو اذ ليس فيه الاشغل القلب وتضييع الوقت ولعله تكون أمور لم تخطر ببالك فيكون ماسبق فى فكرك وتدبيرك وتضييعك الوقت العزيز فيه لغوا بلافائدة بل خسرانا تندم عليه وتغبن فيه لكان شغل القلب فيه وتضييع العمر فى ذلك وفى هذا المعنى لبعض الزهاد رضى الله عنه

سبقت مقاديرُ الاله وحكمُه * فأرِح فؤادَك من لعلّ ومن لَو

وقال الآخر

سيكون ماهو كائن فى وقته * وأخو الجهالة متعب محزون

فلعل ما تخشاه ليس بكائن * ولعل ما ترجوه ليس يكون

وتقول لنفسك فى الجملة: يانفس لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وهو حسبنا ونعم الوكيل إذ هو قدير لانهاية لقدرته حكيم لانهاية لحكمه رحيم لانهاية لرحمته ومن كان بهذه الصفات حقيق أن يتوكل عليه ويفوض الأمر كله اليه فعليك بالتفويض. وكذلك توطن قلبك على أن ماقضى الله ويقضى لك فهو الأوفق

وصاحبها ملقب بالحماقة بتلقيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ» (واعلم) أن قولك هذا أيضا هى قول من يريد أن يصير فقيها فى علوم الدين واشتغل بالبطالة وقال ان الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبى من العلوم ماأفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلق وهو كقول من يريد مالا فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال ان الله كريم رحيم وله خزائن السموات والأرض وهو قادر على أن يطلعنى على كنز من الكنوز أستغنى به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده فأنت اذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما وان كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقا

الأوفق والأصلح وإن كان ذلك لايبلغ علمنا كيفيته ومره وتقول يانفس القدور كائن لامحالة فلا فائدة فى السخط، والخيرة فيما يصنع الله، فلا وجه للسخط. ألست تقولين رضيت بالله ربا فكيف لاترضين بقضائه والقضاء من شأن الربوبية وحقها فعليك بالرضا. وكذلك إذا أصابتك مصيبة وحل بك مكروه فتراعى نفسك عند ذلك وتضبط قلبك حتى لاتجزع ولاتظهر منك شكاية وقلق لاسيما عند الصدمة الأولى فان الشأن هنالك والنفس متسارعة جداً إلى عادة الجزع عند ذلك، وتقول يانفس هذه قدوقعت فلاحيلة لدفعها وقددفع الله تعالى ماهو أكبرمنها فان أنواع البلاء فى خزائنه لكثيرة وإن هذه ستنقضى فلاتبقى وانها سحابة ستنقشع، فتجلدى يانفس قليلا تجدى لذلك سروراً طويلا وثوابا جزيلا بعد أن لادفع للنازل ولافائدة فى الجزع ولامصيبة فى الحقيقة مع العزاء والصبر فتشغل لسانك بالاسترجاع وقلبك بذكر مايحصل لك عندالله تعالى من الأجر، وتتذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام من الأنبياء والأولياء الأعزة على الله تعالى. وإذا حبس عنك الدنيا فى وقت فتقول يانفس هو أعلم بالحال وأرحم بك وأكرم وانه الذى يطعم الكلب فى خسته ويطعم الكافر فى عداوته وأنا عبده العارف الموحد ألا أساوى عنده رغيفا، هذا محال أيضا فاعلمى بالحقيقة أنه لم يحبس ذلك عنك إلا لنفع عظيم وسيجعل الله بعد عسر يسراً، فاصبرى قليلا ترى العجب من لطيف صنعه أما سمعت قول القائل:

توقع صُنعَ ربك سوف يأتى * بما تهواه من فرج قريب
ولاتيأس إذا ماناب خطبٌ * فكم فى الغيب من عجب عجيب

﴿ وقول الآخر مثله ﴾

ألا يا أيها المرء الــذى الهم به برّح اذا اشتدت بك العسرى * ففكر فى ألم نشرح
فعسر بين يسرين * اذا كررته فافرح

فاذا أجريت هذه الأذكار ونحوها وواظبت عليها بالتكرير والتمرين فان ذلك سيهون عليك إذا كانت لك همة واجتهاد زمانا غير طويل (ولقد) دفعت هذه العوارض الأربعة عن نفسك وكفيت مؤنتها وصرت عند الله تعالى من المتوكلين المفوضين الراضين بقضائه الصابرين على بلائه وحصلت لنفسك راحة القلب والبدن فى الدنيا وعظيم الثواب والذخر فى العقبى وجليل القدر والمحبة عند رب العالمين فيجتمع لك خير الدارين وتستقيم لك طريق العبادة إذلاعائق ولاشاغل وكنت حينئذ قد قطعت هذه العقبة العسرة والله تعالى المسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه فان الأمر كله بيده وهو أرحم الراحمين ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم

﴿ الباب الخامس فى العقبة الخامسة وهى عقبة البواعث ﴾

ثم عليك ياأخى بالسير إذا استقام لك الطريق وسهلت السبيل وارتفعت العوائق وزالت العوارض ولايحصل لك السير المستقيم إلابا ستشعار الخوف والرجاء والتزامهما حقهما على حدهما، أما الخوف فانما يجب التزامه لأمرين أحدهما الزجر عن المعاصى فان هذه النفس الأمارة بالسوء ميالة الى الشر طماحة الى الفتنة فلا تنتهى عن ذلك الابتخويف عظيم وتهديد بالغ ليست هى فى طبعها حرة يهمها الوفاء ويمنعها الحياء عن

والله تعالى يقول ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ويقول ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ويقول ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ فاذا لم تترك السعى فى طلب العلم والمال اعتمادا على كرمه فكذلك لاتترك التزود للآخرة ولا تغتر فان رب الدنيا والآخرة واحد وهو فيهما كريم ورحيم ليس يزيد له كرم بطاعتك وانما كرمه فى أن ييسر لك طريق الوصول الى الملك المقيم المخلد بالصبر على ترك الشهوات أياما قلائل وهذا نهاية الكرم فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين واقتد بأولى العزم والنهى من الأنبياء والصالحين ولا تطمع فى أن تحصد مالم تزرع وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفرله، فهذه جملة ماينبغى أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة، وأعمال هذه الجوارح انما تترشح من صفات القلب فان أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب

الجفاء انما هي كما قال القائل :

العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامه

والتدبير فى أمرها أن تقرعها أبدا بسوط التخويف قولا وفعلا وفكرا نحو ماذكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعته الى معصية فانطلق ونزع ثيابه وجعل يتمرغ فى الرمضاء ويقول لنفسه ذوق فنار جهنم أشد حرا من هذه أى جيفة بالليل بطالة بالنهار والثانى لئلا يعجب بالطاعات فيهلك بل يقمعها بالذم والعيب والنقص بما فيها من الأسواء والأوزار التى فيها ضروب الأخطار ونحو ذلك وذلك نحو ماذكر عن النبى ﷺ أنه قال « لَوْ أَنِّي وَعِيسَى أُخِذْنَا بِمَا كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذِّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ وَأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ » وعن الحسن أنه كان يقول : ما يأمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنبا فطبق باب المغفرة دونه فهو يعمل فى غير معمل . وعن ابن المبارك فيما يعاتب نفسه : تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين وفى الجنة تطمعين هيهات هيهات ان للجنة قوما آخرين ولهم أعمال غير ما تعملين. فهذه وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها للنفس وتكريرها عليها لئلا تعجب بطاعة أو تقع فى معصية وبالله التوفيق (وأما) الرجاء فانما يلزمك استشعاره لأمرين : أحدهما للبعث على الطاعات وذلك أن الخير ثقيل والشيطان عنه زاجر والهوى الى ضده داع وحال أهل الغفلة من عامة الخلق فى النفس منطبع مشاهد والثواب الذى يطلب بالطاعات عن العين غائب وأمد الوصول اليه فيما يحسبه بعيد واذ كان الحال على هذه الحالة فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه ولا تهتز له الا بأمر يقابل كل هذه الموانع ويساويها بل يزيد عليها وذلك الأمر هو الرجاء القوى فى رحمة الله والترغيب البالغ فى حسن ثوابه وكريم أجره . ولقد قال شيخنا رحمه الله : الحزن يمنع عن الطعام والخوف يمنع من الذنوب والرجاء يقوى على الطاعات وذكر الموت يزهد فى الفضول. والثانى ليهون عليك احتمال الشدائد والمشقات (واعلم) أن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ومن طلب له شىء ورغب فيه حق رغبته احتمل شدته ولم يبال بما يلقى من مؤنته. ومن أحب أحدا حق محبته أحب أيضا احتمال محنته حتى انه ليجد بتلك المحنة ضروبا من اللذة ، ألا ترى مشتار العسل لا يبالى بلسع النحل لما يتذكر حلاوة العسل والأجير لا يعبأ بارتقاء السلم الطويل مع الحمل الثقيل طول النهار الصائف المديد لما يتذكر من أخذ درهمين بالعشى وأن الفلاح لا يتفكر بمقاساة الحر والبرد ومباشرة الشقاء والكد طول السنة لما يتذكر من البيدر أوان الغلة، وكذلك يا أخى العباد الذين هم أهل الاجتهاد اذا ذكروا الجنة فى طيب مقيلها وأنواع نعيمها من حورها وقصورها وطعامها وشرابها وحليها وحللها وسائر ما أعده الله تعالى لأهلها هان عليهم ما احتملوه من تعب فى عبادة أو ما فاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة ونالهم من ضر وذلة أو نقمة أو مشقة لأجلها (ولقد حكى) أن أصحاب سفيان الثورى رحمه الله تعالى كلموه فيما كانوا يرون من خوفه واجتهاده ورثاثة حاله فقالوا يا أستاذ لو نقصت من هذا الجهد نلت مرادك أيضا ان شاء الله تعالى، فقال سفيان كيف لا أجتهد وقد بلغنى أن أهل الجنة يكونون فى منازلهم فيتجلى لهم نور تضىء له الجنان الثمانية فيظنون أن ذلك نور من قبل الرب سبحانه فيخرون ساجدين فينادون أن ارفعوا رءوسكم ليس الذى تظنون انما هو نور جارية تبسمت فى وجه زوجها ثم أنشأ يقول:

ماضر من كانت الفردوس مسكنه * ماذا تَحَمَّلَ من بؤس وإقتار

وهو التقوى الباطن بصلاحه لتصلح به جوارحك (القول فى معاصى القلب) اعلم أن الصفات المذمومة فى القلب كثيرة وتطهير القلب من رذائلها طويل وسبيل العلاج فيها غامض وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الخلق عن أنفسهم واشتغالهم بزخارف الدنيا وقد استقصينا ذلك كله فى كتاب احياء علوم الدين فى ربع المهلكات أو ربع المنجيات ، ولكننا نحذرك الآن ثلاثا من خبائث القلب هى الغالبة على متفقهة العصر لتأخذ منها حذرك فانها مهلكات فى أنفسها وهي أمهات لجملة من الخبائث سواها وهى الحسد والرياء والعجب فاجتهد فى تطهير قلبك منها فان قدرت عليها فتعلم كيفية الحذر من بقيتها من ربع المهلكات فان عجزت عن هذا فأنت عن غيره أعجز ولا تظنن أنك تسلم بنية صالحة فى تعلم العلم وفى قلبك شىء من الحسد والرياء والعجب وقد

تراه يمشى كئيبا خائفا وجلا * الى المساجد يمشى بين أطمار
يانفس مالك من صبر على لهب * قد حان أن تقبلى من بعد ادبار

(قلت أنا) فاذا كان مدار أمر العبودية على الأمرين : القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية وذلك لايتم مع هذه النفس الأمارة بالسوء الا بترغيب وترهيب وترجية وتخويف فان الدابة الحرون تحتاج الى قائد يقودها والى سائق يسوقها واذا وقعت فى مهواة فربما تضرب بالسوط من جانب ويلوح لها الشعير من جانب آخر حتى تنهض وتتخلص مما وقعت فيه . وان الصبي العرم لايمر الى الكتاب الا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم فكذلك هذه النفس دابة حرون وقعت فى مهواة الدنيا فالخوف سوطها وسائقها والرجاء شعيرها وقائدها وانها الصبي العرم يحمل الى كتاب العبادة والتقوى فذكر النار والعقاب تخويفه وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه فكذلك يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة أن يشعر النفس بالأمرين اللذين هما الخوف والرجاء والا فلا تساعد النفس الجموح على ذلك وبهذا المعنى ورد الله كر الحكيم بمجموع الأمرين الوعد والوعيد والترغيب والتهديد وبالغ فى كل واحد منهما فذكر من الثواب الكريم مالا صبر عنه وذكر من العقاب الأليم مالا صبر عليه . فعليك اذن بالتزام هذين المعنيين يحصل لك مرادك من العبادة ويسهل عليك احتمال المشقة والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته (فان قلت) فما حقيقة الرجاء والخوف وحكمهما فاعلم أن الخوف والرجاء عند علمائنا رحمهم الله تعالى يرجعان الى قبيل الخواطر وانما المقدور للعبد مقدماتها قالوا فالخوف رعدة تحدث فى القلب عن ظن مكروه يناله والخشية نحوه لكن تقتضى ضربا من الاستعظام والمهابة وضد الخوف الجراءة ولكن قد يقابل بالامن يقال خائف وآمن وخوف وأمن لأن الآمن الذى يجترئ على الله سبحانه والحقيقة ان الجراءة تضاده . ومقدمات الخوف أربع : الأولى ذكر الذنوب الكثيرة التى سبقت وكثرة الخصوم الذين مضوا الى العالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد * والثانية ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التى لاطاقة لك بها * والثالثة ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة * والرابعة ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء (وأما الرجاء) فهو ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه واسترواحه الى سعة رحمة الله تعالى وهذا من جملة الخواطر غير مقدور للعبد ورجاء هو مقدور للعبد وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته وقد سمى أيضا ارادة الخاطرة بالاستثناء رجاء والمراد من هذا الباب هو الأول وهو التذكر على حسب الابتهاج والاسترواح وضده اليأس وهو تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة وهذا الرجاء فرض اذا لم يكن للعبد سبيل الى الامتناع عن اليأس الا به والا فهو نفل بعد اعتقاد الجملة فى فضل الله وسعة رحمته . ومقدمات الرجاء أربع : الأولى ذكر سوابق فضله اليك من غير قدم أو شفيع * والثانية ذكر ماوعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك اياه بالفعل اذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شىء وأصغر أمر * والثالثة ذكر كثرة نعمة الله عليك فى أمر دينك ودنياك فى الحال من أنواع الامداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال * والرابعة ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه وانه الرحمن الرحيم الغنى الكريم الرءوف بعباده المؤمنين فاذا واظبت على هذين النوعين من الأذكار أفضى بك الى استشعار الخوف والرجاء بكل حال. والله تعالى ولى التوفيق بمنه وفضله

(أما الحسد فهو متشعب من الشح فان البخيل هو الذى يبخل بما فى يده على غيره . والشحيح هو الذى يبخل بنعمة الله وهى فى خزائن قدرته لافى خزائنه على عباد الله تعالى فشحه أعظم. والحسود هو الذى يشق عليه انعام الله تعالى من خزائن قدرته على عبد من عباده بعلم أو مال أو محبة فى قلوب الناس أو حظ من الحظوظ حتى انه ليحب زوالها عنه وان لم يحصل له من ذلك مصلحة وهذا منتهى الخبث فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اَلْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » والحسود هو المعذب الذى لايرحم ولايزال فى عذاب دائم فى الدنيا فان الدنيا لاتخلو قط عن خلق كثير من أقرانه ومعارفه ممن أنعم الله عليهم بعلم أو مال أوجاه فلا يزال فى عذاب دائم فى الدنيا الى موته ولعذاب الآخرة أشد وأكبر بل لايصل العبد الى حقيقة الايمان مالم يحب لسائر المسلمين مايحب لنفسه بل ينبغى

﴿ فصل ﴾ فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة فى تمام الاحتياط والتحرز وحد الرعاية فانها عقبة دقيقة المسلك خطرة الطريق وذلك ان طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين: أحدهما طريق الأمن * والثانى طريق اليأس وطريق الرجاء والخوف هو طريق العدل بين الطريقين الجائرين فان غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف البتة وقعت فى طريق الأمن ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وان غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء البتة وقعت فى طريق اليأس ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فان كنت ركبت بين الخوف والرجاء واعتصمت بهما جميعا فهو الطريق العدل المستقيم التى هى سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم الله تعالى بقوله «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ» فاذا ظهرت لك فى هذه العقبة طرق ثلاثة: طريق الأمن والجراءة وطريق اليأس والقنوط وطريق الخوف والرجاء ممتدا بينهما فان ملت عنه بقدم الى يمينك أو يسارك وقعت فى المهلكين وهلكت مع الهالكين ثم الشأن أن الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالا وأكثر داعيا وأسهل سلوكا من الطريق العدل لأنك اذا نظرت من جانب الأمن رأيت من سعة رحمة الله وكثرة فضله وغاية جوده مالا يبقى لك معه خوف فتتكل على ذلك بمرة وتأمن وان نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته وكثرة هيبته ودقة أمره وغاية مناقشته مع أوليائه وأصفيائه مالا يكاد يبقى معه رجاء فتيأس بمرة وتقنط فتحتاج اذا أن لا تنظر الى سعة رحمة الله فقط حتى تتكل وتأمن ولا الى عظيم الهيبة والمناقشة فقط حتى تقنط وتيأس بل تنظر الى هذا والى هذا جميعا وتأخذ من هذا بعضا ومن هذا بعضا فتركب بينهما طريقا دقيقا وتسلك ذلك لتسلم فان طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض وعاقبته تؤديك الى الأمن والخسران، وطريق الخوف المحض واسع عريض وعاقبته تؤديك الى الضلال وطريق العدل بينهما أعنى طريق الخوف والرجاء وذلك وان كان طريقا دقيقا عسرا فانه سبيل سالم ومنهج يبين يؤدى الى الغفران والاحسان ثم الجنان والرضوان ولقاء الملك الرحمن سبحانه أما تسمع قوله تعالى فى أبناء هذا السبيل «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا» ثم قال «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فتأمل هذه الجملة جدا وتشمر وتنبه للأمر فانه لا يجىء بالهوينا والله ولى التوفيق. ثم اعلم أنه لا يأتى لك سلوك هذه الطريق وحمل هذه النفس الجموح الكسلى عن الخير باجتناب المحبوب عندها واكتساب الطاعات الثقيلة عليها الا بالتحفظ بثلاثة أصول والتذكر لها على سبيل الدوام من غير فترة ولا غفلة * أحدها ذكر أقواله تعالى سبحانه فى الترغيب والترهيب * والثانى ذكر أفعاله سبحانه فى الأخذ والعفو * والثالث ذكر جزائه للعباد فى المعاد من الثواب والعقاب وتفصيل كل فصل منها يحتاج الى صحف كثيرة ولأجلها صنفنا كتاب تنبيه الغافلين . ونحن نشير فى هذا الكتاب الى كلمات توقفك على المقصود ان شاء الله عز وجل والله ولى التوفيق (الأصل الأول أقواله سبحانه وتعالى) تدبر أيها الرجل ما فى الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب والترجية والتخويف فمن آيات الرجاء قوله تعالى «لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا * وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ * وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ * كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ * وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

يتقون

أن يساويهم فى السراء والضراء فالمسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد اذا شكا منه عضو اشتكى سائر الجسد فان كنت لا تصادف هذا من قلبك فاشتغالك بطلب التخلص من الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات (وأما الرياء) فهو الشرك الخفى وهو أحد الشركين وذلك طلبك منزلة فى قلوب الخلق لتنال بها الجاه والحشمة وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس فما أهلك الناس الا الناس فلو أنصف الناس حقيقة لعلموا أن أكثر ما هم فيه من العلوم والعبادات فضلا عن أعمال العادات ليس يحملهم عليها الا مراءاة الناس وهى محبطة للأعمال كما ورد فى الخبر ان الشهيد يؤمر به يوم القيامة الى النار فيقول يارب استشهدت فى سبيلك فيقول الله تعالى أردت أن يقال فلان شجاع وقد قيل ذلك وذلك أجرك. وكذا يقال للعالم والحاج والقارئ (وأما العجب والكبر والفخر) فهو الداء العضال وهو نظر العبد الى نفسه بعين العزة والاستعظام والى غيره بعين

يتقون * إن الله بالناس لرءوف رحيم * وكان بالمؤمنين رحيما » فهذه ونحوها آيات الرجاء. ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى « ياعباد فاتقون * أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا * وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون * وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » نسأل الله تعالى أن يسلمنا برحمته. ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله تعالى « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » ثم قال فى عقبه « وأن عذابى هو العذاب الأليم » لئلا يستولى عليك الرجاء بمرة وقوله تعالى « شديد العقاب » ثم قال فى عقبه « ذى الطول لا إله إلا هو » لئلا يستولى عليك الخوف بمرة وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى « ويحذركم الله نفسه » ثم قال فى عقبه « والله رءوف بالعباد » وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى « من خشى الرحمن بالغيب » علق الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار والمنتقم والمتكبر ونحوه لتكون الخشية مع ذكر الرحمة فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة فيكون تخويفا فى تأمين وتحريكا فى تسكين كما تقول أما تخشى الوالدة الرحيمة أما تخاف الوالد المشفق أما تحذر الأمير الكريم، والمراد من ذلك أن يكون الطريق عدلا فلا تذهب الى أمن وقنوط جعلنا الله وإياكم من المتدبرين لهذا الذكر الحكيم والعاملين بما فيه برحمته انه هو الجواد الكريم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(الأصل الثانى فى أفعاله عز وجل ومعاملاته) أما من جانب الخوف فاعلم أن ابليس عبده ثمانين ألف سنة فلم يترك فيما قيل موضع قدم الا وسجد لله تعالى فيه سجدة ثم ترك أمرا واحدا فطرده عن بابه وضرب بوجهه عبادة ثمانين ألف سنة ولعنه الى يوم الدين وأعد له عذابا أليما الى أبد الآبدين حتى روى أن الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه رأى جبريل عليه السلام متعلقا بأستار الكعبة وهو يصرخ وينادى إلهى وسيدى لاتغير اسمى ولا تبدل جسمى. ثم آدم ﷺ صفيه ونبيه الذى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وحمله على أعناقهم الى جواره انبسط فأكل أكلة واحدة لم يؤذن له فيها فنودى ألا لا يجاورنى من عصانى وأمر الملائكة الذين حملوا سريره يزجونه من سماء الى سماء حتى أوقعوه بالأرض ولم يقبل توبته فيما روى حتى بكى على ذلك مائة سنة ولحقه من الهوان والبلاء ما لحقه وبقيت ذريته فى تبعات ذلك على الأبد. ثم ان نوحا عليه السلام شيخ المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذى احتمل فى أمر دينه ما احتمل لم يقل الا كلمة واحدة على غير وجهها اذ نودى « فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » حتى روى فى بعض الأخبار أنه لم يرفع رأسه الى السماء حياء من الله أربعين سنة. ثم ان ابراهيم خليل الله عليه السلام لم يكن منه الا هفوة واحدة فكم خاف وتضرع وقال: « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » حتى روى أنه كان يبكى من شدة الخوف فيرسل الله تعالى اليه الأمين جبريل عليه السلام فيقول ياابراهيم هل رأيت خليلا يعذب خليله بالنار فيقول ياجبريل اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلته. ثم موسى بن عمران ﷺ لم يكن منه الا لطمة واحدة عن حدة فكم خاف وتضرع واستغفر وقال: رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم فى زمانه بلعم بن باعوراء كان بحيث اذا نظر الى السماء يرى العرش وهو المعنى بقوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » ولم يكن منه الا أنه مال الى الدنيا وأهلها

الاحتقار ونتيجته على اللسان أن يقول أنا وأنا كما قال ابليس اللعين أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. وثمرته فى المجالس الترفع والتقدم وطلب التصدر فى المحاورة والاستنكاف من أن يرد كلامه عليه. والمتكبر هو الذى ان وعظ أنف، أو وعظ عنف وكل من رأى نفسه خيرا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر بل ينبغى لك أن تعلم أن الخير من هو خير عند الله فى دار الآخرة وذلك غيب وهو موقوف على الخاتمة فاعتقادك فى نفسك أنك خير من غيرك جهل محض بل ينبغى أن لا تنظر الى أحد الا وترى أنه خير منك وأن الفضل له على نفسك فان رأيت صغيرا قلت هذا لم يعص الله وأنا عصيته فلا شك أنه خير منى وان رأيت كبيرا قلت هذا قد عبد الله قبلى فلا شك أنه خير منى وان كان عالما قلت هذا قد أعطى مالم أعط وبلغ مالم أبلغ وعلم ما جهلت فكيف أكون مثله وان كان جاهلا قلت هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله على آكد وماأدرى

ميلة واحدة وترك لولى من أوليائه حرمة واحدة فسلبه الله معرفته وجعله بمنزلة الكلب المطرود فقال «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ» الآية فأوقعه فى بحر الضلال والهلاك الى آخر الأبد حتى سمعت بعض العلماء يقول انه كان فى أول أمره بحيث يكون فى مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه أن ليس للعالم صانع نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه ومن عذابه الأليم وفظيع خذلانه الذى لاطاقة لنا به. فانظر الى خبث الدنيا وشؤمها ماذا يجلب للعلماء خاصة فتنبه فان الأمر خطير والعمر قصير وفى العمل تقصير والناقد بصير فان ختم بالخير أعمالنا وأقال الناعثراتنا فما ذلك عليه بعسير. ثم ان داود عليه السلام خليفته فى أرضه أذنب ذنبا واحدا فبكى على ذلك حتى نبت العشب من دموعه وقال: إلهى أما ترحم بكائى وتضرعى فأجيب ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ولم يقبل توبته أربعين يوما وقيل أربعين سنة. ثم يونس نبيه عليه السلام غضب غضبة واحدة فى غير موضعها فسجنه فى بطن الحوت تحت قعر البحار أربعين يوما وهو ينادى «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» وسمعت الملائكة صوته فقالوا إلهنا وسيدنا صوت معروف من موضع مجهول فقال الله تعالى ذلك صوت عبدى يونس فتشفعت فيه الملائكة ثم مع ذلك كله غير اسمه فقال «وَذَا النُّونِ» فنسبه الى سجنه ثم قال «فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» ثم ذكر نعمته ومنته فقال «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» فانظر الى هذه السياسة أيها المسكين وكذلك هلم جرا الى سيد المرسلين أكرم خلقه عليه يقول له «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»: حتى كان النبى ﷺ يقول «شيبتنى هود وأخواتها. قيل عنى هذه الآية وأشكالها فى القرآن فقال الله تعالى «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» الى أن من الله عليه بالغفران فقال «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ» وقال تعالى «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» وكان بعد ذلك صلوات الله عليه يصلى الليل حتى تورمت قدماه فيقولون أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا. وكان عليه السلام يقول «لو أنى وعيسى أوخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين» وكان يصلى الليل ويبكى ويقول «أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ثم الصحابة الذين هم خير قرن فى خير أمة كان يبدو منهم شىء من المزاح فنزل قوله «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» الآية ثم وضع فى هذه الأمة مع كونها مرحومة الحدود والسياسات العظيمة والآداب حتى كان يونس بن عبيد يقول: لا تأمن من قطع فى خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون غدا عذابه هكذا. نسأل الله تعالى الرحيم الكريم سبحانه أن لا يعاملنا الا بمحض كرمه انه أرحم الراحمين. وأما من جانب الرجاء فحدث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج ومن الذى يعرف غايتها أو يعرف وصفها ونهايتها فانه الذى يهب كفر سبعين سنة بإيمان ساعة قال الله تعالى «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» أما ترى فى أمر سحرة فرعون الذين جاءوا لحربه وحلفوا بعزة فرعون عدوه فما كان الا أن رأوا آية موسى عليه السلام فعرفوا الحق فقالوا آمنا برب العالمين ولم يذكر أنهم زادوا عليها عملا. ثم انظر كم كرر كرهم

بم يختم لى وبم يختم له وان كان كافرا قلت لاأدرى عسى أن يسلم ويختم له بخير العمل وينسل باسلامه من الذنوب كما تنسل الشعرة من العجين وأما أنا والعياذ بالله فعسى أن يضلنى الله فأكفر فيختم لى بشر العمل فيكون هو من المقربين وأنا أكون من المعذبين فلا يخرج الكبر من قلبك الا بأن تعرف أن الكبير من هو كبير عند الله تعالى وذلك موقوف على الخاتمة وهى مشكوك فيها فيشغلك خوف الخاتمة عن أن تتكبر مع الشك فيها على عباد الله تعالى فيقينك وإيمانك فى الحال لا يناقض تجويزك التغير فى الاستقبال فان الله مقلب القلوب يهدى من يشاء ويضل من يشاء والأخبار فى الحسد والكبر والرياء والعجب كثيرة ويكفيك فيها حديث واحد جامع فقد روى ابن المبارك باسناده عن رجل أنه قال لمعاذ يامعاذ حدثنى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لايسكت ثم سكت ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لى «يامعاذ إنى محدثك بحديث إن

فى

في معنى المدح في كتابه العزيز وكم كبائر وصغائر غفر لهم بإيمان ساعة واحدة بل لحظة فما قالوا الآن آمنا برب العالمين عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف ثم كيف جعلهم رءوس الشهداء في الجنة أبد الآبدين فهذا حال من عرفه ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد فكيف حال من أفنى عمره في توحيده ولا يرى لذلك أهلا في الدارين غيره أما ترى أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا» والتجأوا إليه كيف قبلهم ووهب لهم ثم أعزهم وأكرمهم فقال «وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ» وكيف أعظم لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حتى يقول لأكرم الخلق عليه «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا» بل كيف أكرم كلبا تبعهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات ثم جعله معهم في الدنيا محجورا ويدخله الجنة في الآخرة مكرما فهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أياما معدودة من غير عبادة أو خدمة فكيف فضله مع عبده المؤمن الذي خدمه ووحده وعبده سبعين سنة وكيف لو عاش سبعين ألف سنة لكان قاصدا للعبودية. أما ترى كيف عاتب ابراهيم عليه السلام في دعائه على المجرمين بالهلاك وكيف عاتب موسى في أمر قارون فقال استغاث بك قارون فلم تغثه فوعزتي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه وكيف عاتب يونس عليه السلام في شأن قومه بأنك تحزن على شجرة من يقطين أنبتها في ساعة وأيبستها في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون ثم كيف قبل عذرهم وصرف عذابه العظيم عنهم بعدما أظلهم . ثم كيف عاتب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين فيما روى أنه دخل من باب بني شيبة فرأى قوما يضحكون فقال لهم لم تضحكون لا أراكم تضحكون حتى اذا كان عند الحجر الأسود رجع اليهم القهقرى وقال جاءني جبريل فقال يا محمد ان الله تعالى يقول لك لم تقنط عبادي من رحمتي «نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» وهذا رسول الله ﷺ يقول «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا» وفي الخبر المشهور عن النبي ﷺ «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَاحِدَةٌ مِنْهَا قَسَمَهَا بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَادَّخَرَ مِنْهَا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ لِيَرْحَمَ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» واذ قد أعطاك من الرحمة الواحدة كل هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته سبحانه والكون من هذه الأمة المرحومة مع معرفة السنة والجماعة الى سائر ما لديك من النعم الظاهرة والباطنة فرجو من فضله العظيم أن يتم ذلك فإن من بدأ بالاحسان فعليه الاتمام ويجعل من تسع وتسعين رحمه لك الحظ الوافر فنسأل الله سبحانه أن لا يخيب آمالنا من فضله العظيم بفضله انه السيد الكريم الجواد الرحيم (وأما الأصل الثالث) في ذكر ما وعد وأوعد في المعاد فلنذكر في ذلك الأحوال الخمسة الموت والقبر والقيامة والجنة والنار وما في كل مقام منها من الخطر العظيم للمطيعين والعاصين والمقصرين والمجتهدين (أما الموت) فأذكر فيه حال رجلين أحدهما ما روى عن ابن شبرمة أنه قال : دخلت مع الشعبي على مريض نعوده وهو بما به وعنده رجل آخر يلقنه لا اله الا الله وحده لا شريك له . فقال له الشعبي : ارفق به فتكلم المريض فقال: ان تلقني أو لم تلقني فاني لا أدعها ثم قرأ «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا» فقال الشعبي الحمد لله الذي نجى صاحبنا. والآخر ما حكى: أن تلميذا للفضيل بن عياض حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل

أنت حفظته نفعك عند الله وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ ان الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبع ملكا بوابا عليها فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح الى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى اذا طلعت به الى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني الى غيري قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ الى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يفتخر على الناس في مجالسهم أنا ملك الفخر قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورا من صدقة وصلاة وصيام وقد أعجب الحفظة فيجاوزون به

وجلس عند رأسه وقرأ سورة يس فقال يا أستاذ لا تقرأ هذا فسكت ثم لقنه فقال له قل لا اله الا الله فقال لا أقولها لأنى منها برى، ومات على ذلك فدخل الفضيل منزله وجعل يبكى أربعين يوما لم يخرج من البيت ثم رآه فى النوم وهو يسحب الى جهنم فقال بأى شئ نزع الله المعرفة منك وكنت أعلم تلامذتى فقال بثلاثة أشياء أولها بالنميمة فانى قلت لأصحابى بخلاف ماقلت لك والثانى بالحسد حسدت أصحابى والثالث كان بى علة فجئت الى الطبيب فسألته عنها فقال تشرب فى كل سنة قدحا من خمر فان لم تفعل تبقى بك العلة فكنت أشربه نعوذ بالله من سخطه الذى لا طاقة لنا به . ثم أذكر حال رجلين آخرين أحدهما ماحكى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى : أنه لما احتضر نظر الى السماء فضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون وسمعت امام الحرمين رضى الله عنه يحكى عن الأستاذ أبى بكر رحمه الله أنه قال : كان لى صاحب أيام التعليم وكان مبتديا كثير الجهد فى التعلم تقيا متعبدا وكان لا يحصل له مع الاجتهاد الا القليل فكنا نتعجب من حاله فرض فلزم مكانه بين الأولياء فى الرباط ولم يدخل الى بيت المرضى وكان يجتهد مع مرضه فاشتد به الحال وأنا الى جانبه فبينما هو كذلك اذ شخص ببصره الى السماء ثم قال لى يا ابن فورك لمثل هذا فليعمل العاملون وتوفى عند ذلك رحمة الله عليه. وأما الآخر فنحو ماروى عن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على جار له احتضر فقال له يا مالك جبلان من نار بين يدىّ أكلف الصعود عليهما قال فسألت أهله فقالوا كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ثم سألت الرجل فقال ما ازداد الأمر علىّ الا عظما (وأما القبر) والحال بعد الموت فأذكر فيه حال رجلين أحدهما ماذكر عن بعض الصالحين قال رأيت سفيان الثورى فى النوم بعد موته فقلت كيف حالك يا أبا عبد الله فأعرض عنى وقال ليس هذا زمان الكنى فقلت كيف حالك يا سفيان فأنشأ يقول :

نظرت الى ربى عيانا فقال لى * هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما اذا الليل قد دجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر تريده * وزرنى فانى عنك غير بعيد

والرجل الثانى ماذكر أن بعضهم رؤى فى النوم شاحب اللون مغلولة يده الى عنقه فقيل له مافعل الله بك فأنشد يقول :

تولى زمان لعبنا به * وهذا زمان بنا يلعب

وحال رجلين آخرين أحدهما ماروى عن بعض الصالحين أنه قال كان لى ابن استشهد ولم أره فى النام الى ليلة توفى فيها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اذ رأيته تلك الليلة فقلت يا بنى ألم تكن ميتا فقال لا ولكن استشهدت وأنا حى عند الله تعالى أرزق فقلت ماجاء بك قال نودى فى أهل السماء ألا لا يبقى نبى ولا صديق ولا شهيد الا وحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز فجئت لأشهد الصلاة عليه ثم جئتكم لأسلم عليكم. والآخر ماروى عن هشام بن حسان أنه قال : مات لى ابن حديث فرأيته فى النوم فاذا هو أشيب فقلت يا بنى ماهذا الشيب قال لما قدم علينا فلان زفرت جهنم لقدومه زفرة لم يبق منا أحد الا شاب نعوذ بالله الرحيم من العذاب الأليم (وأما القيامة) فتأمل قول الله تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ فواحد يخرج من قبره فاذا البراق على رأس القبر والتاج والحلل فيلبس ويركب الى جنات

النعيم

إلى السماء الثالثة فيقولُ لهم الملكُ الموكَّلُ قِفوا واضرِبوا بهذا العملِ وجهَ صاحبِهِ أنا ملكُ الكِبرِ أمرنى ربى أن لا أدعَ عملَه يجاوزنى الى غيرى انه كان يتكبَّرُ على الناس فى مجالسهم. قال وتَصْعَدُ الحفظة بعمل العبد يَزهُو كما يزهُو الكوكبُ الدُّرِّىُّ له دوىٌّ من تسبيحٍ وصلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وعُمرةٍ حتى يُجاوِزُوا به إلى السماء الرابعةِ فيقول لهم الملكُ الموكَّل بها قِفوا وَاضرِبوا بهذا العملِ وجهَ صاحِبه وظَهرَه وبطنَه أنا صاحبُ العُجب أمرنى ربى أن لا أدعَ عملَه يُجاوِزُنى الى غيرى إنه كانَ اذا عَمِلَ عملاً أدخَلَ العُجبَ فيه قال وتصعَدُ الحفَظةُ بعملِ العبدِ حتى يُجاوِزُوا به إلى السماءِ الخامسةِ كأنه العروسُ المزفوفة الى بعلها فيقولُ لهم الملَكُ الموكَّلُ بها قِفوا واضرِبوا بهذا العملِ وجهَ صاحبه واحمِلوه على عاتقه أنا ملَكُ الحسدِ انه كان يَحسُدُ من يتعلَّمُ ويعملُ بمثلِ عمله وكلُّ من كان يأخُذ فضلا من العبادة كان يحسدهم ويقعُ فيهم أمرنى ربى

النعيم لا يخلى من عزته أن يمشى الى الجنة برجليه وآخر يخرج من قبره فاذا الزبانية والأغلال والأنكال لا يخلون الشقى يمشى الى النار برجليه بل يسحب الى سواء الجحيم على وجهه نعوذ بالله من سخطه ولقد سمعت بعض العلماء يروى عن النبى ﷺ أنه قال « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ لَهُمْ نُجُبٌ يَرْكَبُونَهَا لَهَا أَجْنِحَةٌ خُضْرٌ فَتَطِيرُ بِهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى حِيطَانِ الْجَنَّةِ فَإِذَا رَأَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَنْ هَؤُلَاءِ فَيَقُولُونَ مَا نَدْرِي لَعَلَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَيَأْتِيهِمْ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتُمْ وَمِنْ أَيِّ الْأُمَمِ أَنْتُمْ فَيَقُولُونَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَلْ حُوسِبْتُمْ فَيَقُولُونَ لَا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ هَلْ وُزِنْتُمْ فَيَقُولُونَ لَا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ هَلْ قَرَأْتُمْ كُتُبَكُمْ فَيَقُولُونَ لَا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ ارْجِعُوا فَكُلُّ ذَلِكَ وَرَاءَكُمْ فَيَقُولُونَ هَلْ أَعْطَيْتُمُونَا شَيْئًا فَنُحَاسَبَ عَلَيْهِ » وفى خبر آخر « ما ملكنا شيئا فنعدل أو نجور ولكن عَبَدْنَا رَبَّنَا حتى دعانا فأجبناه فَيُنَادِي مُنَادٍ صَدَقَ عِبَادِي مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أما تسمع قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فأعظم برجل يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع وهو آمن لا يدخل قلبه فزع ولا يكون على قلبه ثقل نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من أولئك السعداء وما ذلك على الله جل جلاله بعزيز (وأما الجنة والنار) فتأمل فيها آيتين من كتاب الله تعالى احداهما قوله تعالى ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ وقال تعالى حكاية عن آخرين ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وروى أنهم يصيرون عند ذلك كلابا يتعاوون فى النار نعوذ بالله الرءوف الرحيم من عذابه الأليم فان الأمر كما قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله لا ندرى أى المصيبتين أعظم فوت الجنان أم دخول النيران أما الجنة فلا صبر عنها وأما النار فلا صبر عليها وعلى كل حال ففوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم. ثم الطامة الكبرى والمصيبة العظمى هى الخلود اذ لو كان الأمر على كل حال منقطعا لكان هينا ولكن الشأن فى أبد بلا آخر فأى قلب يحتمل ذلك وأى نفس تصبر على ذلك ولذلك قال عيسى عليه السلام : ذكر خلود الخالدين يقطع قلوب الخائفين . وذكر عند الحسن أن آخر من يخرج من النار رجل يقال له هناد عذب ألف عام ينادى ياحنان يامنان فبكى الحسن وقال يا ليتنى كنت هنادا فتعجبوا منه فقال ويحكم أليس يوما يخرج (قلت) فرجع الأمر كله اذن الى أصل واحد وهى النكتة التى تقصم الظهور وتصفر الوجوه وتذيب الأكباد وتقطع القلوب وتدمى العيون من العباد وهى خوف نزع المعرفة فهذه الغاية التى ينتهى اليها خوف الخائفين وتبكى عليها أعين الباكين. ولقد قال بعضهم ان الغموم ثلاثة غم الطاعة أن لا تقبل وغم المعصية أن لا تغفر وغم المعرفة أن تسلب . وقال المخلصون بل الغم كله واحد بالحقيقة وهو غم سلب المعرفة وكل غم دونه جلل اذ له انقضاء ولقد بلغنا عن يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى أنه قال . دخلت على سفيان رحمه الله تعالى فبكى ليلة أجمع فقلت بكاؤك هذا على الذنوب قال فحمل تبنا وقال الذنوب أهون على الله من هذا انما أخشى أن يسلبنى الله الاسلام نسأل الله ربنا المنان سبحانه أن لا يبتلينا بمعصيته وأن يتم علينا بفضله كثير نعمته وأن يتوفانا على ملة الاسلام انه أرحم الراحمين. وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها فى كتاب احياء

أن لا أدعَ عمله يُجاوِزُنى الى غَيرى قال وتصعَدُ الحفظةُ بعملِ العبد له ضَوءٌ كضوءِ القمر من صلاةٍ وزكاةٍ وحَج وعمرة وجهاد وصِيام فيجاوِزُون به إلى السّماء السادسة فيقولُ لَهم الملكُ الموكّلُ بها قِفوا واضرِبُوا بهذا العملِ وَجهَ صاحبِه انَّهُ كانَ لايَرحَمُ إنساناً قَطُّ من عبادِ اللهِ أصابه بلاءٌ أو مَرضٌ بل كان يَشمَتُ به أنا ملك الرحمةِ أمرنى ربى أن لاأدَعَ عملَه يُجاوِزُنى الى غيرى قال وتصعَدُ الحفَظةُ بعمل العبدِ من صلاة وصيام ونفقة وجهاد وورَع له دوِىٌّ كدَوىّ النحلِ وضوءٌ كضوء الشمس معه ثلاثةُ آلافِ ملَك فيُجاوِزُن به إلى السماءِ السابعةِ فيقولُ لهم الملَك الموكَّلُ بها قِفوا واضرِبُوا بهذا العمل وجهَ صاحبِه واضرِبُوا جوارِحَه واَقفِلوا به على قلبه أنا صاحب الذكر فانى أحجُبُ عن ربى كلَّ عملٍ لم يُرِدْ به وجه ربى انما أراد بعمله غير الله تعالى انه أراد به رفعةً عند الفقهاء وذِكرا عند العُلماء وصيتا فى المدائنِ أمرنى ربى أن لا أدع عمله يُجاوِزُنى الى غيرى وكلُّ عملٍ لم يكن لله خالصا فهو رياء

وَلَا يَقْبَلُ اللّٰهُ عَمَلَ المرائي قال وتصعدُ الحفظةُ بعمل العبدِ من صلاةٍ وزكاة وصيامٍ وحج وعُمرة

علوم الدين فتأمل هناك فان الخوض فيه هنا خروج إلى الاكثار . فتأمل هذه الجملة راشدا فان التفصيل أكثر ما يأتي عليه الوهم والذكر لملك تفلح بعون الله وحسن توفيقه (فان قلت) فأي الطريقين أسلك طريق الخوف أو طريق الرجاء (يقال لك) بل المركب بينهما فلقد قيل من غلب عليه الرجاء صار مرجئا بل ربما يخاف عليه أن يصير خرميا. ومن غلب عليه الخوف صار حروريا والمراد أن لا ينفرد بأحدهما دون الآخر فان بالحقيقة الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي والخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء الحقيقي ولذلك قيل الرجاء كله لأهل الخوف لا الامن والخوف كله لأهل الرجاء لا اليأس (فان قلت) فهل يكون أحدهما أرجح من الآخر أو أكثر ذكرا بحال فاعلم أن العبد اذا كان صحيحا قويا فالخوف أولى به واذا مرض وضعف لاسيما اذا أشرف على الآخرة فالرجاء أولى كذا سمعت العلماء يقولون . قلت وذلك لما روى أن الله سبحانه وتعالى يقول «أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي» فيصير رجاؤه أولى في ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والامكان ولذلك يقال لهم لا تخافوا ولا تحزنوا (فان قلت) أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في حسن الظن بالله والترغيب في ذلك فاعلم أن من حسن الظن بالله تعالى الحذر من معصيته والخوف من عقابه والاجتهاد في خدمته. واعلم أن هاهنا أصلا أصيلا ونكتة عزيزة يغلط فيها الكثير من الناس وهو أن الفرق بين الرجاء والأمنية أن الرجاء يكون على أصل والتمني لا يكون على أصل ، مثاله من زرع زرعا واجتهد وجمع بيدرا ثم يقول أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز فذلك منه رجاء وآخر لا يزرع زرعا ولا يعمل يوما عملا فذهب ونام وأغفل سنته فاذا جاء وقت البيادر يقول أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز، فيقال له من أين لك هذا الرجاء وانما ذلك أمنية بلا أصل، فكذلك العبد اذا اجتهد في عبادة الله وانتهى عن معصية الله تعالى يقول أرجو أن يتقبل الله مني هذا اليسير ويتم هذا التقصير ويعظم هذا الثواب ويعفو عن الزلل وأحسن الظن فهذا منه رجاء (وأما) اذا غفل عن ذلك وترك الطاعات وارتكب المعاصي ولم يبال بسخط الله تعالى ولا رضاه ولا وعده ووعيده ثم أخذ يقول أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها سماها رجاء وحسن ظن وذلك منه خطأ أو ضلال، وقد نظم هذا المعنى القائل

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجري على اليبس

(قلت) ومما يبين هذا الأصل ما رويناه عن النبي ﷺ أنه قال «الكَيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعَمِلَ لِمَا بعدَ الموتِ والعاجزُ من أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّى عَلَى اللهِ عزَّ وجلَّ الأمانيَّ» وفي ذلك قال الحسن البصري رحمه الله : ان أقواما ألهتهم أمانيّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس وليست لهم حسنة، فيقول أحدهم اني أحسن الظن بربي وكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له ثم تلا قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ الآية «وَذَلِكُم ظَنُّكُم الذي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُم أرداكم فأصبحتم مِنَ الخاسرينَ﴾ وعن جعفر الضبعي رحمه الله أنه قال رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد قلت يرحمك الله إن رحمة الله واسعة فغضب وقال هل رأيت مني ما يدل على القنوط ان رحمة الله قريب من المحسنين، قال جعفر فأبكاني. قوله فاذا كان كل الرسل والأبدال والأولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة والحذر عن المعصية مرتبطين فأيش تقول

وخُلُقٍ حسنٍ وصَمتٍ وذِكرٍ لله تعالى وتشيعه ملائكة السبع السموات حتى يقطعوا الحجبَ كلها الى الله تعالى فيقفونَ بينَ يديْهِ يشهدُون له بالعملِ الصالحِ المخلصِ لله تعالى فيقولُ اللهُ تعالى أنتمُ الحفَظَةَ علَى عملِ عبْدِي وأنَا الرَّقيبُ علَى قلْبِه إنَّهُ لَم يُرِدْنِي بهذا العملِ وأرادَ به غيْرِي فعليْهِ لعنَتِي فتقولُ الملائكَةُ كلُّها عليْهِ لعنَتُكَ ولعنَتُنا وتلعنُهُ السبْعُ السمَواتُ ومَن فيهِنّ فبكَى مُعاذٌ قالَ معاذٌ قلتُ يارسُولَ الله أنتَ رسُولُ اللهِ وأنا مُعاذٌ فكيفَ لِي بالخلاصِ والنجاةِ قالَ اقْتَدِ بِي وإنْ كانَ فِي عملكَ نقصٌ يامُعاذُ حافظْ علَى لسانكَ مِنَ الوقيعَةِ فِي إخوانِكَ مِنْ حَملَةِ القرآنِ واحْمِلْ ذنوبكَ عليكَ ولا تَحْمِلْها علَيهِمْ ولا تُزَكِّ نفسَكَ عليهِمْ وتذمّهمْ ولا ترْفعْ نفسَكَ عليهِمْ ولا تُدْخِلْ عملَ الدُّنيا فِي عمَلِ الآخرةِ ولا تتكبَّرْ

أما كان

أما كان لهم حسن ظن بالله، بلى فإنهم كانوا أعلم بسعة رحمته وأحسن ظنا بجوده منك ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد أمنية وغرور. فاعتبر بهذه النكتة وتأمل حالهم وانتبه من رقدتك والله تعالى ولى التوفيق

﴿فصل﴾ وجملة الأمر أنك إذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى التى سبقت غضبه ووسعت كل شىء ثم أن كنت من هذه الأمة المرحومة الكريمة على الله تعالى ثم غاية فضله العظيم وكمال جوده الكريم وجعل عنوان كتابه إليك بسم الله الرحمن الرحيم، ثم كثرة أياديه ونعمته عليك ظاهرة وباطنة من غير شفيع أو قدم سابقة لك، وتذكرت من جانب آخر كمال جلاله وعظمته وعظم سلطانه وهيبته، ثم شدة غضبه الذى لا تقوم له السموات والأرض، ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك مع دقة أمره وخطر معاملته فى إحاطة علمه وبصره بالعيوب والغيوب، ثم حسن وعده وثوابه الذى لا تبلغ كنهه الأوهام، وشدة وعيده وأليم عقابه الذى لا تحتمل ذكره القلوب، تارة تنظر إلى فضله، وتارة تنظر إلى عذابه، وتارة تنظر إلى رأفته ورحمته، وتارة تنظر إلى نفسك فى جفواتها وجناياتها، فإذا فعلت أدى بك جميع ذلك إلى الخوف والرجاء، وكنت قد سلكت السبيل الشارع القصد، وعدلت عن الجانبين المهلكين الأمن واليأس ولا تتيه فيهما مع التائهين ولا تهلك مع الهالكين، وشربت الشراب الممزوج العدل فلا تهلك ببرودة الرجاء الصرف ولا بحرارة الخوف الصرف. وكأنى بك قد وصلت إلى المقصود غانما وشفيت من العلتين سالما ووجدت النفس قد انبعثت للطاعة ودأبت فى الخدمة ليلا ونهارا من غير فترة ولا غفلة واجتنبت المعاصى والمخازى وهجرتها بمرة (كما قال نوف البكالى) : ان نوفا إذا ذكر الجنة طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه . وصرت حينئذ من الأصفياء الخواص العابدين الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وكنت قد خلفت هذه العقبة الخطيرة وراءك بإذن الله تعالى وحسن توفيقه، فكم لك من حلاوة وصفوة فى الدنيا، وكم لك من ذخر كريم وأجر عظيم فى العقبى، والله سبحانه وتعالى مسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتسديده انه أرحم الراحمين وأجود الأجودين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

﴿الباب السادس فى العقبة السادسة وهى عقبة القوادح﴾

ثم عليك يا أخى أيدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد أن استبان لك السبيل واستقام لك المسير بتمييز سعيك وصيانته عما يفسده ويضيعه عليك وإنما لزمك ذلك بإقامة الإخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده لأمرين (أحدهما) لما فى فعله من الفائدة وهى حسن القبول من الله تعالى وفوز الثواب عليه وإلا فتكون مردودا ذاهب الثواب كلا أو بعضا على ما روى فى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِى فَنَصِيبِى لَهُ فَإِنِّى لاَ أَقْبَلُ إِلا مَا كَانَ لِى خَالِصاً » وقيل ان الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة إذا التمس ثواب عمله : ألم يوسع لك فى المجالس ألم تكن الرأس فى الدنيا ألم يرخص بيعك وشراؤك ألم تكرم . هذا وأشباهه من الخطر والضرر (قلت) ومن خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان (أما) الفضيحتان فاحداهما فضيحة السر وهى اللوم على رءوس الملائكة، وذلك لما روى أن الملائكة تصعد بعمل العبد مبتهجين به فيقول الله تعالى ردوه إلى سجين فانه لم يردنى به فيفتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة والثانية فضيحة العلانية وهى يوم القيامة على

فِى مَجْلِسِكَ لِكَىْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَتَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى النَّارِ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾ هَلْ تَدْرِى مَا هُنَّ يَا مُعَاذُ قُلْتُ مَا هِىَ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ كِلاَبٌ فِى النَّارِ تَنْشُطُ اللَّحْمَ مِنَ الْعَظْمِ قُلْتُ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يُطِيقُ هَذِهِ الْخِصَالَ وَمَنْ يَنْجُو مِنْهَا قَالَ يَا مُعَاذُ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ » قال خالد بن معدان فما رأيت أحدا أكثر تلاوة للقرآن العظيم من معاذ لهذا الحديث العظيم . فتأمل أيها الراغب فى العلم هذه الخصال واعلم أن أعظم الأسباب فى رسوخ هذه الخبائث فى القلب طلب العلم لأجل المباهاة والمناقشة فالعامى بمعزل عن أكثر هذه الخصال والمتفقه مستهدف لها وهو معرض للهلاك بسببها فانظر أى أمورك أهم أن تتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات وتشتغل بإصلاح قلبك وعمارة

رءوس الخلائق روى عن النبى ﷺ انه قال «إِنَّ الْمُرَائِى يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ يَا كَافِرُ يَا فَاجِرُ يَا غَادِرُ يَا خَاسِرُ ضَلَّ سَعْيُكَ وَبَطَلَ أَجْرُكَ فَلَا خَلَاقَ لَكَ الْيَوْمَ الْتَمِسِ الْأَجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعُ» وروى أنه ينادى مناد يوم القيامة يسمع الخلائق: أين الذين كانوا يعبدون الناس قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فانى لا أقبل عملا خالطه شىء (وأما) المصيبتان فاحداهما فوت الجنة وذلك ماروى عن النبى ﷺ «ان الجنة تَكَلَّمَتْ وقالت أنا حَرَامٌ على كُلِّ بخيل ومُرَاءٍ» والخبر يحتمل معنيين أحدهما ان هذا البخيل من يبخل بأحسن قول وهو قول لااله الاالله محمد رسول الله ﷺ وهذا المرائى من يرائى بأقبح رياء وهو المنافق الذى يرائى بايمانه وتوحيده وفى هذا القول ترجية. والمعنى الثانى ان لم ينته من البخل والرياء ولم يراع نفسه ففيه خطران: أحدهما أن يلحقه شؤم ذلك فيقع فى الكفر فتفوته الجنة رأسا والعياذ بالله والآخر سلب الايمان الذى يستحق به النار نعوذ بالله من سخطه وشديد غضبه (والمصيبة الثانية) دخول النار وذلك لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ قَدْ قَاتَلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ فَيَقُولُ اللهُ تعالى لِلْقَارِىءِ أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِى فَيَقُولُ بَلَى يَارَبِّ فَيَقُولُ مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ قُمْتُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ قَارِىءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ فَيَقُولُ بَلَى يَارَبِّ فَيَقُولُ فَمَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ فَيَقُولُ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّكَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَيُؤْتَى بِالَّذِى قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقُولُ اللهُ مَا فَعَلْتَ فَيَقُولُ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِى سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ اللهُ تعالى كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِىءٌ وَشُجَاعٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى رُكْبَتِى وَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ» وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إِنَّ النَّارَ وَأَهْلَهَا يَعِجُّونَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَعِجُّ النَّارُ قَالَ مِنْ حَرِّ النَّارِ الَّتِى يُعَذَّبُونَ بِهَا» وفى هذه الفضائح عبرة لأولى الأبصار والله سبحانه ولى الهداية بفضله (فان قلت) فأخبرنا عن حقيقة الاخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما فى العلم فاعلم أن الاخلاص عند علمائنا اخلاصان اخلاص العمل واخلاص طلب الأجر (فأما) اخلاص العمل فهو ارادة التقرب الى الله عزوجل وتعظيم أمره واجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح وضد هذا الاخلاص النفاق وهو التقرب الى مادون الله سبحانه وقال شيخنا رحمه الله النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذى هو للمنافق فى الله عزوجل وليس هو من قبيل الارادات لعلة ذكرناها فى موضوعها (وأما) الاخلاص فى طلب الأجر فهو ارادة نفع الآخرة بعمل الخير وكان شيخنا رحمه الله يقول انه ارادة نفع الآخرة بخير لم يرد ردا يتعذر عليه خيره بحيث رجى به تلك المنفعة وقد شرحنا هذه الشرائط. وقال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام ماالخالص من الأعمال قال الذى يعمل لله لايحب أن يحمده عليه أحد وهذا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص. وقال الجنيد الاخلاص

آخرتك أم الأهم أن تخوض مع الخائضين فتطلب من العلم ماهو سبب زيادة الكبر والرياء والحسد والعجب حتى تهلك مع الهالكين واعلم أن هذه الخصال الثلاث من أمهات خبائث القلب ولها مغرس واحد وهو حب الدنيا ولذلك قال رسول الله ﷺ «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» ومع هذا فالدنيا مزرعة للآخرة فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة يستعين به على الآخرة فالدنيا مزرعته ومن أراد الدنيا ليتنعم بها فالدنيا مهلكته. فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى وهى بداية الهداية فان جربت نفسك فيها وطاوعتك عليها فعليك بكتاب احياء علوم الدين لتعرف كيفية الوصول الى باطن التقوى فاذا عمرت بالتقوى باطن قلبك فعند ذلك ترتفع الحجب بينك وبين ربك وتنكشف لك أنوار المعارف وتنفجر من قلبك ينابيع الحكمة وتتضح لك اسرار الملك والملكوت ويتيسر لك من العلوم ماتستحقر به هذه العلوم المحدثة التى لم يكن لها ذكر

تصفية الأعمال من المكدرات وقال الفضيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقاويل فى هذا كثيرة فلا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقائق وقد قال سيد الأولين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الاخلاص فقال «تقول رَبِّىَ اللهُ تعالى ثُمَّ تَستقيم كما أُمِرْتَ» أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذه اشارة الى قطع كل ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا وضد الاخلاص الرياء وهو ارادة نفع الدنيا بعمل الآخرة. ثم الرياء ضربان رياء محض ورياء تخليط فالمحض أن تريد به نفع الدنيا لاغير والتخليط أن تريدهما جميعا نفع الدنيا ونفع الآخرة هذا حدهما. وأما تأثيرهما فان اخلاص العمل أن تجعل الفعل قربة وأما اخلاص طلب الأجر أن تجعله مقبولا وافر الأجر والتعظيم. والنفاق يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله تعالى فالرياء المحض لا يكون من العارف عند بعض العلماء وان كان أبطل نصف الثواب وعند آخرين قد يكون الرياء المحض من العارف وانه يذهب بنصف الاضعاف والتخليط يذهب بربع الاضعاف والصحيح عند شيخنا رحمه الله أن الرياء المحض لا يكون من العارف عند تذكر الآخرة ويكون مع السهو والمختار أن من تأثير الرياء رفع القبول والنقصان فى الثواب ولا تقدير له بنصف ولا بربع وشرح هذه المسائل يطول وقد شرحناها فى كتاب احياء علوم الدين مستقصيا وأشبعنا القول فى أسرار معاملات الدين (فان قلت) فما موضع الاخلاص وفى أى طاعة يقع ويجب فاعلم أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام قسم يقع فيه الاخلاصان جميعا وهو العبادة الظاهرة الأصلية وقسم لا يقع فيه شىء منهما وهو العبادة الباطنة الأصلية وقسم يقع فيه اخلاص طلب الأجر دون اخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعدة. قال شيخنا رحمه الله ان كل عمل يحتمل الصرف الى غير الله تعالى من العبادات الأصلية يقع فيه اخلاص العمل فالعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها اخلاص العمل (وأما) اخلاص طلب الأجر قال مشايخ الكرامية لا يقع فى العبادات الباطنة اذ لا يطلع عليها أحد الا الله سبحانه فامتنع فيها دواعى الرياء فلم يحتج الى اخلاص طلب الأجر وكان شيخنا رحمه الله يقول اذا أراد العبد المتقرب من الله بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو أيضا رياء (قلت أنا) ولا يبعد اذا أن يقع فى كثير من العبادات الباطنة الاخلاصان وكذلك النوافل يجب فيها الاخلاصان جميعا عند الشروع وأما المباحات المأخوذة للعدة فانما يقع فيها اخلاص طلب الأجر دون اخلاص العمل اذ هى لا تصلح أن تكون بنفسها قربة بل هى عدة على القربة (فان قلت) هذا موضعهما فبين لنا وقتهما من العمل فاعلم أن اخلاص العمل مع الفعل يقارنه لا محالة ولا يتأخر عنه وأما اخلاص طلب الأجر ربما يتأخر عنه وعند بعض العلماء يعتبرون فيه وقت الفراغ من العمل فاذا فرغ على أخلاص أو رياء فقد انقضى الأمر ولا يمكنه استداركه بعد وعند غيرنا من مشايخ الكرامية ما لم ينل المنفعة المطلوبة بالرياء يمكنه اقامة اخلاص فى هذا العمل فاذا نال المطلوب فقد فات. وقال بعض العلماء ان الفريضة يمكن اقامة الاخلاص فيها الى الموت (وأما) النوافل فلا سبيل الى ذلك قال والفرق بينهما أن الله تعالى أدخل العبد فى الفريضة فمأمول منه التفضل والتيسير فيها وأما النفل فالعبد الذى أدخل نفسه فيه وتكلفه فطولب بحق ماتكلف (قلت) أنا وفى المسألة فائدة وهى أن من سبق منه الرياء أو ترك الاخلاص فى

فى زمن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين . وان كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما اعظم مصيبتك وما أطول تعبك وأعظم حرمانك وخسرانك فاعمل ماشئت فان الدنيا التى تطلبها بالدين لا تسلم لك والآخرة تسلب منك ومن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعا ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعا . فهذه جمل الهداية الى بداية الطريق فى معاملتك مع الله تعالى بأداء أوامره واجتناب نواهيه *وأشير عليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ بها نفسك فى مخالطتك مع عباد الله تعالى وصحبتك معهم فى الدنيا ﴿ القول فى آداب الصحبة والمعاشرة مع الخالق سبحانه وتعالى ومع الخلق ﴾ اعلم أن صاحبك الذى لا يفارقك فى حضرك وسفرك ونومك ويقظتك بل فى حياتك وموتك هو ربك وسيدك ومولاك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليسك اذ قال الله تعالى ﴿ أنا جليس من ذكرنى ﴾ ومهما انكسر قلبك حزنا

عمل فيمكنه استدراك ذلك وتلافيه على أحد الوجوه التى ذكرناها قبل. والمقصود من نقل مذاهب الناس فى هذه الدقائق علمنا الآن بقلة العاملين وقلة الرغبة فى سلوك هذه الطريق والتقريب على المبتدى فى العبادة، فان لم يجد لعلته دواء فى هذا القول وجده فى الآخر لاختلاف الأمراض والأغراض وعلل الأعمال وآفاتها فافهم راشدا ان شاء الله تعالى (فان قلت) أكل عمل يحتاج الى اخلاص مفرد فاعلم أنه قد اختلفوا فى ذلك فقيل انه يجب لكل عمل اخلاص مفرد. وقيل انه يجوز تناول اخلاص واحد لجملة من العبادات. أما العمل ذو الأركان كالصلاة والوضوء يكفيهما اخلاص واحد لأن بعضها متعلق ببعض صلاحا وفسادا فصارت كشىء واحد (فان قلت) ان أراد بعمله الخير نفعا من الله تعالى ولا يريد من الناس شيئا من مدحة أو سمعة أو منفعة أيكون ذلك رياء (فاعلم) أن ذلك محض الرياء. قال علماؤنا رحمهم الله الاعتبار فى الرياء بالمراد لا بالذى يريد منه فان كان مرادك من عمل الخير نفعا دنيويا فانه رياء سواء أردته من الله أو من الناس قال الله تعالى «مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِهِ ومن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤتِهِ مِنها وما لَهُ فى الآخِرةِ من نصيبٍ» وليس الاعتبار بلفظة الرياء واشتقاقها من معنى الرؤية، وانما سميت هذه الارادة الفاسدة بهذا الاسم لأنها أكثر ما تقع وتكون من قبل الناس ورؤيتهم فافهم (فان قلت) اذا كان القصد من الدنيا التى يريدها من الله التعفف عن الناس والعدة على عبادة الله يكون ذلك رياء فاعلم أن التعفف ليس من كثرة المال والجاه والحطام وانما هو فى القناعة والثقة بكفاية الله سبحانه (وأما) العدة على عبادة الله تعالى فاذا كان مراده ذلك فلا يكون رياء وذلك ما يتصل بأمر الآخرة وأسبابها ويصير قصده قطعا لذلك فان أريد بعمل الخير هذا النوع لا تكون تلك الارادة رياء لأن هذه الأمور تصير بتلك النية خيرا أو تصير فى حكم أعمال الآخرة ولا تكون ارادة الخير رياء. وكذلك ان أردت أن يكون لك تعظيم عند الناس أو محبة عند المشايخ والأئمة ويكون قصدك من ذلك التمكن من تأييد مذهب أهل الحق أو الرد على أهل البدع أو النشر للعلم أو حض الناس على العبادة ونحو ذلك دون أن تقصد بذلك شرف نفسك من حيث هى أو دنيا تنالها فان هذه كلها ارادة سديدة ونيات محمودة لا يدخل شىء منها فى باب الرياء اذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة. واعلم أنى سألت بعض مشايخنا عما يعتاده أولياؤنا من قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة أليس المراد بذلك أن يدفع الله تلك الشدة عنهم ويوسع عليهم شيئا من الدنيا على ما جرت به العادة فكيف تصح ارادة متاع الدنيا بعمل الآخرة فقال فى جوابه رحمه الله كلاما معناه أن المراد منهم أن يرزقهم الله قناعة أو قوتا يكون لهم عدة على عبادة الله وقوة على درس العلم . وهذه من جملة ارادات الخير دون الدنيا . واعلم أن هذه السيرة أعنى قراءة هذه السورة عند الشدة فى أمر الرزق والخصاصة انما هو شىء وردت به الأخبار المأثورة عن النبى ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى ان ابن مسعود حين عوتب فى أمر ولده اذ لم يترك لهم من الدنيا شيئا قال لقد خلفت لهم سورة الواقعة . ومن ذلك الأصل فى السنة جرت هذه الخصلة فى سير علمائنا رحمهم الله والا فلا مبالاة لهم بحمد الله تعالى بشدة فى أمر الدنيا أو سعة وهم الذين يغتنمون ضيق الدنيا وعسرها ويتغالون فى ذلك فيما بينهم ويعدونه من الله تعالى منة عظيمة ويخافون اذا بدا لهم من الله سعة من الدنيا

على تقصيرك فى حق دينك فهو صاحبك وملازمك اذ قال الله تعالى «أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم مِنْ أجْلى» فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانبا فان لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فاياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى (وآدابها) اطراق الرأس وغض الطرف وجمع الهم ودوام الصمت وسكون الجوارح ومبادرة الأمر واجتناب النهى وقلة الاعتراض على القدر ودوام الذكر وملازمة الفكر وايثار الحق على الباطل والاياس عن الخلق والخضوع تحت الهيبة والانكسار تحت الحياء والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان والتوكل على فضل الله معرفة بحسن الاختيار .

التى لايمدها أكثر الناس الا الاحسان والنعمة أن يكون ذلك استدراجا من الله تعالى ومصيبة . كيف وبطانتهم الأسفار والطى فى عموم الأحوال، ومقدموهم يقولون الجوع رأس مالنا. فهذا وضع مذهب أهل التصوف وهومذهبى ومذهب أشياخى. وبذلك جرت سيرة سلفنا. وأما تقصير بعض المتأخرين فلا يعتبر به. وانما ذكرنا هذا الفصل لئلا يغمز فيهم مخالف جهلا منه بمقاصد القوم فى أمورهم أو يغلط فيهم مبتدئ سليم الصدر لم يأخذ من العلم حقه (فان قيل) كيف يليق هذا بحال أهل العلم والتجرد والزهد وأرباب الصبر والرياضة فاعلم أن هذا شىء مأخوذ من السنة. ثم المقصود حصول القناعة والعدة لااتباع الشره والشهوة والضعف عن احتمال العسرة والشدة وأكثر ماترى فى عقب ذلك قناعة القلب وفقد كلب الجوع وضعفه وسلوه عن الطعام ونهمته وقد علم ذلك من امتحنه. فاعلم هذه الجملة موفقا ان شاء الله تعالى (القادح الثانى) العجب وانما يلزمك اجتنابه لأمرين. أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فان المعجب مخذول فاذا انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله تعالى فما أسرع مايهلك ولذلك قال النبى ﷺ «ثلاثٌ مهلكاتٌ شحٌ مُطَاعٌ وهوًى مُتَّبَعٌ وإعجابُ المرْءِ بنفسِهِ». والثانى أنه يفسد العمل الصالح ولذلك قال المسيح عليه الصلاة والسلام : يامعشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح وكم من عابد قد أفسده العجب . واذا كان المقصود والفائدة العبادة وهذه الخصلة تحرم العبد حتى لايحصل له خير فان حصل خير فقليل من ذلك يفسده حتى لايبقى بيده شىء فحقيق أن يحذر من ذلك ويتحفظ والله تعالى ولى التوفيق والعصمة (فان قيل) فما حقيقة العجب وما معناه وما تأثيره وحكمه فبين لنا ذلك فاعلم أن حقيقة العجب استعظام العمل الصالح . وتفصيله عند علمائنا رحمهم الله ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشىء دون الله عز وجل أو الناس أو النفس . قالوا وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر ذلك من هذه الثلاثة جميعا النفس والخلق والشىء ، ومثنى بأن يذكره من اثنين، وموحدا بأن يذكره من واحد . وضد العجب ذكر المنة وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله سبحانه وأنه الذى شرفه وعظم ثوابه وقدره وهذا الذكر فرض عند دواعى العجب نفل فى سائر الأوقات (وأما) تأثير العجب فى العمل قال بعض علمائنا المعجب ينتظر الاحباط فان تاب قبل موته سلم والا أحبط واليه ذهب محمد ابن صابر من شيوخ الكرامية والاحباط عنده أن يذهب عن العمل جميع الأسماء الحسنة حتى لايستحق بذلك ثوابا ولامدحة البتة . وفى قول غيره هو ذهاب الاضعاف لاغير (فان قلت) كيف يلتبس على العبد العارف أن الله تعالى هو الذى وفق العمل الصالح وعظم قدره وأكثر ثوابه بفضله ومنه فاعلم أن ههنا نكتة لطيفة وذخيرة شريفة وهو أن الناس فى العجب ثلاثة أصناف: صنف هم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة والقدرية الذين لايرون لله عليهم منة فى أفعالهم وينكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وذلك لشبهة استولت عليهم ، وصنف هم الذاكرون لله المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشىء من الأعمال وذلك لبصيرة أكرموا بها وتأييد خصوا به. والثالث وهم المخلطون وهم عامة أهل السنة تارة ينتبهون فيذكرون منة الله وتارة يغفلون فيعجبون بذلك لمكان الغفلة العارضة والفترة فى الاجتهاد والنقص فى البصيرة (فان قلت) كيف حال القدرية والمعتزلة فى أفعالهم فاعلم أن فى ذلك اختلافات فقيل انه محبط لمكان اعتقادهم (وقيل) لايحبط عمل باعتقاد فى الجملة من فرق الاسلام حتى يخص

وهذا كله ينبغى ان يكون شعارك فى جميع ليلك ونهارك فانه آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك والخلق يفارقونك فى بعض أوقاتك . وان كنت عالما فآداب العلم سبعة عشر :الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع اطراق الرأس وترك الكبر على جميع العباد الا على الظلمة زجرا لهم عن الظلم وايثار التواضع فى المحافل والمجالس وترك الهزل والدعابة والرفق بالمتعلم والتأنى بالمتعجرف واصلاح البليد بحسن الارشاد وترك الحرد عليه وترك الأنفة من قول لاأدرى وصرف الهمة الى السائل وتفهم سؤاله وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع اليه عن الهفوة ومنع المتعلم كل علم يضره وزجره عن أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى وصد المتعلم عن أن يشغل نفسه بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين

كل عمل باعجاب كما أن اعتقاد أهل السنة لا يمنع العجب فى كل عمل حتى يخصه بذكر المنة (فان قيل) فهل سوى العجب والرياء من قادح فى العمل قيل له أجل ان فيه لقوادح سواهما لكنا خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذى يدور عليهما معظم الأبواب . وقد قال بعض المشايخ ان حق العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء: النفاق والرياء والتخليط والمن والأذى والندامة والعجب والحسرة والتهاون وخوف ملامة الناس . ثم ذكر ناشيخنا رحمه الله ضد كل خصلة منها واضرارها بالعمل فضد النفاق اخلاص العمل وضد الرياء اخلاص طلب الأجر وضد التخليط التفريد وضد المن تسليم العمل الى الله وضد الأذى تحصين العمل وضد الندامة تثبيت النفس وضد العجب ذكر المنة وضد الحسرة اغتنام الخير وضد التهاون تعظيم التوفيق وضد خوف الملامة الخشية . واعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده والمن والأذى يحبطان الصدقة أصلا فى الوقت وعند بعض المشايخ رحمهم الله يبطلان اضعافها . وأما الندامة فانها تحبط العمل فى قولهم جميعا والعجب يذهب اضعاف العمل والحسرة والتهاون وخوف الملامة تخفف العمل فتذهب رزانته (قلت) فالقبول والرد عند أهل التحصيل يرجعان الى ضروب من التعظيم والاستخفاف . والاحباط ابطال منافع تكون بالفعل وبسببه، ثم تارة يكون بابطال الثواب وأخرى بابطال التضعيف . والثواب منفعة يقتضيها العقل بعينه وقرائنه وأحواله، والتضعيف زيادة على هذا والرزانة زيادة تحامل بمقتضى قرائن أحوال أخر كالاحسان إلى أحد من أهل الخير ثم إلى الوالدين ثم إلى نبى من الأنبياء ففى الشىء يكون رزانة ولا يكون تضعيف . فهذا تهذيب ما تحققت فى هذه المعانى فاعلم ذلك وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات القاطع والمتالف فى غاية التحرز فان صاحب بضاعة الطاعات قد قطع كل تلك العقبات وتحمل تلك المشقات حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة فانه لا يخاف على بضاعته تلك إلا فى هذه العقبة فان فيها مقاطع يحذر أن تسلب فيها بضاعته ومتالف يحذر أن يبدو منها آفات تفسد عليه طاعته . ثم أعظمها خطرا وأعمها وقوعا هذان القاطعان اللذان هما الرياء والعجب فلنذكر فى كل واحد منهما أصولا مقنعة بمجردها لعلك تكفى مؤنتها باذن الله إن شاء الله (أما) الرياء فأذكر فيه أولا قول الله سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ كأن الله سبحانه وتعالى يقول : إنى خلقت السموات والأرض وما بينهما فى كل هذه الصنائع والبدائع واكتفيت بنظرك لتعلم أنى قادر عالم وأنت تصلى ركعتين مع ما فيهما من المعايب والتقصير فلا تكتفى بنظرى اليك وبعلمى بك وثنائى عليك وشكرى لك حتى تحب أن يعلم الخلق ليمدحوك بذلك أيكون ذلك وفاء، أيكون ذلك عقلا يرضاه أحد لنفسه، ويحك أفلا تعقل (الأصل الثانى) أن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ فى ثمنه ألف ألف دينار فباعه بفلس أليس يكون ذلك خسرانا عظيما وغبنا فظيعا ودليلا بينا على خسة الهمة وقصور العلم وضعف الرأى وركة العبد فما يناله العبد بعمله من الخلق من مدحة وحطام بالاضافة إلى رضا رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل من فلس فى جنب ألف ألف دينار وأضعاف ذلك بل فى جنب الدنيا وما فيها وأكثر وأكبر، ألا يكون من الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة بهذه الأمور الحقيرة الدنية ثم ان

وفرض عينه أصلاح ظاهره وباطنه بالتقوى ومؤاخذة نفسه أولا بالتقوى ليقتدى المتعلم أولا بأعماله ويستفيد ثانيا من أقواله . وان كنت متعلما فآداب المتعلم مع العالم أن يبدأه بالتحية والسلام وأن يقل بين يديه الكلام ولا يتكلم مالم يسأله أستاذه ولا يسأل أولا مالم يستأذن ولا يقول فى معارضة قوله قال فلان بخلاف ماقلت ولا يشير عليه بخلاف رأيه فيرى أنه أعلم بالصواب من أستاذه ولا يشاور جليسه فى مجلسه ولا يلتفت الى الجوانب بل يجلس مطرقا ساكتا متأدبا كأنه فى الصلاة ولا يكثر عليه عند ملله وإذا قام قام له ولا يتبعه بكلامه وسؤاله ولا يسأله فى طريقه الى أن يبلغ إلى منزله ولا يسىء الظن به فى أفعال ظاهرها منكر عنده فهو أعلم بأسراره وليذكر عند ذلك قول

كان ولابدلك من هذه الهمة الخسيسة فاقتصدأنت الآخرة تتبعك الدنيا بل اطلب الرب وحده يعطك الدارين اذهو مالكهما جميعا وذلك قوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُعْطِى الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ وَلاَ يُعْطِى الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا » فاذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا جميعا وان أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة فى الوقت، وربما لاتنال فى الدنيا كما تريدوان نلتها فلا تبقى لك فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة فتأمل أيها العاقل (الأصل الثالث) ان المخلوق الذى لأجله تعمل ورضاه تطلب لوعلم أنك تعمل لأجله لأبغضك ولسخط عليك واستهان بك واستخف بك فكيف يعمل الرجل العاقل العامل لأجل من لوعلم به أنه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه فاعمل يامسكين لأجل من إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك وطلبت رضاه بذلك أحبك وأعطاك وأكرمك حتى أرضاك وأغناك عن الكل وكفاك فهذه هذه فافطن لها ان كنت تعقل (الأصل الرابع) أن من حصل له سعى مايمكن أن يكتسب به رضا أعظم ملك فى الدنيا فطلب به رضا كناس خسيس بين الناس فيكون ذلك دليلا على السفه ورداءة الرأى منه وسوء الحظ له ويقال ماحاجتك الى رضا هذا الكناس مع امكانك من رضا الملك فكيف وقد سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك ففاتك الكل فهذا حال المرائى فأى حاجة إلى ارضاء مخلوق حقير ضعيف مهين وأنت متمكن من تحصيل رضوان الله رب العالمين الكافى عن الكل فان ضعفت الهمة وكلت البصيرة حتى طلبت رضا مخلوق لامحالة فسبيلك أن تجرد ارادتك وتخلص سعيك لله سبحانه فان القلوب والنواصى بيده فهو يميل اليك القلوب ويجمع لك النفوس ويشحن من حبك الصدور فتنال من ذلك مالاتنال بجهدك وقصدك فان لم تفعل وقصدت بعملك رضا المخلوقين دونه سبحانه وتعالى فانه يصرف عنك القلوب وينفر عنك النفوس ويسخط عليك الخلق فيحصل لك بهذا الأمر سخط الله وسخط الناس جميعا فياله من خسران وحرمان. ولقد ذكر عن الحسن أنه قال: كان رجل يقول والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها وكان أول داخل للمسجد وآخر خارج منه لايراه أحد حين الصلاة الاقائما يصلى وصائما لايفطر ويجلس الى حلق الذكر فلبث كذا سبعة أشهر فكان لايمر بقوم الاقالوا افعل الله بهذا المرائى وصنع، فأقبل على نفسه باللوم وقال لها انى أرانى فى غير شىء لأجعلن عملى كله لله فلم يزد على عمله الذى كان يعمل قبل ذلك شيئا إلا أنه تغيرت نيته الى الخير فكان بعد ذلك يمر بالناس فيقولون رحم الله فلانا الآن قد أقبل على الخير ثم قرأ الحسن « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » قال يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين . ولقد صدق القائل

يامبتغى الحمد والثواب * فى عمل تبتغى محالا
قد خيب الله ذا رياء * وأبطل السعى والكلالا
من كان يرجو لقاء رب * أخلص من خوفه الفعالا
الخلد والنار فى يديه * فرائه يعطك النوالا
والناس لايملكون شيئا * فكيف راءيتهم ضلالا

(وأما العجب) فلنذكر فيه أصولا أحدها أن فعل العبد انما صارت له قيمة لماوقع من الله موقع الرضا والقبول

موسى للخضر عليهما السلام أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا وكونه مخطئا فى انكاره اعتمادا على ظاهره * وإن كان لك والدان فأدب الولد مع الوالدين أن يسمع كلامهما ويقوم لقيامهما ويمتثل أمرهما ولا يمشى أمامهما ولا يرفع صوته فوق أصواتهما ويلبى دعوتهما ويحرص على مرضاتهما ويخفض لهما الجناح ولا يمن عليهما بالبر لهما ولا بالقيام بأمرهما ولا ينظر اليهما شزرا ولا يقطب وجهه فى وجوههما ولا يسافر إلا باذنهما * واعلم أن الناس بعد هؤلاء فى حقك ثلاثة أصناف إما أصدقاء وإما معاريف وإما مجاهيل فان بليت بالعوام المجهولين فأدب مجالسة العامة ترك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما

والافترى الأجير يعمل طول النهار بدرهمين والحارس يسهر طول الليل بدانقين وكذلك أصحاب الصناعات والحرف كل واحد يعمل فى الليل والنهار فيكون قيمة ذلك دراهم معدودة فان صرفت الفعل الى الله تعالى فصمت لله تعالى يوما فيكون صومك ذلك اليوم لا قيمة له إذا رضيه وتقبله قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفى الخبر «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّائِمِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» فهذا يومك الذى قيمته درهمان مع احتمالك التعب العظيم صار له كل هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء ولو قمت ليلة لله تعالى وأخلصتها له كان قيامك لا قيمة له فى الشرف والنفاسة قال الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهذا الذى قيمته دانقان أو درهمان صار له كل هذه القيمة والقدر بل لو جعلت لله ساعة تصلى فيها ركعتين خفيفتين بل نفسا قلت فيه لا إله إلا الله قال الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهذا نفس من أنفاسك التى لا قيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك فكم تضيع أمثال ذلك فى لا شىء وكم مر عليك من الزمان بلا فائدة وصار له كل هذا القدر العظيم لما أنه وقع مرضيا لله تعالى فعظم قدره وكثرت قيمته بفضله فحق للعاقل اذن أن يرى حقارة عمله وقلة قدره من حيث هو وأن لا يرى الامنة الله تعالى عليه فيما شرف من قدر عمله وأعظم من جزائه وأن يحذر على فعله من أن يقع على وجه لا يصلح لله ولا يقع منه موقع الرضا فتذهب عنه القيمة التى حصلت له ويعود الى ما كان فى الأصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق وأحقر وأخس من ذلك . ومثاله أن العنقود من العنب والاضبارة من الريحان يكون قيمته فى السوق دانقا فان أهداه واحد إلى ملك مع خسته فوقع منه موقع الرضا يهب له على ذلك ألف دينار لما وقع منه موقع الرضا فصار ما قيمته حبة بألف دينار فاذا لم يرضه الملك ورده اليه رجع الى قيمته الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك ما نحن فيه . فتنبه وأبصر منة الله وصن فعلك عما يشينه عند الله عز وجل (والأصل الثانى) ما تعلم أن الملك فى الدنيا إذا أجرى على أحد جراية من طعام أو شراب أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة فانية فانه يستخدمه آناء الليل والنهار مع ما فى ذلك من الذل والصغار ويقوم على رأسه حتى تخدر رجلاه ويسعى بين يديه اذا ركب وربما يحتاج أن يكون على بابه طول الليل حارسا وربما يبدو له عدو فيحتاج أن يقاتل عدوه فيبذل روحه التى لا خلف عنها لأجله ويحتمل كل هذه الخدمة والكلف والخطر والضرر لأجل تلك المنفعة النكدة الحقيرة مع أنها بالحقيقة من الله تعالى وانما هو بمنزلة سبب فى ذلك ، فربك الذى خلقك ولم تك شيئا ثم رباك فأحسن اليك التربية ثم أنعم عليك من النعم الظاهرة والباطنة فى دينك ونفسك ودنياك ما لا يبلغ كنهها فهمك ووهمك قال عز من قائل ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ الآية ثم انك تصلى ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات ومع ما وعد عليهما فى المستقبل من حسن الثواب وضروب الكرامات حتى تستعظم ذلك وتعجب به فليس ذلك من شأن عاقل اذا نظرت فهذه هذه (والأصل الثالث) أن الملك الذى من شأنه أن يخدمه الملوك والأمراء وتقوم على رأسه السادات والعظماء ويتولى خدمته الالباء والحكماء ويطلب مدحته العقلاء والعلماء ويمشى بين يديه الأكابر والرؤساء اذا أذن لسوقى أو قروى بمقتضى رأفة وعناية له فى بابه حتى زاحم أولئك الملوك والسادات والأكابر والأفاضل فى خدمته

يجرى من سوء ألفاظهم والاحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة اليهم والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم وأما الاخوان والأصدقاء فعليك فيهم وظيفتان (احداهما) أن تطلب أولا شروط الصحبة والصداقة فلا تؤاخ الا من يصلح للاخوة والصداقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» فاذا طلبت رفيقا ليكون شريكك فى التعلم وصاحبك فى أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال: * الأولى العقل فلا خير فى صحبة الأحمق فالى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق. قال على رضى الله عنه :

ومدحته

ومدحته وجعل له مقامامن حضرته معلوماونظر الى خدمته بعين الرضا وان كانت مشوشة معيبة أليس
يقال له لقد كبرت على هذا الحقير المنة من الملك وعظمت عنايته به فان أخذ هذا الحقير يمن على الملك
بتلك الخدمة المعيبة ويستعظم ذلك ويعجب به ألا يقال ان ذلك لسفيه جدا أو مجنون لايعقل شيئا ولما
تقرر هذا فان إلهنا سبحانه هو الملك الذى يسبح له السموات السبع والأرض و من فيهن وإن من
شىء الا يسبح بحمده والمعبود الذى يسجد له من فى السموات والأرض طوعا وكرها فمن الخدم على بابه
جبريل الأمين وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والكروبيون والروحانيون وسائر
الملائكة المقربين الذين لا يحصى عددهم الا الله رب العالمين فى منازلهم الرفيعة وأنفسهم الطاهرة وعباداتهم
العظيمة. ثم من الذين هم خدمة على بابه آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد خير العالمين مع سائر
الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى مراتبهم المنيفة ومناقبهم العزيزة الشريفة
ومقاماتهم الكريمة وعباداتهم الجليلة الخطيرة . ثم العلماء الأئمة الأبرار والزهاد فى مراتبهم العظيمة
الفاخرة وأبدانهم النقية الطاهرة وعباداتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة. وأذل الخدم على بابه ملوك
الدنيا وجبابرتها يخرون له على الأذقان ساجدين صاغرين ويعفرون الوجوه فى التراب خاضعين
ويرفعون حوائجهم اليه باكين مبتهلين ضارعين. ويعترفون له بالعبودية ولأنفسهم بالنقص ساجدين
صاغرين حتى ربما ينظر اليهم نظرة ويقضى لهم بفضله حاجة أو يتجاوز لهم بكرمه عن زلة وانه مع هذه
العظمة والجلال والملك والكمال قد أذن لك فى حقارتك وعيوبك وقذارتك وأنت الذى لو استأذنت
على رأس بلدك فربما لايأذن لك وان كلمت أمير ناحيتك فربما لا يكلمك وان سجدت لسلطان بلدك
بالأرض فربما لا يلتفت اليك وقد أذن لك جل جلاله حتى تعبده وتثنى عليه وتخاطبه بل تدل بالمسئلة عليه
وتباسطه فتستقضيه حاجاتك وتستكفيه مهماتك ثم انه يرضى ركعتيك فى معايبهما بل يعد لك عليهما من
الثواب مالا يخطر بقلب بشر وأنت مع ذلك تعجب بهاتين الركعتين وتستكثر ذلك وتستعظمه ولا ترى
منة الله عليك فى ذلك . فما أسوأك من عبد وما أجهلك من انسان والله تعالى المستعان واليه المشتكى
من هذه النفس الجاهلة وعليه التكلان فهذه هذه

﴿فصل﴾ وعلى وجه آخر ان الملك العظيم اذا أذن فى ادخال الهدايا اليه فتدخل بحضرته الأمراء
والكبراء والرؤساء والنبلاء والأغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة والذخائر النفيسة
والأموال الجليلة فان جاء بقال بباقة بقل أو قروى بسلة عنب تساوى دانقا أو حبة فيدخل فى
حضرته ويزاحم أولئك الأكابر والأغنياء بهداياهم الكثيرة الشريفة وهذا الملك يقبل من هذا
الفقير هديته وينظر اليه بنظر القبول والرضا ويأمر له بأنفس خلعة وكرامة ألا يكون ذلك منه
غاية الفضل والكرم فان اخذ هذا الفقير يمن بذلك على الملك ويعجب به ويستعظمه وينسى
ذكر منة الملك ألا يقال ان هذا مجنون مضطرب العقل أو سفيه سىء الأدب عظيم الجهل .
فالآن يجب انك اذا قمت لله ليلة وصليت له ركعتين فاذا فرغت فتفكر كم قام لله سبحانه فى هذه الليلة
من الخدم فى أقطار الأرض برها وبحرها وجبالها وبلادها من أصناف المستقيمين والصديقين والخائفين
والمشتاقين والمجتهدين والمتضرعين وكم حضرت فى هذه الساعة بباب الله سبحانه من عبادة صافية

فلا تصحب أخا الجهل
وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى
حليما حين واخاه
يقاس المرء بالمرء
اذا ما المرء ماشاه
كحذو النعل بالنعل
اذا ما النعل حاذاه
وللشىء من الشىء *
مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب *
دليل حين يلقاه
الثانية حسن الخلق فلا
تصحب من ساء خلقه
وهو الذى لا يملك نفسه
عند الغضب والشهوة وقد
جمعه علقمة العطاردى
رحمه الله تعالى فى
وصيته لابنه لما حضرته
الوفاة فقال : يابنى
اذا أردت صحبة انسان
فاصحب من اذا خدمته
صانك وان صحبته
زانك وان قعدت بك
مؤنة مانك . اصحب
من اذا مددت يدك
بخير مدها وان رأى
منك حسنة عدها. وان
رأى منك سيئة سدها.
اصحب من اذا قلت
صدق قولك واذا حاولت
أمرا أعانك ونصرك
وان تنازعتما فى شىء
آثرك * وقال على

وخدمة خالصة عن أنفس خاشعة وألسن طاهرة وعيون باكية وقلوب عامرة وصدور نقية وأركان تقية. وصلواتك ان كنت بذلت المجهود فى تحسينها واحكامها واخلاصها فلا تكاد تصلح لحضرة هذا الملك العظيم ولا تبين فى جنب تلك العبادات التى تعرض هناك، كيف وقد كانت منك عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب وبدن نجس بأقذار الذنوب ولسان ملطخ بأنواع المعصية والفضول، فكيف يصلح هذا أن يحمل الى تلك الحضرة، وكيف يستأهل أن يهدى الى رب العزة. قال شيخنا رحمه الله انظر أيها العاقل هل وجهت قط صلاة من صلواتك الى السماء كائدة بعثتها الي بيوت الأغنياء . وكان أبو بكر الوراق يقول : مافرغت من صلاة الا استحيت منها حين فرغت منها أشد حياء من امرأة فرغت من الزنا (ثم) ان الرب الكريم سبحانه بمحض كرمه وفضله عظم قدرهاتين الركعتين ووعد عليهما من جزيل الثواب ماوعد وأنت عبده وفى جرايته وعملت ماعملت بتوفيقه وتيسيره مع ذلك تعجب بذلك وتنسى منة الله عليك ، هذا والله أعجب العجب لايكاد يصدر مثله الا عن جاهل لافكر له وغافل لاذهن له أو قلب ميت خاو لاخير فيه . فهذه هذه نسأل الله حسن الكفاية بمنه وفضله

﴿ فصل ﴾ ثم أقول بعد هذه الجملة: تيقظ من رقدتك أيها الرجل فى هذه العقبة والا كنت من الخاسرين فان هذه العقبة أشد وأشق وأمر وأضر عقبة استقبلتك فى هذه الطريق اذ اليها تنتهى ثمرة كل مامضى من العقبات فان سلمت غنمت وربحت، وان كانت الأخرى فقد ضاع السعى كله وخاب الأمل وبطل العمر . ثم الشأن كله أنه قد اجتمع فى هذه العقبة ههنا ثلاثة أمور : الأول منها أن الأمر دقيق جدا والغبن شديد والخطر عظيم : أما دقة الأمر فان مجارى الرياء والعجب فى الأعمال دقيقة حقيقة بالعناية فلا يكاد يتنبه لذلك الا كل نحرير فى أمر الدين بصير يقظان القلب متحرز، وأنى يطلع عليه الجاهل اللعوب والغافل النؤوم ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله بنيسابور يحكى أن عطاء السلمى رحمة الله عليه ورضوانه نسج ثوبا فأحكمه وحسنه جدا ثم حمله الى السوق فعرضه فاسترخصه البزار فقال ان فيه عيوبا كيت وكيت فأخذه عطاء وجلس يبكى بكاء شديدا فندم الرجل على ذلك وجعل يعتذر اليه ويبذل له فى ثمنه مايريد فقال له عطاء ليس ذلك كما تظن انما أنا عامل فى هذه الصناعة وقد اجتهدت فى احكام هذا الثوب واصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به عيب فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوبا كنت عنها غافلا فكيف أعمالنا هذه اذا عرضت غدا على الله كم يبدو فيها من العيوب والنقصان التى نحن اليوم عنها غافلون * وعن بعض الصالحين قال كنت ليلة فى وقت السحر فى غرفة لدى شارعة أقرأ سورة طه فلما أن ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فاذا فيها سورة طه واذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة الا كلمة واحدة فانى رأيت مكانها محوا ولم أر تحتها شيئا فقلت والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثوابا ولا أراها أثبتت فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها الا أنا سمعنا مناديا ينادى من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها قال فبكيت فى منامى وقلت لم فعلتم ذلك قال مر رجل فرفعت بها صوتك لأجله فذهب ثوابها فهذه هذه (وأما) شدة الغبن فلأن الرياء والعجب آفة عظيمة تقع فى لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة (وحكى) أن رجلا أضاف سفيان الثورى

رضى الله عنه رجزا : ان أخاك الحق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفعك * ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك * الثالث الصلاح فلا تصحب فاسقا مصرا على معصية كبيرة لأن من يخاف الله لا يصر على معصية كبيرة ومن لايخاف الله لا تؤمن غوائله بل يتغير بتغير الاعراض والأحوال قال الله تعالى لنبيه ﷺ «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ» فاحذر صحبة الفاسق فان مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية وتهون عليك أمرها ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة لالفهم لها ولو رأوا خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد انكارهم عليه والغيبة أشد من ذلك * الرابعة ألا يكون حريصا على الدنيا

رحمه الله وأصحابه فقال لأهله هاتوا الطبق لا الذى أتيت به فى الحجة الأولى بل الذى أتيت به فى الحجة الثانية فنظر اليه سفيان وقال: مسكين قد أفسد عليه بهذا حجتيه. ووجه آخر فى الغبن ان أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب يكون لها من الله عز وجل من القيمة مالا نهاية له وأكثر طاعة اذا أصابتها هذه الآفة بقيت لاقيمة لها الا أن يتدارك ها الله تعالى على ماروى عن على رضى الله عنه أنه قال: لايقل عمل مقبول البتة وكيف يقل عمل مقبول. وسئل النخعى عن عمل كذا وكذا ماثوابه قال اذا قبل لايحصى ثوابه. وعن وهب قال: كان فيمن كان قبلكم رجل عبدالله سبعين عاما صائما يفطر من سبت الى سبت فطلب الى الله حاجة فلم تقض له فأقبل على نفسه يلومها وقال: من قبلك أتيت لو كان عندك خير لقضيت حاجتك فأنزل الله تعالى ملكا فقال يا ابن آدم ساعتك الذى ازدريت فيها نفسك خير من عبادتك التى مضت (قلت) فلينظر العاقل الى هذا الكلام أليس من الغبن أن واحدا يكدح ويتعب سبعين سنة وآخر يتفكر ساعة واحدة فتكون فكرة ساعة أفضل عند الله من عبادة سبعين سنة أليس هذا من الغبن العظيم أنك متمكن من ساعة خير من سبعين سنة وتترك ذلك من غير حاجة بلى والله انه لأعظم الغبن وان اغفاله لأشد خسرانا وان الخصلة التى لها هذه القيمة والخطر يجب أن تحذر وتجتنب، ولمثل هذا المعنى انما وقع نظر أولى الأبصار من العباد فى مثل هذه الدقائق فاهتموا لمثل هذه الأسرار بمعرفتها أولا ثم رعايتها والتحفظ عنها ثانيا ولم تغنهم كثرة الأعمال بالظاهر وقالوا الشأن فى الصفوة لا فى الكثرة، وقالوا جوهرة واحدة خير من ألف خرزة. وأما الذين قل علمهم وكل فى هذا الباب نظرهم فجهلوا المعانى وأغفلوا مافى القلوب من عيوب واشتغلوا باتعاب النفوس فى الركوع والسجود والامساك عن الطعام والشراب ونحوه فغرهم العدد والكثرة ولم ينظروا مافيهما من النح والصفوة، ومايغنى عدد الجوز ولا لب فيه، وما ينفع رفع السقوف، ولم تحكم مبانيها ومايعقل هذه الحقائق الا العالمون بالله المكاشفون والله تعالى ولى الهداية بفضله. وأما عظم الخطر فمن وجوه (أحدها) ان المعبود ملك لانهاية لجلاله وعظمته وله عليك نعم لاتعد ولاتحصى ولك بدن معيب بعيوب خفية مؤوف بآفات كثيرة وأمر مخوف ان وقع لك زلل مع تسارع النفس اليه فيحتاج أن تستخرج عملا صافيا سالما من بدن معيب ونفس ميالة الى الشر أمارة بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين فى جلاله وعظمته وكثرة أياديه ومنته ويقع منه موقع الرضا والقبول والا فيفوتك الربح العظيم الذى لاتسمح النفس بفوته بل ربما يصيبك فيه مصيبة لا طاقة لك بها وهذا والله شأن عظيم وحطب جسيم. وأما جلال الملك وعظمته بحيث أن الملائكة المقربين الأبرار قائمون له بالخدمة آناء الليل والنهار حتى ان منهم من هو مذ خلقه الله تعالى فى قيام ومنهم من هو فى ركوع ومنهم من هو فى سجود ومنهم من هو فى تسبيح وتهليل فلايتم القائم قيامه ولا الراكع ركوعه ولا الساجد سجوده ولا المسبح تسبيحه ولا المهلل تهليله مادابه صوته الى نفخ الصور ثم لما فرغوا من هذه الخدمة العظيمة نادوا بأجمعهم: سبحانك ماعبدناك حق عبادتك. وهذا سيد المرسلين وخير العالمين أعلم الخلق وأفضلهم محمد ﷺ وعلى آله أجمعين يقول «لاأُحصِي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ» يقول أنا لا أقدر أن أثنى عليك ثناء أنت له أهل فضلا عن أن أعبدك كما أنت له أهل وهو الذى يقول «لَيْسَ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَارَسُولَ الله

فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى فمجالسة الحريص تزيد فى حرصك ومجالسة الزاهد تزيد فى زهدك * الخامسة الصدق فلا تصحب كذابا فانك منه على غرور فانه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال فى سكان المدارس والمساجد فعليك بأحد الأمرين اما العزلة والانفراد فان فيها سلامتك واما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم بأن تعلم ان الاخوة ثلاثة: أخ لآخرتك فلاتراع فيه الا الدين وأخ لدنياك فلا تراع فيه الا الخلق الحسن وأخ تستأنس به فلا تراع فيه الا السلامة من شره وفتنته وخبثه

قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَتِهِ » وأما النعم والأيادى فكما قال تعالى «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا» وعلى ماروى أنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين : ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم فتقابل الحسنات بالنعم فلا يؤتى بحسنة الا أتى بنعمة حتى تغمر الحسنات النعم وتبقى السيئات والذنوب فلله تعالى فيها المشيئة . وأما عيوب النفس وآفاتها فقد قدمناها فى بابها .والأمر المخوف أن العبد يكدح فى العبادة ويدأب سبعين سنة غافلا عن عيوبه وآفاته فربما لا يكون واحد منها مقبولا ،وربما يتعب أعواما فتفسده ساعة واحدة ، وأعظم خطرا من ذلك كله أنه ربما ينظر الله تعالى الى العبد وهو يرائى الناس بعبادته وخدمته حيث جعل ظاهره لله وباطنه للخلق فيطرده طردا لا مرد له والعياذ بالله . ولقد سمعت بعض العلماء يحكى عن الحسن البصرى رحمه الله : أنه رؤى فى المنام بعد موته فسئل عن حاله فقال أقامنى الله بين يديه وقال: ياحسن أتذكر يوم كنت تصلى فى المسجد اذ رمقك الناس بأبصارهم فزدت حسنا لصلاتك فلولا أن أول صلاتك كان لى خالصا لطردتك اليوم عن بابى ولقطعتك عنى مرة واحدة. ولما كان الأمر فى الجملة من الدقة والصعوبة الى حد عظيم نظر أولو الأبصار فيه فخافوا على أنفسهم حتى ان منهم من لا يلتفت الى جميع مايظهر للناس من أعماله حتى حكى عن رابعة أنها قالت : ماظهر لى من أعمالى لا أعده شيئا . وقال آخر: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك. وآخر يقول : ان أمكنك أن تجعل لك خبأ من الخير فافعل . ولقد حكى أنه قيل لرابعة : بم ترتجين أكثر ماترتجين قالت بيأسى من جل عملى .(وحكى) أنه اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار فقال مالك اما طاعة الله أو النار ، فقال محمد بن واسع اما رحمة الله أو النار، فقال مالك ماأحوجنى الى معلم مثلك (وعن أبى يزيد البسطامى رحمه الله) قال : كابدت العبادة ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لى : ياأبايزيد خزائنه مملوءة من العبادة فان أردت الوصول اليه فعليك بالذل والافتقار (وسمعت الأستاذ أبا الحسن) يحكى عن الأستاذ أبى الفضل رحمهما الله أنه كان يقول انى أعلم أن ماأعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى فقيل له فى ذلك فأجاب انى أعلم مايحتاج اليه الفعل حتى يكون مقبولا وأعلم أنى لست أقوم بذلك فعلمت أنها غير مقبولة،قيل له فلم تفعلها قال عسى أن يصلحنى الله تعالى يوما فتكون النفس متعودة لعمل الخير فلا أحتاج الي أن أعودها ذلك من الرأس . فهذه حال هؤلاء الأعلام وذوى المجاهدات والأخطار والاقدام فكنت أنت كما قال الشاعر

فاطلب لنفسك صحبة مع غيرهم * وقع الاياس وخابت الآمال
هيهات تدرك بالتوانى سادة * كدوا النفوس وساعد الاقبال

ثم رأيت أنى أثبت ههنا الخبر المأثور عن الصادق المصدوق صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه، وقد ذكرناه فى غير كتاب واحد (روى) عن ابن المبارك رحمه الله عن رجل وهو خالد بن معدان أنه قال لمعاذ حدثنى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ وحفظته وذكرته فى كل يوم من شدته ودقته قال نعم ثم بكى بكاء طويلا ثم قال واشوقاه الى رسول الله ﷺ والى لقائه ثم قال « بَيْنَا أَنا عند رسول الله ﷺ إِذْ رَكِبَ وأَرْدَفَنى خلفه ثم سِرنا فرفع بصرَه الى السماء ثم قال:« الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى يَقْضِى فِى خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ يَامُعَاذُ قلت لبيك ياسيد المرسلين قال : أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ ضَيَّعْتَهُ

والناس ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج اليه فى وقت دون وقت، والآخر مثله مثل الداء لا يحتاج اليه قط ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته الى الخلاص منه وفى مشاهدته فائدة عظيمة ان وفقت لها وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه فالسعيد من وعظ بغيره والمؤمن مرآة المؤمن وقيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال ما أدبنى أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته. ولقد صدق صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم فلو اجتنب الناس مايكرهونه من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين (الوظيفة الثانية حقوق الصحبة) فمهما انعقدت الشركة وانتظمت

انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يَامُعَاذُ إِنَّ ٱللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مَلَكًا بَوَّابًا خَازِنًا وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلسَّمٰوَاتِ مَلَكًا بَوَّابًا عَلَى قَدْرِ ٱلْبَابِ وَجَلَالَتِهِ فَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ وَلَهُ نُورٌ وَشُعَاعٌ كَالشَّمْسِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْحَفَظَةُ تَسْتَكْثِرُ عَمَلَهُ وَتُزَكِّيهِ فَإِذَا انْتَهَى إِلَى ٱلْبَابِ قَالَ ٱلْمَلَكُ لِلْحَفَظَةِ اضْرِبُوا بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ ٱلْغِيبَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَ مَنْ يَغْتَابُ ٱلنَّاسَ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي . ثُمَّ تَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ مِنَ ٱلْغَدِ مَعَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ لَهُ نُورٌ تَسْتَكْثِرُهُ ٱلْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلثَّانِيَةِ قَالَ ٱلْمَلَكُ قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي فَتَلْعَنُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ وَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ مُبْتَهِجًا بِهِ فِيهِ صَدَقَةٌ وَصِيَامٌ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْبِرِّ فَتَسْتَكْثِرُهُ ٱلْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلثَّالِثَةِ قَالَ ٱلْمَلَكُ ٱلْبَوَّابُ قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ صَاحِبِ ٱلْكِبْرِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ وَهُوَ يَزْهُو كَمَا تَزْهُو ٱلنُّجُومُ وَٱلْكَوْكَبُ ٱلدُّرِّيُّ لَهُ دَوِيٌّ وَتَسْبِيحٌ بِصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلرَّابِعَةِ قَالَ ٱلْمَلَكُ ٱلْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ صَاحِبِ ٱلْإِعْجَابِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَدْخَلَ ٱلْعُجْبَ فِيهِ . وَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ يُزَفُّ كَمَا تُزَفُّ ٱلْعَرُوسُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلْخَامِسَةِ بِذَلِكَ ٱلْعَمَلِ ٱلْحَسَنِ مِنْ جِهَادٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ ٱلشَّمْسِ فَيَقُولُ ٱلْمَلَكُ أَنَا صَاحِبُ ٱلْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ سَخِطَ مَا أَرْضَى ٱللهَ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي وَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ بِوُضُوءٍ تَامٍّ وَصَلَاةٍ كَثِيرَةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يَتَجَاوَزُوا بِهِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّادِسَةِ فَيَقُولُ ٱلْمَلَكُ ٱلْمُوَكَّلُ بِالْبَابِ أَنَا صَاحِبُ ٱلرَّحْمَةِ اضْرِبُوا بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لَمْ يَرْحَمْ قَطُّ إِنْسَانًا وَإِنْ أُصِيبَ عَبْدٌ شَمِتَ بِهِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي . وَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ بِنَفَقَةٍ كَثِيرَةٍ وَصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَجِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ ٱلرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ ٱلْبَرْقِ فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّابِعَةِ فَيَقُولُ ٱلْمَلَكُ ٱلْمُوَكَّلُ بِالسَّمَاءِ أَنَا صَاحِبُ ٱلذِّكْرِ ـ يَعْنِي ٱلسُّمْعَةَ وَٱلصِّيتَ فِي ٱلنَّاسِ ـ إِنَّ صَاحِبَ هٰذَا ٱلْعَمَلِ أَرَادَ بِهِ ٱلذِّكْرَ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلرِّفْعَةَ عِنْدَ ٱلْقُرَنَاءِ وَٱلْجَاهَ عِنْدَ ٱلْكُبَرَاءِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلهِ تَعَالَى خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ وَلَا يَقْبَلُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلَ ٱلْمُرَائِي وَتَصْعَدُ ٱلْحَفَظَةُ بِعَمَلِ ٱلْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلَائِكَةُ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلسَّبْعِ حَتَّى تَقْطَعَ ٱلْحُجُبَ كُلَّهَا إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ ٱلصَّالِحِ ٱلْمُخْلَصِ لِلهِ تَعَالَى فَيَقُولُ ٱللهُ

بينك وبين شريكك الصحبة فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفى القيام بها آداب وقد قال ﷺ «مَثَلُ ٱلْأَخَوَيْنِ مَثَلُ ٱلْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَى» ودخل ﷺ أجمة فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم وكان معه بعض أصحابه فأعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج فقال يارسول الله انك أحق منى بالمستقيم فقال ﷺ « مَا مِنْ صَاحِبٍ يَصْحَبُ صَاحِبًا وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ إِلَّا سُئِلَ عَنْ صُحْبَتِهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ ٱللهِ تَعَالَى أَوْ أَضَاعَهُ » وقال ﷺ «مَا ٱصْطَحَبَ ٱثْنَانِ قَطُّ إِلَّا وَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى ٱللهِ تَعَالَى أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ » . وآداب الصحبة الايثار بالمال فان لم يكن هذا فبذل الفضل من المال عند الحاجة

تعالى أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على ما في نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري ولا أخلصه لي وأنا أعلم بما أراد من عمله عليه لعنتي غر الآدميين وغركم ولم يغرني وأنا علام الغيوب المطلع على ما في القلوب لا تخفى علي خافية ولا تعزب عني عازبة علمي بما كان كعلمي بما يكون وعلمي بما مضى كعلمي بما بقي وعلمي بالأولين كعلمي بالآخرين أعلم السر وأخفى فكيف يغرني عبدي بعمله إنما يغر المخلوقين الذين لا يعلمون وأنا علام الغيوب عليه لعنتي وتقول الملائكة السبعة والثلاثة الآلاف المشيعون يا ربنا عليه لعنتك ولعنتنا فيقول أهل السموات عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين ثم بكى معاذ رحمه الله وانتحب انتحابا شديدا وقال يا رسول الله كيف النجاة مما ذكرت قال يا معاذ اقتد بنبيك في اليقين قلت أنت رسول الله وأنا معاذ بن جبل كيف لي النجاة والخلاص قال نعم يا معاذ إن كان في عملك تقصير فاقطع لسانك عن الوقيعة في الناس وعن إخوانك من حملة القرآن خاصة وليردك عن الوقيعة في الناس ما تعلمه من عيب نفسك ولا تزك نفسك بذم إخوانك ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك ولا تراء بعملك كي تعرف في الناس ولا تدخل في الدنيا دخولا ينسيك أمر الآخرة ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تفحش في مجلسك حتى يحذروك من سوء خلقك ولا تمن على الناس ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب جهنم وهو قوله تعالى ﴿والناشطات نشطا﴾ يقول تنزع اللحم عن العظام قلت يا رسول الله ومن يطيق هذه الخصال قال يا معاذ إن الذي وصفت لك ليسير على من يسره الله تعالى عليه إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك فإذن أنت قد سلمت ونجوت».

قال خالد بن معدان : وكان معاذ لا يكثر من تلاوة القرآن كما يكثر من تلاوة هذا الحديث وذكره فى مجلسه فلما سمعت أيها الرجل وكل ذلك الرجل بهذا الحديث العظيم نبؤه الكبير خطره الأليم أثره الذى تطير له القلوب ويحير له العقول وتضيق عن حمله الصدور وتجزع لهوله النفوس فاعتصم بمولاك إله العالمين والزم الباب بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين والمبتهلين فانه لا نجاة من هذا الأمر الا برحمته ولا سلامة من هذا البحر الا بنظره وتوفيقه وعنايته فتنبه من غفلة الغافلين. وأعط الأمر حقه وجاهد نفسك فى هذه العقبة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين والمستعان بالله على كل حال فانه خير معين. وهو تعالى أرحم الراحمين. ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿فصل﴾ وجملة الأمر أنك اذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى ورأيت عجز الخلق وضعفهم وجهلهم فلا تلتفت اليهم بقلبك وكن زاهدا فى ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لا فائدة تحته فلا ترد بطاعتك شيئا من ذلك واذا رأيت خسة الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها فلا تردها أيضا بطاعتك من الله وقل يا نفس ثناء رب العالمين وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين الذين لا يعرفون قدر عملك بالحقيقة وما تحملت فيه وما يبلغون حقك فيما عملت بل ربما يفضلون عليك من هو أدون منك حالا بألف درجة ويضيعونك فى أحوج الأوقات وينسونك ، وان لم يفعلوا ذلك فماذا عسى أن يكون بأيديهم والى ماذا

والاعانة بالنفس فى الحاجات على سبيل المبادرة من غير احواج الى التماس وكتمان السر وستر العيوب والسكوت عن تبليغ مايسوء من مذمة الناس اياه وابلاغ مايسره من ثناء الناس عليه وحسن الاصغاء عند الحديث وترك المماراة فيه وأن يدعوه بأحب أسمائه اليه وأن يثنى عليه بما يعرف من محاسنه وأن يشكره على صنيعه فى وجهه وأن يذب عنه فى غيبته اذا تعرض لعرضه كما يذب عن نفسه وأن ينصحه باللطف والتعريض اذا احتاج اليه وأن يعفو عن زلته وهفوته فلا يعتب عليه وأن يدعو له فى خلوته فى حياته وبعد مماته وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته وأن يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيئا من حاجته ويروح قلبه من مهماته وأن يظهر الفرح بجميع مايحتاج

تبلغ قدرتهم، ثم هم فى قبضة الله تعالى يصرفهم كيف يشاء والى مايشاء فاعقلى أيتها النفس فلا تضيعى طاعتك العزيزة بهم ولا يفوتك ثناء من ثناؤه كل فخر وعطاء من عطاؤه كل ذخر ولقد صدق القائل :

سهر العيون لغير وجهك باطل * وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقل يانفس أجنة الخلد خير أم لطخة من حرام الدنيا وحطامها النكد الفانى وأنت متمكنة من أن يحصل لك بطاعتك هذا النعيم المقيم فلا تكونى خسيسة الهمة رديئة الارادة دنيئة الأفعال أما ترين الحمام اذا كان سماويا كيف تعلو قيمته ويزداد قدره فارفعى همتك كلها الى السماء وجردى قلبك لله تعالى الواحد الذى بيده الأمر كله ولا تضيعى ماظفرت به من طاعتك بلاشىء وكذلك اذا أحسنت التأمل فرأيت أيادى الله تعالى ومننه العظام عليك فى هذه الطاعة بأن أمكنك منها وأعطاك الآلة أولا . ثم أزاح عنك العوائق حتى تفرغت لهذه الطاعة ثانيا . ثم خصك بالتوفيق والتأييد ويسرها عليك وزينها فى قلبك حتى عملتها ثالثا . ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه عنك وعن طاعتك وكثرة نعمته عليك أعدلك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل والثواب العظيم الذى لا تستحقينه . رابعا ثم شكرك على ذلك وأثنى عليك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل وأحبك بذلك خامسا . فهذه كلها بفضله العظيم لا غير والا فبأى استحقاق لك وأى قدر لعملك الحقير المعيب فاذكرى أيتها النفس منة ربك الكريم الرحيم سبحانه فيما أحسن اليك فى هذه الطاعة واستحى من أن تلتفتى الى عمل بل الفضل والمنة لله تعالى علينا بكل حال ولا يكون لك شغل بعد حصول هذه الطاعة الا التضرع والابتهال الى الله سبحانه بأن يتقبلها . أما تسمعين قول خليله ابراهيم عليه السلام لما فرغ من خدمته فى بناء بيته كيف ابتهل الى الله فى أن يتفضل عليه بالقبول فقال ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولما فرغ من دعائه قال ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ فلئن من عليك بقبول هذه البضاعة المزجاة فلقد أكمل النعمة وأعظم المنة، فيالها من سعادة ودولة وعز ورفعة وكم تزين اذ ذاك لك من خلعة ونعمة وذخر وكرامة وان تكن الأخرى فياله من خسران وغبن وحرمان فاهتمى واشتغلى بهذا الشأن فاذا واظبت على مثل ذلك وكررته على قلبك عند الفراغ من طاعتك واستعنت بالله عز وجل صرفك عن الالتفات الى الخلق والنفس وشغلك عن مراءاة واعجاب وبعثك على محض الاخلاص لله تعالى فى الطاعات والتمسك بذكر الله تعالى فى جميع الحالات ويحصل لك أرجى طاعات طاهرة لاعيب فيها وخيرات خالصة لاشوب فيها وعبادات مقبولة لانقص فيها بل مثل هذه الطاعة وان حصلت فى العمر مثلا مرة واحدة لاغير فانها بالحقيقة لكثيرة ولعمرى انها وان قل عددها لقد كثر معناها وعظم قدرها وكثر نفعها وطابت عقباها وان التوفيق لمثلها لعزيز والفضل به لله تعالى على العبد لكثير فأى هدية أجل من هدية يقبلها رب العالمين وأى سعى أكرم من سعى يشكره مجيب المضطرين ويثنى عليه رب العالمين وأى بضاعة أعز من بضاعة اختارها ورضيها رب العالمين فتأمل أيها المسكين واياك أن تكون من المغبونين واذا جرى الأمر على هذه الجملة كنت من المخلصين لله سبحانه الخائفين الذاكرين لمننه المرضيين وكنت قد خلفت هذه العقبة المخوفة وراءك وسلمت من آفاتها وسبقت بخيراتها وثمراتها فائزا على الأبد بكراماتها وسعاداتها والله سبحانه ولى التوفيق والعصمة بمنه وكرمه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

له من مسارّه والحزن بما يناله من مكارهه وأن يضمر مثل مايظهره فيكون صادقا فى وده سرا وعلانية ويبدأه بالسلام عند اقباله وأن يوسع له فى المجلس ويخرج له من مكانه وأن يشيعه عند قيامه وأن يصمت عند كلامه حتى يفرغ من خطابه وترك المداخلة فى كلامه وعلى الجملة فيعامله بما يحب أن يعامل به فمن لا يحب لأخيه مثل مايحب لنفسه فأخوته نفاق وهى عليه فى الدنيا والآخرة وبال فهذا أدبك فى حق العوام المجهولين وفى حق الأصدقاء المؤاخين * وأما القسم الثالث وهم المعارف فاحذر منهم فانك لاترى الشر الا ممن تعرفه أما الصديق فيعينك وأما المجهول فلا يتعرض لك وانما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم فأقلل من

﴿العقبة السابعة وهى عقبة الحمد والشكر﴾

ثم عليك وفقك الله وايانا بحسن توفيقه بعد قطع هذه العقبات والظفر بالمقصود من هذه العبادات السالمة من الآفات بالحمد والشكر لله سبحانه على هذه النعمة العظيمة والمنة الكريمة وانما يلزمك ذلك لأمرين أحدهما لدوام النعمة العظيمة ، والثانى لحصول الزيادة. فأما دوام النعمة فلأن الشكر قيد النعم به تدوم وتبقى وبتركه تزول وتحول قال الله سبحانه ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وقال عز من قائل ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقال سبحانه ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ وقال النبى ﷺ « إِنَّ لِلنِّعَمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ فَقَيِّدُوهَا بِالشُّكْرِ » وأما حصول الزيادة فلما كان الشكر هو قيد النعمة فهو يثمر الزيادة وقال الله سبحانه ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فالسيد الحكيم اذا رأى العبد قد قام بحق نعمة من عليه بأخرى وراه أهلا والا فيقطع ذلك عنه. ثم النعم قسمان دنيوية ودينية فالدنيوية ضربان نعمة نفع ونعمة دفع فنعمة النفع أن أعطاك المصالح والمنافع وهى ضربان الخلقة السوية فى سلامتها وعافيتها والملاذ الشهية من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها ونعمة الدفع أن صرف عنك المفاسد والمضار وهى ضربان أحدهما فى النفس بأن سلمك من زمانتها وسائر آفاتها وعللها . والثانى دفع ما يلحقك به من ضرر من أنواع العوائق أو يقصدك بشر من انس أو جن أو سباع أو هوام أو نحوها (وأما) النعم الدينية فضربان نعمة التوفيق ونعمة العصمة فنعمة التوفيق أن وفقك الله أولا للاسلام ثم للسنة ثم للطاعة ونعمة العصمة أن عصمك أولا عن الكفر والشرك ثم عن البدعة والضلالة ثم عن سائر المعاصى. وتفصيل ذلك لا يحصيه الا السيد العالم الذى أنعم عليك به كما قال جل وعلا ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وان دوام هذه النعم كلها بعد أن من عليك بها والزيادة عليها من كل باب منها مما لا يحصيه ولا يبلغه وهمك وكلها تتعلق بشىء واحد وهو الشكر والحمد لله، وان خصلة تكون لها هذه القيمة وتكون فيها كل هذه الفائدة لحقيق بأن يتمسك بها من غير اغفال بحال فانه جوهر ثمين وكيمياء عزيزة والله ولى التوفيق بفضله ورحمته (فان قيل) فما حقيقة الحمد والشكر وما معناهما وحكمهما فاعلم أن العلماء فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل بأن الحمد من أشكال التسبيح والتهليل فيكون من المساعى الظاهرة والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعى الباطنة لأن الشكر يقابل الكفر والحمد يقابل اللوم ولأن الحمد أعم وأكثر والشكر أقل وأخص قال الله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فثبت أنهما معنيان متميزان . ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن هذا مقتضى كلام شيخنا رحمه الله. وأما الشكر فتكلموا فى معناه وأكثروا فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السر والعلانية والى نحوه ذهب بعض مشايخنا فقال الشكر هو أداء الطاعات فى الظاهر والباطن ثم رجع الى أنه اجتناب المعاصى ظاهرا وباطنا. وقال غيره الشكر الاحتراس عن اختيار معاصى الله. تحترس عن قلبك ولسانك وأركانك حتى لا تعصى الله عز وجل بشىء من هذه الثلاثة بوجه من الوجوه. والفرق بين قوله وبين قول الشيخ الأول أنه رحمه الله تعالى جعل الاحتراس معنى مثبتا زائدا على

المعارف ما قدرت فاذا بليت بهم فى مدرسة أو جامع أو مسجد أو بلد أو سوق فيجب أن لا تستحقر منهم أحدا فانك لا تدرى لعله خير منك ولا تنظر اليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم فتهلك لأن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها. ومهما عظم أهل الدنيا فى قلبك فقد سقطت من عين الله تعالى واياك أن تبذل لهم دينك لتنال به من دنياهم فلم يفعل ذلك أحد الا صغر فى أعينهم ثم حرم ما عندهم وان عادوك فلا تقابلهم بالعداوة فانك لا تطيق الصبر على مكافأتها فيذهب دينك فى عداوتهم فيطول عناؤك معهم ولا تسكن اليهم فى حال اكرامهم اياك وثنائهم عليك فى وجهك واظهارهم المودة لك فانك ان طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة واحدا

الاجتناب عن المعاصى. وأما الاجتناب عن المعصية ماهو الا أن لا يفعل المعصية عند دواعيها ولا يكون فى نفسه معنى محصلا يكون العبد به مشتغلا وعن الكفران معتصما . وقال شيخنا رحمه الله تعالى : ان الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه. ولو قلت تعظيم المحسن على مقابلة احسانه ليصح أن يكون من الله الشكر للعبد فحسن وفيه تفاصيل قد شرحناها فى كتاب احياء علوم الدين وغيره ولكن التحصيل أن الشكر من العبد تعظيم يمنع من جفاء من أحسن اليه وذلك بتذكر احسانه وحسن حال الشاكر فى شكره وقبح حال الكافر فى كفرانه (قلت) ان أقل مايستوجبه المنعم بنعمته أن لا يتوصل بها الى معصية وما أقبح حال من جعل نعمة المنعم سلاحا على عصيانه. فعلى العبد اذن من فرض الشكر فى حقيقته أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه على حسب تذكر نعمه فاذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الأصل فيه ثم يقابل ذلك بجد فى الطاعة وجهد فى القيام بالخدمة اذ هو من حقوق النعمة فلا بد من الاحتراس عن المعصية وبالله التوفيق (فان قلت) فما موضع الشكر فاعلم أن موضعه النعم الدينية والدنيوية على أقدارها . وأما الشدائد والمصائب فى الدنيا فى نفس أو أهل أو مال فتكلموا فى ذلك هل يلزم العبد الشكر عليها قال بعضهم لا يلزم العبد الشكر عليها من حيث هى وانما يجب فيها الصبر. وأما الشكر فهو على النعمة لا غير قالوا ولا شدة الا فى جنبها نعم لله تعالى فلزم الشكر على تلك النعم المقترنة بها دون نفس الشدة، وتلك النعم ماقاله ابن عمر رضى الله عنهما : ماابتليت ببلية الا كان لله تعالى علىّ فيها أربع نعم: اذ لم تكن فى دينى، واذ لم تكن أعظم منها، واذ لم أحرم الرضا بها، واذ رجوت الثواب عليها. وقد قيل أيضا من تلك النعم أن الشدة زائلة غير دائمة وأنها من الله تعالى دون غيره وان كانت بسبب مخلوق فانها لك عليه لا له عليك، فاذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة . وقال آخرون وهو الأولى عند شيخنا رحمه الله تعالى ان شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة وأعواض كريمة فى العاقبة يتلاشى فى جنبها مشقة هذه الشدائد وأية نعمة تكون أكبر من هذه. ومثال ذلك من يسقيك دواء كريها مر الداء شديد أو يفصدك أو يحجمك لعلة عظيمة مخوفة الخطر فيؤدى ذلك الى صحة النفس وسلامة البدن وصفوة العيش فيكون ايلامه اياك بمرارة الدواء أو جراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة بالحقيقة ومنة ظاهرة وان كان فى صورته مكروها ينفر عنه الطبع وتستوحش منه النفس وأنت تحمد الذى تولى منك هذا بل تحسن اليه بما أمكنك فكذلك حكم هذه الشدائد. أما ترى أن النبى ﷺ كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره على المسار حيث قال : الحمد لله على ماساء وسر . أما ترى كيف يقول جل جلاله ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ وما سماه الله خيرا فهو أكثر مما يبلغه وهمك ومما يؤكد هذا القول أن النعمة ليست خيرا عن اللذة وما تشتهيه النفس بمقتضى الطبع وانما هو ما يزيد فى رفعة الدرجات ولذلك تسمى نعمة بمعنى الزيادة واذا كانت الشدة مما تصير سببا فى زيادة شرف العبد ورفعة درجته فتكون نعما بالحقيقة وان كانت تعد فى الشدائد والمحن بظاهرها فاعلم بذلك موفقا (فان قلت) فالشاكر أفضل أم الصابر فاعلم أنه قيل ان الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فجعلهم أخص الخواص وقال فى مدح

ولا تطمع أن يكونوا لك فى العلن والسر واحدا ولا تتعجب ان ثلبوك فى غيبتك ولا تغضب منه فانك ان أنصفت وجدت نفسك مثل ذلك حتى فى أصدقائك وأقاربك بل فى أستاذك ووالديك فانك تذكرهم فى الغيبة بما لا تشافههم به فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم فان الطامع فى الأكثر خائب فى المآل وهو ذليل لا محالة فى الحال فاذا سألت واحدا حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره، وان قصر فلا تعاتبه ولا تشكه فتصير عداوة وكن كالمؤمن يطلب المعاذير ولا تكن كالمنافق يطلب العيوب وقل لعله قصر لعذر له لم أطلع عليه ولا تعظن أحدا منهم مالم تتوسم فيه أولا مخايل القبول والا لم يستمع منك وصار خصما عليك فاذا أخطأوا فى مسئلة وكانوا

نوح عليه السلام «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» وقال فى ابراهيم عليه السلام «شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ» ولانه فى منزلة الأنعام والعافية ولذلك قيل: لأن أنعم فأشكر أحب الىّ من أن أبتلى فأصبر. وقيل بل الصابر أفضل لأنه أعظم مشقة فيكون أعظم ثوابا وأرفع منزلة قال الله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (قلت أنا) الشاكر بالحقيقة لا يكون الا صابرا والصابر بالحقيقة لا يكون الا شاكرا لأن الشاكر فى دار المحنة لا يخلو من محنة يصبر عليها لا محالة ولا يجزع فان الشكر تعظيم المنعم على حد يمنع من عصيانه والجزع عصيان والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم فانه شكر بالحقيقة اذا صبر عليها لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله تعالى وهذا هو الشكر بعينه اذ هو تعظيم يمنع عن العصيان ولأن الشاكر يمنع نفسه عن الكفران فصبر عن المعصية وحمل نفسه على الشكر وصبر على الطاعة فصار صابرا بالحقيقة، والصابر عظم الله تعالى حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه وحمله على الصبر فقد شكر الله تعالى فصار شاكرا بالحقيقة، لأن حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس له شدة يصبر عليها الشاكر، وتوفيق الصابر والعصمة نعمة يشكر عليها الصابر فأحدهما لا ينفك عن الآخر ولأن البصيرة الباعثة عليهما واحدة وهى بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا فمن هذه الوجوه قلنا ان أحدهما لا ينفك عن الآخر فاعرف هذه الجملة وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾ فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكثيرة الجدوى العزيزة العنصر العظيمة القدر. وتأمل أصلين أحدهما أن النعمة انما تعطى من يعرف قدرها وانما يعرف قدرها الشاكر ودليل ما قلناه قوله سبحانه فى الحكاية عن الكفار والرد عليهم ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ظن أولئك الجهال أن النعمة العظيمة والمنة الكريمة انما تعطى من يكون أكثرهم مالا وأشرفهم حسبا ونسبا فقالوا اما بال هؤلاء الفقراء بزعمهم من العبيد والاحرار أعطوا هذه النعمة العظيمة بزعمكم دوننا فقالوا على طريق الاستكبار ومجرى الاستهزاء ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فأجابهم الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة فقال ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ تقدير الكلام أن السيد الكريم انما يعطى نعمته من يعرف قدرها وانما يعرف قدرها من أقبل عليها بنفسه وقلبه فاختارها على غيرها ولا يعبأ بما تحمل من أعباء المؤنة فى تحصيلها ثم لا يزال قائما بالباب يؤدى شكرها، وكان فى علمنا السابق أن هؤلاء الضعفاء يعرفون قدر هذه النعمة ويقومون بشكرها فكانوا أولى بهذه النعمة منكم فلا اعتبار بغناكم وثروتكم ولا جاهكم فى الدنيا وحشمكم ولا نسبكم فى الأنساب ولا حسبكم، انما تحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها والحسب والنسب وعلوه لا الدين والعلم والحق ومعرفته وانما تعظمون ذلك وتتفاخرون به، أما ترون أنكم لا تكادون تقبلون هذا الدين والعلم والحق الا بمنة على من أتاكم به وذلك لاستحقاركم ذلك وقلة مبالاتكم به وان هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك ويبذلون فيه مهجتهم ولا يبالون بما فاتهم وبمن عاداهم مع ذلك لتعلموا أنهم هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة ورسخ فى قلوبهم تعظيمها وهان عليهم فوت كل شىء دونها وطاب لهم احتمال كل شدة فيها فيستغرقون جميع العمر فى شكرها فلذلك استأهلوا هذه المنة الكريمة والنعمة العظيمة فى سابق علمنا

وخصصناهم

يأنفون من التعلم من كل أحد فلا تعلمهم فانهم يستفيدون منك علما ويصبحون لك أعداء الا اذا تعلق ذلك بمعصية يقارفونها عن جهل منهم فاذكر الحق بلطف من غير عنف واذا رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذى حببك اليهم واذا رأيت منهم شرا فكلهم الى الله تعالى واستعذ بالله من شرهم ولا تعاتبهم ولا تقل لهم لم تعرفوا حقى وأنا فلان بن فلان وأنا الفاضل فى العلوم فان ذلك من كلام الحمقى وأشد الناس حماقة من يزكى نفسه ويثنى عليها واعلم أن الله تعالى لا يسلطهم عليك الا لذنب سبق منك فاستغفر الله من ذنبك واعلم أن ذلك عقوبة من الله تعالى لك وكن فيما بينهم سميعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بمحاسنهم صموتا عن مساويهم واحذر مخالطة متفقهة الزمان لا سيما المشتغلين

وخصصناهم بهادونكم فهذه هذه، ثم أقول وكذلك فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين من علم أو عمل فانك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها وأشدهم تعظيما لها وأجدهم فى تحصيلها وأعظمهم فى إكرامها وأقومهم بشكرها والذين حرمهم الله ذلك فلقلة احتفالهم وتعظيمهم لحقها بعد القدر السابق فلو كان تعظيم العلم والعبادة فى قلوب العامة والسوقة مثل ما فى قلوب العلماء والمتعبدين لما آثروا سوقهم عليه وهان عليهم تركه، ألا ترى أن فقيها اذا ظفر بتعليم مسئلة كانت ملتبسة عليه ثم ظفر بها كيف يرتاح قلبه ويعظم سروره ويجل موقعها من قلبه حتى انه ربما لو وجد ألف دينار ما كان يعدل ذلك وربما يهمه أمر مسئلة فى باب الدين فيتفكر فيها سنة بل عشرا بل عشرين وأكثر لا يستكثر ذلك ولا يمل حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك فيعده أعظم منة وأكبر نعمة ويرى نفسه بذلك أغنى كل غنى وأشرف كل شريف بل ربما يتبين مثل هذه المسئلة لسوقى أو لمتعلم كسلان يرى من نفسه أنه مثله فى الرغبة فى العلم والمحبة له فلا يستمع اليه حقه وربما ان طال عليه الكلام يمل أو ينام وان تبين ذلك له فلا يعده كبير أمر وكذلك المنيب الى الله تعالى كم يجتهد ويدأب بالرياضة وصيانة النفس عن الشهوات واللذات والجام الأركان فى الحركات والسكنات عسى أن يتمم الله له ركعتين فى آداب وطهارة وكم يتضرع الى الله تعالى عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة فلئن ظفر بذلك فى شهر مرة بل فى سنة مرة بل فى عمره كله مرة عد ذلك أكبر منة وأعظم نعمة وكم يسر وكم يشكر الله تعالى ولا يكترث بما قاساه من المشقات وكابد من الليالى وهجر من اللذات فيها. ثم ترى الذى يزعم أنه راغب فى العبادات يحب أن يحصل منها شيئا لو احتاج أحدهم فى تحصيل مثل هذه العبادة الصافية الى نقصان لقمة من عشائهم أو ترك كلمة لا تعنيهم أو دفع نوم ساعة عن أعينهم فلا تسمح أنفسهم بذلك ولا تطيب قلوبهم وان اتفق لهم فى النادر حصول عبادة فى صفوة فلا يعودونه خطير أمر ولا يقدمون فيه كثير شكر وانما يعظم سرورهم ويكثر بالظاهر حمدهم اذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة أو طابت لهم مرقة أو طالت لهم فى سلامة البدن رقدة فيقولون عند ذلك الحمد لله هذا من فضل الله فأنى يساوى هؤلاء الغافلون العاجزون مع أولئك السعداء المجدين المجتهدين ولذلك صار هؤلاء المساكين عن هذا الخير محرومين وأولئك المؤيدون به ظافرين فائزين، وكذلك قسم الأمر أحكم الحاكمين سبحانه وهو أعلم العالمين، فهذا تفصيل قوله تعالى «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ» فتفهم وراعه حقه. واعلم أنك لم تحرم قط خيرا أنت تتمناه الا من قبل نفسك فابذل مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى وتعظمها حق تعظيمها فتكون أهلا لها ولاعطائها ثم يمن عليك بابقائها كما من عليك بابتدائها على ما نذكره فى الأصل الثانى انه الرءوف الرحيم (الأصل الثانى) أن النعمة انما تسلب ممن لا يعرف قدرها والذى لا يعرف قدرها الكفور الذى كفرها ولا يؤدى شكرها ودليل ذلك قوله تعالى «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» الآية. تقدير الكلام أنا أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظام والأيادى الجسام فى باب الدين بما مكناه فى ذلك من تحصيل الرتبة الكبيرة والمنزلة الرفيعة على بابنا اليصير رفيعا عندنا عظيم القدر كبير الجاه ولكنه جهل قدر نعمتنا فمال الى الدنيا الخسيسة الحقيرة وآثر شهوة نفسه الدنيئة الرديئة ولم

بالخلاف والجدال واحذر منهم فانهم يتربصون بك لحسدهم ريب المنون ويقطعون عليك بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون يحصون عليك عثراتك فى عشرتهم حتى يجبهوك بها فى حال غيظهم ومناظراتهم لا يقيلون لك عثرة ولا يغفرون لك زلة ولا يسترون عليك عورة يحاسبونك على النقير والقطمير ويحسدونك على القليل والكثير ويحرضون عليك الاخوان بالنميمة والبلاغات والبهتان ان رضوا فظاهرهم الملق وان سخطوا فباطنهم الحمق ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب . هذا حكم ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم الا من عصمه الله تعالى. فصحبتهم خسران ومعاشرتهم خذلان . هذا حكم من يظهر لك الصداقة فكيف من يجاهرك بالعداوة. قال

يعلم أن الدنيا كلها لاتزن عند الله أدنى نعمة من نعم الدين ولا تساوى عنده جناح بعوضة فكان فى ذلك بمنزلة الكلب الذى لا يعرف الاكرام والراحة من الاهانة والمشقة ولا الرفعة والشرف من الحقارة والخسة فهو فى الحالتين يلهث وانما الكرامة كلها عنده فى كسرة يطعمها أو عرق مائدة يرمى اليه سواء تقعده على سرير مملكتك أو تقيمه فى التراب والقذر بين يديك فهمته وكرامته ونعمته كلها فى ذلك. فهذا العبد السوء اذن جهل قدر نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا فكلت بصيرته وساء فى مقام القربة أدبه بالالتفات الى غيرنا والاشتغال عن ذكر نعمتنا بدنيا حقيرة ولذة خسيسة فنظرنا اليه نظر السياسة وأحضرناه ميدان العدل وأمرنا فيه بحكم الجبروت فسلبناه جميع خلعنا وكرامتنا ونزعنا من قلبه معرفتنا فانسلخ عاريا من جميع ما آتيناه من فضلنا فصار كلبا طريدا وشيطانا رجيما مريدا نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه انه بنا رءوف رحيم. ثم اقنع بمثال ملك يكرم عبدا له فيخلع عليه خاصة ثيابه ويقربه منه ويجعله فوق سائر خدمه وحجابه وأمره بملازمة بابه ثم أمر أن يبنى له فى موضع آخر القصور وترفع له الأسرة وتنصب له الموائد وتزين له الجوارى وتقام له الغلمان حتى اذا رجع من الخدمة أجلس هنالك ملكا مخدوما مكرما وما بين حال خدمته الى ملكه وولايته الا ساعة من نهار أو أقل فان أبصر هذا العبد بجانب باب هذا الملك سائسا للدواب يأكل رغيفا أو كلبا يمضغ عظما فيشتغل عن خدمة الملك بنظره اليه واقباله عليه ولا يلتفت الى ماله من الخلع والكرامة فيسعى الى ذلك السائس ويمد يده ويسأله كسرة من رغيف أو يزاحم الكلب على عظمة ويغبطها ويعظم ما هما فيه، أليس الملك اذا نظر اليه فى مثل هذه الحالة يقول هذا سفيه خسيس الهمة لم يعرف حق كرامتنا ولم يرقدر اعزازنا اياه بخلعنا والتقريب الى حضرتنا مع ما صرفنا اليه من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر وضروب الأيادى، ما هذا الا ساقط الهمة عظيم الجهل قليل التمييز اسلبوه الخلع واطردوه عن بابنا، فهذا حال العالم اذا مال الى الدنيا والعابد اذا اتبع الهوى بعد ما أكرمه الله بعبادته ومعرفة أياديه وشريعته وأحكامه ثم انه لم يعرف قدر ذلك فيصير الى أحقر شىء عند الله عز وجل وأهونه عنده فيرغب فيه ويحرص عليه ويكون أعظم فى قلبه وأحب اليه من جميع ما أعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والعبادة والحكم والحقائق وكذلك من خصه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته وزينه بأنوار خدمته وعبادته ويديم النظر اليه بالرحمة فى أكثر أوقاته ويباهى به ملائكته وأعطاه على بابه القيادة والوجاهة وأحله محل الشفاعة وأنزله منزلة الأعزة حتى اذا صار بحيث لو دعاه لأجابه ولباه ولو سأله أعطاه وأغناه ولو شفع فى عالم لشفعه فيهم وأرضاه ولو أقسم عليه لأبره وأوفاه ولو خطر بباله شىء لأعطاه قبل أن يسأله بلسانه فمن كانت هذه حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم ولم ينظر الى قدر هذه المنزلة فيعدل عن ذلك الى شهوة نفس رديئة لا حياة لها أو لعقة من الدنيا الدنيئة التى لا بقاء لها ولم ينظر الى تلك الكرامات والخلع والهدايا والمنن والعطايا ثم ما أعدّ له فى الآخرة من الثواب العظيم والنعيم السابغ المقيم فما أحقرها اذن من نفس وما أسوأه من عبد وما أعظم خطره لو علم وما أفحش صنعه لو فهم نسأل الله البر الرحيم أن يصلحنا بعميم فضله وسعة رحمته انه أرحم الراحمين. فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف قدر نعم الله تعالى عليك واذا أنعم عليك بنعمة الدين فاياك أن تلتفت الى الدنيا وحطامها فان ذلك منك لا يكون الا بضرب من التهاون

القاضى ابن معروف رحمه الله: فاحذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديـ * ـق فكان أعرف بالمضره
وكذلك قيل فى المعنى:
عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب
وكن كما قال هلال بن العلاء:
لما عفوت ولم أحقد على أحـد

بما أولاك ربك من نعم الدين أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ الآية تقديره أن كل من أوتى القرآن العظيم حق له أن لا ينظر الى الدنيا الحقيرة نظرا استجلاء واستحسان قط فضلا عن أن يكون له فيها رغبة فليدم الشكر لله على ذلك فانها الكرامة التى حرص خليله ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يمن بها على أبيه فلم يفعل وحرص حبيبه المصطفى ﷺ أن يمن بها على عمه أبى طالب فلم يفعل. وأما حطام الدنيا فانه الذى يصبه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق وجاهل وفاسق الذين هم أهون خلقه عليه حتى يغرقوا فيه ويصرفه عن كل نبى وصفى وصديق وعالم وعابد الذين هم أعز خلقه عليه حتى انهم لا يكادون يصيبون كسرة وخرقة ويمن عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها حتى قال عز من قائل لموسى وهرون عليهما السلام: ولو شئت أن أزينكما بزينة ليعلم فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عنها لفعلت ولكنى أزوى عنكما الدنيا وأرغب بكما عنها وكذلك أفعل بأوليائى وانى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق ابله عن مبارك العرة وانى لأجنبهم سكونها وعيشها وليس ذلك لهوانهم على ولكن ليستكملوا حظهم من كرامتى وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾ الآيتين فانظر الفرق بين الأمرين ان كنت مبصرا وقل الحمد لله الذى من علينا بمنن أوليائه وأصفيائه وصرف عنا فتنة أعدائه لنحظى، واتخص بالشكر الأوفر والحمد الأكبر المنة الكبرى والنعمة العظمى التى هى الاسلام فانها الأولى والأخرى بأن لا تفتر ليلك ونهارك عن شكرها فان كنت عاجزا عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة انك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت فى شكر نعمة الاسلام من أول الوقت الى الأبد ما كنت تقوم بذلك ولما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفضل العظيم (قلت) واعلم أن الموضع لا يحتمل ذكر ما يبلغه علمى من قدر هذه النعمة ولو أمليت فيه ألف ألف ورقة لكان مبلغ علمى فوق ذلك مع اعترافى بأن ما أعلمه فى جنب ما لا أعلمه كنفثة من بحار الدنيا بأسرها أما تسمع ويحك قوله تعالى لسيد المرسلين ﷺ ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ الى أن قال له ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ وقال تعالى لقوم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ الآية أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلا يقول الحمد لله على الاسلام فقال انك لتحمد الله على نعمة عظيمة. ولما قدم البشير على يعقوب عليه السلام قال على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة. وقيل ما من كلمة أحب الى الله تعالى ولا أبلغ عنده فى الشكر من أن يقول العبد الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا الى دين الاسلام. واياك أن تغفل الشكر للاسلام وتغتر بما أنت عليه فى الحال من الاسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة فان مع ذلك لا موضع للأمن والغفلة فان الأمور بالعواقب. وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى يقول ما أمن أحد على دينه الا سلب. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يقول اذا سمعت بحال الكفار وخلودهم فى النار فلا تأمن على نفسك فان الأمر على الخطر ولا تدرى ماذا يكون من العاقبة وماذا سبق لك فى حكم الغيب ولا تغتر بصفاء الأوقات فان تحتها غوامض الآفات. وقال بعضهم يا معشر المغترين بالعصم ان تحتها أنواع النقم زين الله ابليس بأنواع عصمته وهو عنده فى حقائق لعنته وزين بلعام بأنوار ولايته وهو

أرحت نفسى من هم العداوات
انى أحيي عدوى عند رؤيته
لأدفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه
كأنه قد ملا قلبى مسرات
ولست أسلم ممن لست أعرفه
فكيف أسلم من أهل المودات
الناس داء دواه المحض تركهم
وفى الجفاء لهم قطع الاخوات

عنده فى حقائق عداوته. وعن على رضى الله عنه أنه قال: كم من مستدرج بالاحسان اليه وكم من مفتون بحسن القول فيه وكم من مغرور بالستر عليه وقيل لذى النون ماأقصى مايخدع به العبد قال بالألطاف والكرمات ولذلك قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أهل المعرفة نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر كما قال الشاعر:

أحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت * ولم تخف سوء مايأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم أنك كلما صرت أقرب فأمرك أخوف وأصعب والمعاملة أشد وأدق والخطر عليك أعظم فان الشىء كلما كان أبلغ علوا اذا انقلب كان أصعب وقوعا كما قيل:

ماطار طير وارتفع * الا كما طار وقع

فاذن لاسبيل الى الأمن واغفال الشكر وترك الابتهال فى الحفظ بحال. وكان ابراهيم بن أدهم يقول كيف تأمن وابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه يقول ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ويوسف الصديق عليه السلام يقول «تَوَفَّنِي مُسْلِماً» وكان سفيان الثورى لايزال يقول اللهم سلم سلم كأنه فى سفينة يخشى الغرق. وبلغنا عن محمد بن يوسف رحمه الله أنه قال تأملت سفيان الثورى ليلة فبكى الليل أجمع فقلت له أبكاؤك هذا على الذنوب قال لحمل تبنة وقال الذنوب أهون على الله من هذا وانما أخشى أن يسلبنى الله الاسلام والعياذ بالله وسمعت أنا بعض العارفين يقول: ان بعض الأنبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات فقال الله تعالى لم يشكرنى يوما من الأيام على ماأعطيته لو شكرنى على ذلك مرة واحدة لماسلبته. فتيقظ أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جدا واحمد الله على نعمه فى الدين وأعلاها الاسلام والمعرفة وأدناها مثلا توفيق تسبيح أو عصمة عن كلمة لاتعنيك عسى أن يتم نعمه عليك ولا يبتليك بمرارة الزوال فان أمرّ الأمور وأصعبها الاهانة بعد الاكرام والطرد بعد التقريب والفراق بعد الوصال والله تعالى الماجد الكريم الرءوف الرحيم

﴿فصل﴾ وجملة الأمر أنك اذا أحسنت النظر فى منن الله تعالى العظام عليك وأياديه الجسام الكرام لديك التى لايحصيها قلبك ولا يحيطها وهمك حتى خلفت هذه العقبات الصعاب فوجدت العلوم والبصائر وتطهرت من الأوزار والكبائر وسبقت العوائق ودفعت العوارض وظفرت بالبواعث وسلمت من القوادح فكم حصل لك فيها من خصلة شريفة ورتبة عالية منيفة أولها التبصير والتعريف وآخرها التقريب والتشريف فتأملت فيها بمقدار عقلك وتوفيقك وشكرت الله على قدر طوقك بأن يشغل لسانك بحمده وثنائه ويملأ قلبك بعظمته وبهائه ويبلغك مبلغا يحول بينك وبين عصيانه ويبعثك على الخدمة له بما أمكنك أو بسعة طاقتك معترفا بالقصور عن حق انعامه واحسانه وكلما أغفلت شكره أو فترت أو ذللت عاودت واجتهدت وتضرعت اليه وابتهلت وتوسلت وقلت يالله يامولاى كما بدأت بالاحسان بفضلك من غير استحقاق فأتممه بفضلك أيضا من غير استحقاق وتناديه بنداء أوليائه الذين وجدوا تاج هدايته وذاقوا حلاوة معرفته فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد والاهانة ووحشة البعد والضلالة ومرارة العزل والازالة فتضرعوا بالباب مستغيثين

فسالم الناس تسلم من غوائلهم
وكن حريصا على كسب المودات
وخالق الناس واصبر مابليت بهم
أصم أبكم أعمى ذا تقيات
وكن أيضا كما قال بعض الحكماء: الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، وكن فى جميع أمورك فى أوسطها فكلا طرفى الأمور ذميم كما قيل:
عليك بأوساط الأمور فانها
طريق الى نهج الصراط قويم

ومدوا اليه الأكف مبتهلين ونادوا بالخلوات مستصرخين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (قلت أنا) تقديره والله أعلم انا وجدنا منك نعمة فطمعنا فى أخرى فانك أنت الجواد الوهاب فكما وهبت لنا مزية الانعام فى الابتداء فهب لنا رحمة الاتمام فى الانتهاء أما تسمع ويحك أن أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم من بين خلقه هذا الدعاء قوله تعالى «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أى ثبتنا عليه وأدمه لنا هكذا يتضرع اليه فان الخطب عظيم (وقيل) ان الحكماء نظروا فردوا مصائب العالم ومحنهم كلها الى خمس: المرض فى الغربة والفقر فى الشيب والموت فى الشباب والعمى بعد البصر والنكرة بعد المعرفة وأحسن من ذلك قول من قال:

لكل شىء اذا فارقته عوض * وليس لله ان فارقت من عوض

ولغيره اذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر

وكذلك فى كل نعمة أنعم بها عليك وتأييد أيدك به فى قطع عقبة من العقبات ليثبت عليك ما أعطى ويزيدك فوق ما تريدو تتمنى فاذا فعلت ذلك كنت قد خلفت هذه العقبة الخطيرة وكنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين العزيزين اللذين هما الاستقامة والاستزادة فتدوم لك النعم الموجودة التى أعطاكها فلا تخشى زوالها ويزيدك من النعم المفقودة التى لم تعط بعد مالا تحسن أن تسألها وتتمناها فلا تخشى فواتها وكنت حينئذ من العارفين العلماء العاملين بالدين التائبين الطاهرين الزاهدين فى الدنيا المتجردين للخدمة القاهرين للشيطان المتقين حق التقوى بالقلب والاركان القاصرين للأمل الناصحين الخاشعين المتواضعين المتوكلين المفوضين الراضين الصابرين الخائفين الراجين المخلصين الذاكرين المنة الشاكرين لنعم سيدهم رب العالمين، ثم تصير بعد ذلك من المستقيمين المكرمين الصديقين. فتأمل هذا الكلام والله تعالى ولى التوفيق (فان قلت) اذا كان الأمر كذلك لقد قل من الناس العابد لهذا المعبود والواصل الى هذا المقصود ومن الذى يقوى على هذه المؤن وتحصيل هذه الشرائط والسنن فاعلم أن الله تعالى كذلك يقول ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. لَا يَعْقِلُونَ. لَا يَعْلَمُونَ» ثم ان ذلك على من يسره الله تعالى عليه وعلى العبد الاجتهاد وعلى الله سبحانه الهداية قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ واذا كان العبد الضعيف يقوم بما عليه فما ظنك بالرب القدير الغنى الكريم الرحيم (فان قلت) فالعمر قصير وهذه عقبات طويلة شديدة فكيف يبقى العمر حتى تكمل هذه الشرائط وتقطع هذه العقبات، فلعمرى ان هذه العقبات طويلة والشرائط فيها شديدة ولكن اذا أراد الله تعالى أن يجتبى عبده قصر عليه طويلها وهون عليه شديدها حتى يقول بعد قطعها ما أقرب هذه الطريق وأقصرها وما أهون هذا الأمر وأيسره وفى مثل ذلك (قلت أنا) عند وقوفى على هذه الغاية

علم المحجة واضح لمريده * وأرى القلوب عن المحجة فى عمى

ولقد عجبت لهالك ونجاته * موجودة ولقد عجبت لمن نجا

حتى ان منهم من يقطع هذه العقبات فى سبعين سنة ومنهم من يقطعها فى عشرين سنة ومنهم من يقطعها فى عشر سنين ومنهم من يحصل له فى سنة ومنهم من يقطعها فى شهر بل فى جمعة بل فى ساعة حتى إن منهم من يحصل له فى لحظة بتوفيق خاص وعناية سابقة من الله سبحانه. أما تذكر أصحاب الكهف كيف كانت

ولا تك فيهما مفرطا أو مفرطا فان كلا حال الأمور ذميم ولا تنظر فى عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وادخال إصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وغيرها. وليكن مجلسك هادئا وحديثك

مدتهم خطرة حيث رأوا التغيير فى وجه ملكهم دقيانوس فقالوا ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً﴾ الآية حصلت لهم المعرفة وأبصروا مافى هذه الطريق من الحقائق وقطعوا هذه الطريق فصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين اذقالوا ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ الآية وكل ذلك انما حصل لهم فى مقدار ساعة أو لحظة. أما تذكر سحرة فرعون، ما كانت مدتهم الالحظة حيث رأوا معجزة موسى عليه السلام قالوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فأبصروا الطريق وقطعوه فصاروا من ساعة الى ساعة بل أقل من العارفين بالله تعالى الراضين بقضاء الله تعالى الصابرين على بلائه الشاكرين لآلائه المشتاقين الى لقائه فنادوا ﴿لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ولقد حكينا أن ابراهيم ابن أدهم رحمه الله كان على ما كان عليه من أمر الدنيا فعدل عن ذلك وقصد هذه الطريق فلم يكن الا مقدار سيره من بلخ الى مرووذ حتى صار بحيث أشار إلى رجل سقط من القنطرة فى الماء الكثير هنالك أن قف فوقف الرجل مكانه فى الهواء فتخلص، وأن رابعة البصرية كانت أمة كبيرة السن يطاف بها فى سوق البصرة لا يرغب فيها أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها فاختارت هذه الطريق وأقبلت على العبادة فما تمت لها سنة حتى زارها زهاد البصرة وقراؤها وعلماؤها لعظم منزلتها. وأما الذى لم تسبق له العناية ولم يعامل بالفضل والهداية فيوكل الى نفسه فربما يبقى فى شعب من عقبة واحدة سبعين سنة ولا يقطعها، وكم يصيح ويصرخ ما أظلم هذا الطريق وأشكله وأعسر هذا الأمر وأعضله، فان الشأن كله إلى أصل واحد وذلك تقدير العزيز العليم العدل الحكيم (فان قلت) لم اختص هذا بالتوفيق الخاص وحرم هذا وكلاهما مشتركان فى ربقة العبودية، فعند هذا السؤال ينادى من سرادق الجلال أن الزم الأدب واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية فانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قلت أنا) ومثال هذا الطريق فى الدنيا الصراط فى الآخرة فى عقباتها ومسافاتها ومقاطعها واختلاف أحوال الخلق فيها فمنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف، وآخر كالفرس الجواد وآخر كالطائر وآخر يمشى وآخر يزحف حتى يصير فحمة وآخر يسمع حسيسها وآخر يؤخذ بكلاليب فيطرح فى جهنم فكذلك حال هذا الطريق مع سالكيه فى الدنيا فهما صراطان صراط الدنيا وصراط الآخرة، فصراط الآخرة للأنفس يرى أهوالها أهل الأبصار، وصراط الدنيا للقلوب يرى أهوالها ذوو البصائر والألباب. وانما اختلفت الأحوال للسالكين فى الآخرة لاختلاف أحوالهم فى الدنيا فتأمل ذلك حقه فهذه هذه وبالله التوفيق

﴿فصل﴾ ثم اعلم ما هو التحقيق فى هذا الباب وهو أنه ليس هذا الطريق فى طوله وقصره مثل المسافات الكائنة التى تسلكها الأنفس فتقطعها بالأقدام فيقع قطعها على حسب قوة الأنفس وضعفها، انما هو طريق روحانى تسلكه القلوب فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر. وأصله نور سماوى ونظر الهى يقع فى قلب العبد فينظر به نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده ولا أثرا منه، وذلك لخطئه فى الطلب وتقصيره فى الاجتهاد وجهله بطريق ذلك، وآخر يجده فى خمسين سنة وآخر يجده فى عشر وآخر فى يوم وآخر فى ساعة ولحظة بعناية رب العزة، وهو تعالى ولى الهداية. لكن العبد مأمور بالاجتهاد فعليه بما أمر والأمر مقسوم مقدور والرب حكم عدل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

منظوما مرتبا واصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك من غير اظهار تعجب مفرط ولا تسأله اعادته واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن اعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما يخصك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تتبذل تبذل العبد وتوق كثرة الكحل والاسراف فى الدهن ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على ظلم ولا تعلم أحدا من أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم ان

(فان قلت) فما أعظم هذا الخطر وأشد هذا الأمر وما أكثر ما يحتاج اليه هذا العبد الضعيف فكل هذا العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط لماذا (فأقول) لعمرى انك لصادق فى قولك ان الأمر شديد والخطر عظيم ولذلك قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ولذلك قال سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم «لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا» وما روى: أن المنادى ينادى من قبل السماء ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم اذ خلقوا علموا لما ذا خلقوا وليتهم اذ علموا عملوا بما علموا. ولذلك يقول السلف رضى الله عنهم فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: وددت أنى كنت خضراء تأكلنى الدواب مخافة العذاب. وعن عمر رضى الله عنه: أنه سمع انسانا يقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ قال ليتها تمت. وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه: وددت أنى كبش لأهلى فيتفرق لحمى ويتحسى مرقى ولم أخلق. وعن وهب بن منبه أنه قال: خلق ابن آدم أحمق ولولا حمقه ما هنأه عيش. وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: انى لا أغبط ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامه انما أغبط من لا يخلق. وعن عطاء السلمى رحمه الله أنه قال: لو أن نارا أوقدت وقيل من ألقى نفسه فيها صار لا شىء لخشيت أن أموت من الفرح قبل أن أصل النار. فالأمر اذن أيها الرجل شديد كما تقول بل هو أشد وأعظم مما تظن وتتوهم ولكنه أمر سبق فى العلم القديم وتدبير أجراه العزيز العليم فلا حيلة للعبد الا بذل المجهود فى العبودية والاعتصام بحبل الله والابتهال دائما الى الله سبحانه عسى أن يرحمه فيسلم بفضله. وأما قولك كل هذا لماذا فهذا كلام يدل منك على غفلة عظيمة بل الصواب أن تقول كل هذا فى جنب ما يطلبه العبد الضعيف ماذا، أتدرى ما يطلب العبد الضعيف؟ أقل ما يطلبه على الجملة شيئان أحدهما السلامة فى الدارين والثانى الملك فى الدارين، أما السلامة فى الدنيا فان الدنيا وآفاتها وفتنتها وغوائلها بحيث لم يسلم منها الملائكة المقربون وقد سمعت حديث هاروت وماروت حتى روى أنه اذا عرج بروح العبد الى السماء تقول ملائكة السموات متعجبين كيف نجا هذا من دار فسد فيها خيارنا، وان الآخرة فى أهوالها وشدائدها بحيث تصرخ فيها الأنبياء والرسل عليهم السلام نفسى نفسى لا أسألك اليوم الا نفسى حتى انه روى: لو كان للرجل عمل سبعين نبيا لظن أنه لا ينجو، فمن أراد أن يسلم من فتن هذه فليخرج منها بالاسلام سالما لا تصيبه بليه، ومن أهوال هذه فليدخل الجنة سالما لا تصيبه نكبة أيكون هذا أمرا هينا. وأما الملك والكرامة فان الملك نفاذ التصرف والمشيئة وان ذلك بالحقيقة فى الدنيا لأولياء الله عز وجل وأصفيائه الراضين بقضائه، البر والبحر والأرض لهم قدم واحد، والحجر والمدر لهم ذهب وفضة، والجن والانس والبهائم والطير لهم مسخرون لا يشاءون شيئا الا وهو كائن لهم لأنهم لا يشاءون الا ما شاء الله وما شاء الله كان ولا يهابون أحدا من الخلق ويهابهم كل الخلق ولا يخدمون أحدا الا الله عز وجل ويخدمهم كل من دون الله، وأين لملوك الدنيا بعشر معشار هذه الرتبة بل هم أقل وأذل، وأما ملك الآخرة فيقول الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ وأعظم بما يقول فيه رب العزة انه ملك كبير وأنت تعلم أن الدنيا بأسرها قليلة وان بقاءها من أولها الى آخرها لقليل، ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل. ثم الواحد منا قد يبذل ماله وروحه حتى ربما يظفر بقدر قليل من هذا القليل فى

رأوه قليلا هنت عليهم وان رأوه كثيرا لم تبلغ قط رضاهم، واجفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وعجلتك وتفكر فى حجتك، ولا تكثر الاشارة بيدك ولا تكثر الالتفات الى ورائك ولا تجث على ركبتيك واذا هدأ غضبك فتكلم، واذا قربك السلطان فكن على حد السنان، واياك وصديق العافية فانه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من

يقاء قليل وان حصل له ذلك فيعذر بل يغبط ويستكثر ما بذل فيه من المال والنفس نحو ما ذكر عن امرئ القيس حيث يقول :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكيف حال من يطلب الملك الكبير فى دار النعيم الخالد المقيم أيستكثر مع ذلك أن يصلى ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر ليلتين كلا بل لو كان له ألف ألف نفس وألف ألف روح وألف ألف عمر كل عمر مثل عمر الدنيا وأكبر وأكثر فبذل ذلك كله فى هذا المطلوب العزيز لكان ذلك قليلا، ولئن ظفر بعده بما طلب لكان ذلك غنما عظيما وفضلا من الذى أعطاه كثيرا فانتبه أيها المسكين من رقدة الغافلين . ثم انى تأملت ما يعطيه الله سبحانه العبد اذا أطاعه ولزم خدمته وسلك هذه الطريق عمره فوجدتها على الجملة أربعين كرامة وخلعة عشرين منها فى الدنيا وعشرين منها فى العقبى ، أما التى فى الدنيا فالأولى أن يذكره الله سبحانه ويثنى عليه، وأكرم بعبد يكون الله رب العالمين يمن عليه فى ذكره وثنائه. والثانية أن يشكره جل جلاله ويعظمه ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظمك لشرفت به، فكيف بالله الأولين والآخرين. والثالثة أن يحبه ولو أحبك رئيس محلة أو أمير بلدة لافتخرت بذلك وانتفعت به فى مواطن عزيزة فكيف بمحبة رب العالمين. والرابعة أن يكون له وكيلا يدبر أموره. والخامسة أن يكون له برزقه كفيلا يوجهه اليه من حال الى حال من غير تعب أو وبال. والسادسة أن يكون له نصيرا يكفيه كل عدو ويدفع عنه كل قاصد بسوء. والسابعة أن يكون له أنيسا لا يستوحش بحال ولا يخاف التغيير والاستبدال. والثامنة عز النفس فلا يلحقه ذل خدمة الدنيا وأهلها بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها . والتاسعة رفع الهمة فيترفع عن التلطخ بأقذار الدنيا وأهلها ولا يلتفت الى زخارفها وملاهيها ترفع الرجال الألباء عن ملاعب الصبيان والنسوان. والعاشرة غنى القلب فيكون أغنى من كل غنى فى الدنيا لا يزال طيب النفس فسيح الصدر لا يفزعه حدث ولا يهمه عدم. والاحدى عشرة نور القلب فيهتدى بنور قلبه الى علوم وأسرار وحكم لا يهتدى الى بعضها غيره الا بجهد جهيد وعمر مديد. والثانية عشرة شرح الصدر فلا يضيق ذرعا بشئ من محن الدنيا ومصائبها ومؤن الناس ومكايدهم. والثالثة عشرة المهابة والموقع فى نفوس الناس يحترمه الأخيار والاشرار ويهابه كل فرعون وجبار. والرابعة عشرة المحبة فى القلوب يجعل له الرحمن ودا فترى القلوب كلها مجبولة على حبه والنفوس كلها بأجمعها مطبوعة على تعظيمه واكرامه. والخامسة عشرة البركة العامة فى كل شئ من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوما وبانسان صحبه ورآه حيا. والسادسة عشرة تسخير الأرض من البر والبحر حتى ان شاء سار فى الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الأرض بأقل من ساعة. والسابعة عشرة تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها فتحبه الوحوش وتبصبص له الأسود. والثامنة عشرة ملك مفاتيح الأرض فحيثما يضرب بيده فله كنز ان أراد، وحيثما يضرب برجله فله عين ماء ان احتاج، وأينما نزل فله مائدة تحضره ان قصد. والتاسعة عشرة القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغى الخلق الوسيلة الى الله تعالى بخدمته ويستنجح الحاجات من الله تعالى بوجاهته وبركته. والعشرون اجابة الدعوة من الله تعالى فلا يسأل الله تعالى شيئا الا أعطاه ولا يشفع

عرضك. وهذا القدر يا فتى يكفيك من بداية الهداية فجرب بها نفسك فانها ثلاثة أقسام : قسم فى آداب الطاعات وقسم فى ترك المعاصى وقسم فى مخالطة الخلق وهى جامعة جميع معاملة العبد مع الخالق والخلق فان رأيتها مناسبة لنفسك ورأيت قلبك مائلا اليها راغبا فى العمل بها فاعلم أنك عبد نور الله قلبك بالايمان وشرح به صدرك، وتحقق أن لهذه البداية نهاية ووراءها أسرارا وأغوارا وعلوما ومكاشفات وقد أودعناها فى كتاب

لأحد

لأحد الاشفع ولو أقسم على الله تعالى لأبره بما شاء حتى ان منهم من لو أشار الى جبل لزال فلا يحتاج الى السؤال باللسان ولو خطر بباله شىء لحضر ولا يحتاج الى الاشارة باليد فهذه كرامات فى الدنيا. وأما التى فى العقبى فالحادية والعشرون أن يهون الله عليه أولا سكرات الموت وهى التى وجلت قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيها حتى سألوا الله أن يهونها عليهم حتى ان منهم من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال للظمآن قال الله عز وجل ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ والثانية والعشرون الثبات على المعرفة والايمان وهو الذى منه كل الخوف والفزع وعليه كل البكاء والجزع قال الله عز من قائل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ والثالثة والعشرون ارسال الروح والريحان والبشرى والرضوان والأمان قوله سبحانه وتعالى ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فلا يخاف مما يقدم عليه فى العقبى ولا يحزن على ما خلفه فى الدنيا. والرابعة والعشرون الخلود فى الجنان ومجاورة الرحمن. والخامسة والعشرون الجلوة فى السر لروحه فيعرج على ملائكة السموات والأرض بالاكرام والالطاف والانعام ولبدنه فى العلانية بتعظيم جنازته والمزاحمة على الصلاة عليه والمبادرة الى تجهيزه يرجون بذلك أكثر ثواب ويعدونه أعظم غنم. والسادسة والعشرون الأمان من فتنة سؤال القبر وتلقين الصواب فيأمن من ذلك الهول. والسابعة والعشرون توسيع القبر وتنويره فيكون فى روضة من رياض الجنة الى يوم القيامة. والثامنة والعشرون ايناس روحه ونسمته واكرامها فتجعل فى أجواف طير خضر مع الاخوان الصالحين فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله. والتاسعة والعشرون الحشر فى العز والكرامة من حلل وتاج وبراق. والثلاثون بياض الوجه ونوره قال الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وقال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ والحادية والثلاثون الأمن من أهوال يوم القيامة قال الله تعالى ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والثانية والثلاثون الكتاب باليمين ومنهم من كفى الكتاب رأسا. والثالثة والثلاثون تيسير الحساب ومنهم من لا يحاسب أصلا. والرابعة والثلاثون ثقل الميزان ومنهم من لا يوقف للوزن أصلا. والخامسة والثلاثون ورود الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ بعدها أبدا. والسادسة والثلاثون جواز الصراط والنجاء من النار حتى ان منهم من لا يسمع حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون وتخمد لهم النار. والسابعة والثلاثون الشفاعة فى عرصات القيامة نحوا من شفاعة الأنبياء والرسل. والثامنة والثلاثون ملك الأبد فى الجنة. والتاسعة والثلاثون الرضوان الأكبر. والأربعون لقاء رب العالمين اله الأولين والآخرين بلا كيف جل جلاله (ثم أقول) وانما عددت ذلك على حسب فهمى ومبلغ علمى فى قصوره ونقصه ومع ذلك فقد أجملت وأوجزت وذكرت الأصول والجمل ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب، ألا ترى أنى جعلت ملك الأبد خلعة واحدة ولو فصلتها لارتفعت على الأربعين خلعة من نوع الحور والقصور واللباس وغير ذلك. ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل لا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة الذى هو خالقها ومالكها وأى مطمع لنا فى معرفة ذلك وربنا سبحانه يقول ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ثم ان رسول الله ﷺ يقول «خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وان المفسرين يقولون فى قوله تعالى ﴿لَنَفِدَ

احياء علوم الدين

فاشتغل بتحصيله فان رأيت نفسك تستقل العمل بهذه الوظائف وتترك هذا الفن من العلم وتقول لك نفسك أنى ينفعك هذا الفن فى محافل العلماء ومتى يقدمك هذا على الاقران والنظراء، وكيف يرفع منصبك فى مجالس الأمراء والوزراء ليوصلك الى الصلة والأرزاق وولاية الأوقاف والقضاء فاعلم أن الشيطان قد أغواك وأنساك منقلبك ومثواك فاطلب لك شيطانا مثلك ليعلمك ما تظن

الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ ان هذه هى الكلمات التى يقولها الله تعالى لأهل الجنة فى الجنة باللطف والاكرام وما تكون حاله هذه فأنى نبلغ جزءا من ألف جزء منه ونحن بشر أو كيف يحيط به علم مخلوق كلا، بل تقاعدت الهمم وتقاصرت دونه العقول وحق أن يكون ذلك كذلك وهو عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود القديم. ألا فليعمل العاملون وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم، وليعلموا أن ذلك كله أقل قليل فى جنب ماهم اليه محتاجون واياه يطلبون وله يتعرضون، وليعلموا أن العبد لابد له فى الجملة من أربعة: العلم والعمل والاخلاص والخوف فيعلم أولا الطريق والا فهو أعمى. ثم يعمل بالعلم والا فهو محجوب، ثم يخلص العمل والا فهو مغبون، ثم لا يخاف ويحذر من الآفات الى أن يجد الأمان والا فهو مغرور. ولقد صدق ذو النون حيث قال: الخلق كلهم موتى الا العلماء، والعلماء كلهم نيام الا العاملين، والعاملون كلهم مغترون الا المخلصين، والمخلصون كلهم على خطر عظيم (قلت أنا) والعجب كل العجب من أربعة: أحدها من عاقل غير عالم أما يهتم بمعرفة ما بين يديه أما يتعرف ماهو مطلع بعد الموت عليه بالنظر فى هذه الدلائل والعبر والاستماع الى هذه الآيات والنذر والانزعاج بهذه الخواطر والهواجس فى النفس قال الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال تعالى ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والثانى من عالم غير عامل بالعلم أما يتفكر ما يعلم يقينا مما بين يديه من الاهوال العظام والعقبات الصعاب وهذا هو النبأ العظيم الذى أنتم عنه معرضون. والثالث من عامل غير مخلص أما يتأمل قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ والرابع من مخلص غير خائف أما ينظر الى معاملاته جل جلاله مع أصفيائه وأوليائه وخدمه الدالة بينه وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق عليه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآيات ونحوها حتى حكى أنه كان عليه السلام يقول شيبتنى هود وأخواتها. ثم جملة الأمر وتفصيله ما قال رب العالمين فى أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ثم قال جل اسمه ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ثم قال جل من قائل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ * ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زل به القدم أو طغا به القلم، ونستغفره من كل أقاويلنا التى لا توافق أعمالنا. ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتزين فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه. ونسأله أن يجعلنا واياكم يا معشر الاخوان بما علمناه عاملين ولوجهه به مريدين. وأن لا يجعله وبالا علينا. وأن يضعه فى ميزان الصالحات اذا ردت أعمالنا الينا انه جواد كريم

قال الشيخ رضى الله عنه فهذا ما اردنا أن نذكره فى شرح كيفية سلوك طريق الآخرة وقد وفينا بالمقصود. والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات. وبفضله تنزل البركات.

وصلى الله على خير مولود دعا الى أفضل معبود محمد النبى وآله
وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه
على كل حال

أنه ينفعك ويوصلك الى بغيتك. ثم اعلم انه قط لا يصفو لك الملك فى محلتك فضلا عن قريتك وبلدك ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين * والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ فهرست منهاج العابدين لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى ﴾

﴿ تمت ﴾

﴿ فهرست بداية الهداية الموضوع بهامش هذا الكتاب ﴾

﴿ تمت ﴾